جامعة تونس

كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية بتونس

مدرسة الدكتوراه البنيات والنظم والنماذج والممارسات

في الآداب والعلوم الإنسانية والاجتماعية

الحنّاء ورسومها بجهة بنزرت

رسالة بحث لنيل شهادة الماجستير في علوم التّراث

اختصاص: تراث تقليدي

إعداد الطالبة: سعاد بن لاغة

إشراف الأستاذ: د. عماد صولة

جوان 2014

إهداء

إلى رُوحيْ أمّي و جدّتي ...

إلى أبي أدامه الله لي بصحّة و عافية.

إلى إخوتي اللّذين هم قُدوتي في الحياة.

إلى زوجي و ابنتي رفيقا دربي إلى الممات.

إلى كلّ من يعرفني من العائلة أو الأصدقاء

أهدي عملي هذا

الشكر

بعد الشّكر و الحمد لله.

أتقدّم بتحيّة تقدير إلى المؤسّسة الجامعيّة "جامعة تونس الأولى"- 9 أفريل - التّي مكّنتني من المضيّ قدما في سبيل العلم و المعرفة.

كما أتوجّه بجزيل الشّكر و الامتنان إلى كلّ من ساعدني من قريب أو بعيد في إنجاز هذا البحث. و أخصّ بالذّكر الاستاذ المؤطّر "عماد صولة" الذّي لم يبخل عليّ لحظة واحدة في توجيهي و مدّي بالنّصيحة و الارشاد.

مع شكر خاصّ لكلّ من تقبّلني بصدر رحب و كان عونا لي في الحصول على المعلومات بمختلف مناطق جهة بنزرت.

مقدّمة عامّة

- توطئة:

لا يقتصر التراث على عناصر بعينها قابلة للحصر في قائمة مغلقة، وإنّما يشمل مظاهر متعددة ترتبط بمختلف مجالات الحياة في بعديها الفردي والجماعيّ. وما السّجل التُراثي لمجتمع ما، سوى مرآة تعكس خبرته التي راكمها عبر تجربته الطويلة في إطار منظومة ثقافية خاصة قد تشكلت على أساس التفاعل بين معطيات الماضي ومتطلبات الحاضر.

وتعدّ التقاليد والرموز من أهمّ أركان ما صار يسمى في السنوات الأخيرة "التراث الثقافي غير المادّي" ، ذلك أنّها ظلّت محفوظة في ذاكرة الناس كما في ممارساتهم، وحسبنا التذكير باستمرار حضورها في أهم الأحداث والمناسبات الاجتماعية لا سيما تلك المرتبطة بدورة الحياة. ويمكن القول إنّ ديمومة هذا التراث غير المادي مشروطة باستمرار التقاليد المعبّرة عنه.

وبعيدا عن كونها مجرّد فولكلور يعكس ذهنيات وطرائق سلوك وأنماط عيش عتيقة، فإنّ التقاليد كثيرا ما تتكيّف مع معطيات الحياة العصرية لتؤمّن وظائف مختلفة في نطاق جدلية الثبات والتغيّر، وهو ما يتجسّد في الكثير من الممارسات مثل الحنّاء التي تمثّل ثقافة تجمع بين المادي والرمزي والخصوصيّ والمشترك والدّيني والدّنيوي، فانطلاقا من هذه النبتة المعتبرة من نباتات الجنة والتي أوصى بها النّبي (ص)، ترسّخت جملة من المعارف والتقاليد والتصورات والرمزيات المرتبطة باستخدامها، فكان حضورها بارزا في أهمّ المناسبات الاجتماعية في المجتمع التونسي ملازمة الإنسان من الولادة إلى الموت، حتى أنّ الاحتفال لا يستقيم بدونها، فهي باختصار شديد « نبتة صبغيّة، احتفاليّة، عطريّة، علاجيّة، تجميليّة »[1] على حدّ عبارة مالك شبل.

ومهما تنوّعت مجالات الاستعمال، فإنّها وفي نهاية المطاف ليست سوى تجسيدا لجملة من التصوّرات والمعتقدات المرتبطة بجماعة بعينها، عاكسة بذلك روح الثقافة الفرعيّة التّي هي كما يقول

[1]- Mallek Chebel *: Dictionnaire des symboles musulmans: Rites, mystique et civilisation,* Editions Albin Michel S.A, Paris 1995, p 197

انتوني غدنز « لا تشير الى الجماعات الاثنيّة واللغويّة في المجتمع الواسع فحسب، بل يمكن أن تدلّ على شرائح سكانيّة تميّزها أنماطها الثقافيّة عن بقيّة المجتمع».[2]

من هذا المنطلق، كانت فكرة دراسة الحنّاء ورسومها بجهة بنزرت، باعتبارها ثقافة تراثية حيّة جديرة بالاهتمام.

- دواعي اختيار الموضوع:

إنّ سبب اختياري للحنّاء كموضوع للبحث، يرجع إلى اعتبارات عديدة. منطلقها هو معايشتي لهذه الممارسة التقليدية منذ الصغر. فهي التّي لم تغب يوما عن عاداتنا العائليّة شأننا في ذلك شأن معظم إن لم نقل كلّ العائلات التونسيّة. وما شدّ انتباهي هو حضورها المتميّز بمجتمعنا في العديد من المناسبات. لتشكّل في كثير من الأحيان هاجسا أضحى بمثابة الاعتقاد والإيمان بقوّتها وتأثيرها على حياة الفرد. فالسّعادة الزوجيّة ترتبط وجوبا بوضع الحنّاء للعروس حسب المعتقد النسائيّ " للْهْنا ". وكأنّنا بهذا النبات الصبغيّ يكتسب سلطة خفيّة تجاه واضعته.

وأمّا فكرة رسوم الحنّاء، فمردّها ما لاحظته من اختلافات في طرق رسمها وأشكالها بين العديد من الجهات بالبلاد التونسيّة، ناهيك عن البلدان العربيّة أو المستعملة للحنّاء بصفة عامّة كالهند مثلا، فقد تفطنت إلى أنّ تلك الرّسوم بجهة بنزرت، تتميّز بتكرار أنواع دقيقة من الأشكال لتختلف تسمية التّحنية باختلاف الرّسم. أو أن تحضر نفس الأشكال رغم تغيّر المواضع التّي وُضعت عليها الحنّاء.

وأمّا عن اختياري لجهة بنزرت كمجال للبحث، فأوّل ذي بدء هو انتمائي إلى هذه الجهة، وهو ما سمح لي بملاحظة كمّ هائل من العادات والتقاليد التّي تختلف حتّى بين تلك المناطق الأكثر قربا من الناحية الجغرافيّة. فلكلّ مجتمع قروي أو حضري، ممارساته ومعتقداته وخاصّياته الحضاريّة، التّي تفضي ومن دون شكّ إلى وجود فروقا إثنية تميّزه عن الآخر. وهو ما التمسناه بدءا من اختلاف اللّهجات والطّرق الاحتفاليّة بالزّواج وحتّى العادات الغذائيّة وغيرها من المجالات الحياتيّة. ولنا أن نذكر على سبيل المثال، طريقة حفلات الزفاف التّي تتّبع بمدينة رأس الجبل والتي تختلف عن تلك المنتشرة بمدينة العالية أوالماتلين رغم قرب المسافة الفاصلة بينها.

ولعلّ هذه الاختلافات، في بعض الممارسات داخل مناطق تشترك عموما من حيث خلفيتها التاريخيّة والحضاريّة، يدفعنا إلى التّساؤل عن علاقتها هي الأخرى ببقيّة مناطق الجهةالتّي تختلف

---

[2]- انتوني غدنز: **علم الاجتماع**، ترجمة وتقديم، فايز الصياغ، المنظمة العربية للترجمة، ط1، بيروت أكتوبر 2005، ص 85.

عنها جغرافيّا وتاريخيّا، وذلك بالبحث عن واقع إستعمال الحنّاء في المجتمع البنزرتي بمختلف مناطقه، الذّي هو استعمال لا يمكن تغييبه عن أي وسط عائلي أو جماعي مهما تنوّعت انتماءاته .

من جهة ثانية، فإنّ اختياري لجهة بنزرت جاء نتيجة لتغييب العديد من المناطق والتّي لم تجد الحظّ الكافي في التّعريف بها - خاصّة منها تلك المناطق القرويّة - والتّي لا تكاد تخلو هي الأخرى من خصوصيات ثقافية تجسّدها جملة ممارساتها التقليديّة، فمن منّا لا يعرف صناعة الفخار بسجنان أو حرفة التطريز برفراف، بينما في المقابل هناك مناطق لم يقع ذكرها قط أو الإكتفاء بالإشارة إليها دون التعريف بعاداتها، نذكر على سبيل المثال عوسجة والقرية والختمين...

ومن أهمّ الأسباب الموضوعيّة التّي دفعتني إلى الحنّاء كموضوع بحث هو الافتقار إلى دراسات مختصّة ومعمّقة لهذه الممارسة التقليديّة بمجتمعنا التونسيّ. والتّي لا يمكن نعتها سوى بالهامّة نظرا لما تختزنه من أبعاد تراثية متعدّدة.

-الإشكاليّة المطروحة:

انطلاقا من المعطيات الإتنوغرافيّة المجمّعة عبرالعمل الميداني يحاول البحث إعادة تركيب الثّقافة التّقليديّة المتعلّقة بالحنّاء بجهة بنزرت على صعيدين أساسيّين هما الممارسات والمهارات و التّصوّرات و الرّمزيّات، و ذلك كمرحلة أولى قبل دراسة علاقة هذه الثّقافة بالسّياق الإجتماعي المحلّي الذّي ترتبط به ، فإذا كانت هي مستمرّة إلى الآن ، فلا شكّ لأنّها لا تزال على صلة وثيقة بالواقع الرّاهن .

من هنا كان التّساؤل عن مجمل الوظائف الّتي تضطلع بها ممارسة الحنّاء اليوم بجهة بنزرت في علاقتها بدورة الحياة والمناسبات الإجتماعيّة.

كما كان التّساؤل عن خصائصها من النّاحية الفنّيّة و التّقنيّة بأعتبارها تقوم على مهارات ومرجعيّات خاصّة ،وذلك قبل محاولة تحليل الأبعاد الرّمزيّة الّتي تنطوي عليها ،ذلك أنّها تتّخذ أشكالا رمزيّة عفويّة لا تفصح عن معناها في الغالب بصفة مباشرة ممّا يدعو إلى تحليلها و تأويلها.

- دراسة نقديّة للمصادر والمراجع:

تتمثّل المصادر المكتوبة في مجموعة من الكتب والمدوّنات التّي ساعدتنا في عمليّة البحث. وذلك من خلال إمّا تناولها للموضوع أو الاشارة إليه أو احتوائها على معلومات أفادتنا في عمليّة التّدقيق والتّمحيص.

تضمّنت المصادر في أغلبها كتب الفقه والتّفسير والمعاجم (لسان العرب...). وأمّا المراجع فكانت في مجملها إمّا كتب أو دراسات تونسيّة وعربيّة أو مجلاّت (مجلّة الفنون والتّقاليد الشّعبية، مجلّة معهد الآداب العربيّة .IBLA..) أو كتب غربيّة.

مكّنتنا المصادر المكتوبة، و لو بشكل جزئي، من إثراء هذه الدّراسة، حيث أفادتنا بمعرفة الحنّاء وكيفيّة حضورها بالمجتمع العربي الإسلامي هذا من ناحية، ومن ناحية ثانية غُيّبت بها معلومات عن تلك الممارسة في فترات ما قبل الإسلام.

أمّا المراجع فاختلفت درجة إفادتنا باختلاف تناولها للموضوع. و لكنّها أسهمت إجمالا في مساعدتنا على تحليل وفهم جوانب عدّة من البحث. إلا أنّه ليست هناك كتب أو دراسات سابقة تخصّ موضوع البحث ومجاله الجغرافيّ في آن واحد. والمقصود هنا الحنّاء ورسومها بجهة بنزرت، فحتّى و إن جاء ذكرها ببعض الكتابات، فقد كان ذلك عبر إشارات لا غير.

أمّا المصادر الشفويّة، فتمثّلت في الحصول على معلومات تخصّ الموضوع عن طريق القيام بعمل ميداني، وذلك بالتنقّل والمقابلة المباشرة لجمع البيانات وتحليلها و من ثمّ تفسير النّتائج.

تجاوز عدد المحاورين 70 محاورا من مختلف الأعمار (بين 5 سنوات و80 سنة) أغلبهم من العنصر النّسائي نظرا لتفرّد المرأة في معظم الأحيان باستعمال الحنّاء والدّراية بأمورها أكثر من الرّجل. مع توجّه خاصّ للنّساء كبيرات السّن لأنّهن حفظة التّراث بدرجة أولى. والنّساء اللاّتي تمتهنّ مهنة " الحَنّانة " لأنّهن في علاقة دائمة مع هذا النّبات الصبغيّ. ولكنّنا لم نُهمل الجانب الرجاليّ أيضا باعتباره يُسهم هو الآخر سواء بشكل مباشر أو غير مباشر في استمراريّة هاته الممارسة التقليديّة. كما لم ننسى الأطفال من الفتيات والفتيان (خصوصا في حفلة ختانهم) وذلك لبيان تلك العلاقة بين الحنّاء والفكر الطفوليّ.

تنوّعت وظائف الفئة المستجوبة من ربّات البيوت والمحترفات لمهنة " الحَنّانه" والعطّارين (أصحاب دكاكين بيع العطورات ومختلف مواد الزّينة التقليديّة) ومعلّمات وطالبات .....

واختلفت ردّة الفعل بين المستجوب المتقبّل المتحمّس ليصل إلى حدّ الفضول، والسّعي إلى مدّي بالمعلومات قدر الإمكان. والآخر الرّافض بزعامة جهله للحنّاء.

-تقنيّات البحث

أ- **الملاحظة بالمشاركة:** هي واحدة من أهم التقنيات الأنثروبولوجية، وقد تمّ اعتمادها لوصف ما يجري من ممارسات، فكانت مواكبة العديد من الاحتفالات، خصوصا ليالي الحنّاء (للعروس

والعريس والمطهّر)، بل والمشاركة فيها فرصة مكنت من بالتّسجيل وأخذ صور فوتوغرافيّة والكثير من العناصر الإتنوغرافية.

ب- **المقابلة** : استعملت للحصول على بيانات متعلقة بالفنون والمهارات والتصورات التي تنطوي عليها ممارسة االحناء. ولئن تركزت على المسنّات، فإنّها شملت أيضا بقية الفئات العمريّة في محاولة لاستخراج نقاط التشابه والاختلاف بين الأجيال وبين الماضي والحاضر.

- صعوبات العمل الميدانيّ وكيفيّة تجاوزها:

تمثّلت الصّعوبات بالأساس، في ردّة فعل الشّخص المُستجوب الذّي إمّا أن تكون إجاباته باقتضاب شديد ليكتفي بمدّي بمعلومات سطحيّة. أو النّفي المطلق عن معرفته بشؤون الحنّاء أو الاستغراب من الموضوع وعلاقته بالدّراسة الجامعيّة ليصل إلى حدّ الاستهزاء.

ولتجاوز هذه الصّعوبات، عمدت إلى الحوار التّلقائي مع المستجوب في محاولة لدفعه للحديث عن محاور شخصيّة وإستدراجه شيئا فشيئا إلى صلب الموضوع. وذلك بالبدء من مواضيع عاديّة يوميّة لتمتين العلاقة معه وجعله المتقبّل للإجابة عن الأسئلة التّي يكون هو منطلقها. كآخر مرّة استعمل فيها الحنّاء أو المكان الذّي يقتني منه أو نوع الرّسم الذي يفضّله...

- المصطلحات الرّئيسيّة:

❖ **<u>الحنّاء</u>** :

تسمّى الحنّاء علميّا، بلوزنيا انرمي Lawsonia inermis وهو اسم وُضع عن طريق كارل فون ليني Carl von linné في حوالي 1730 كإخلاص للطبيب اسحاق لوسن Isaac lawson[3]. وأمّا إسمها العربي "الحنّاء" فهو ينتشر في العديد من البلدان لينطق تقريبا بنفس اللّفظ. ففي إيران تُعرف ب'حِنَا' وفي تركيا 'كِنّا' وفي اسبانيا 'الحِينَا'.[4]

وبتعبير ابن منظور « والحِنّاءُ، بالمدّ والتّشديد: معروف، والحِنَّاءَة : أخصّ منه، والجمع حِنَّانٌ، عن أبي حنيفة وأنشد:

ولقد أرُوحُ بِلِمَّةٍ فَيْنَانَةٍ،

سَوْداء، لَمْ تُخْضَبْ من الحِنَّانِ

[3]- Renaut Luc: *Recherches sur le henné antique*, J.N.E.S, vol 68 /3 July 2009 (p 193-212) p 193.

[4]- G.S Colin : *Encyclopédie de l'islam*, nouvelle edition tome III, H-IRAM, 1975 p 477

وحنّأَ لحيته وحنّأَ رأسه تَحْنِيئًا وتَحْنِئَةً: خَضَبَهُ بالحِنَّاءِ»[5].

عُرف هذا النّبات منذ القدم ولقي اهتماما كبيرا من قبل العلماء العرب. ليُدوَّن بمختلف استعمالاته بالكتب الدينيّة والطبيّة. وهي شجيرة من العائلة الحنائيّة، وعموما لا يتجاوز طولها المتر الواحد.[6] « ورقها على أغصانها وهو يشبه ورق الزّيتون غير أنّه أوسع وألين وأشدّ خضرة. فاغية هو نوّار الحنّاء يشبه نوّار الرّيحان إلا أنّه عناقيد وهو نوّار أبيض إلى الصفرة حادّ الرّائحة»[7].

وفي تعريف آخر« قال بعض الأطباء: الحنّاء نبات يزرع ولا يُوجد بدون الماء. ويعظم حتّى يقارب شجر الكبار بجزائر السويس وما يليها، ورقه كورق الزيتون لكنّه أعرض يسيرا ونوره أبيض، وإذا أطلقت الفاغية فالمراد زهره والحنّاء فورقه، وليس لعيدانه نفع، وأجوده الخالص الحديث، وتبطل قوّته بعد أربع سنين»[8].

يستعمل عادة من نبات الحنّاء الأزهار و الاوراق. وأمّا الازهار فتستغلّ في استخراج العطور وأمّا الأوراق فتكون لغاية التخضيب و المداواة و ذلك بعد تجفيفها و سحقها. وعلى حدّ وصف الخطيب العدناني فإنّ للحنّاء « زهر جميل أبيض يمثّل إكليلا كإكليل الرّيحان وتاجا كعرف الفرس. له رائحة طيّبة إذا سقط عليها النّدى أيّام الصّيف، ملأت البستان عبيرا وشذى لا يوصف. ولكنّه لا يُجتنى ولا تلبسه الغانيات لأنه يتحتّت من أعواده. وله ورق صغير كورق الاس ولكن لا طيب فيه، وإنّما يخرط من أعواده فيلقى في الشمس حتّى يكون مسحوقا فيستعمل في خضاب الشّيب في شعر الرّأس واللّحية وخضاب اليدين والرّجلين للنّساء والفتيات إذا عُجن بالماء ووُضع على العضو الذّي يُراد صبغه بلون أحمر. ولكنّه لا يتّم صبغه إلا بعد أن يبقى على المصبوغ مدّة 6 ساعات على الاقلّ، حتّى يجفّ فإذا تمّ جفافه غُسل موضعه فيظهر أحمر لمّاعا وقد يمزج به مواد أخرى تزيده نصوعا في الحمرة وإلتماعا»[9] .

---

[5]- ابن منظور : **لسان العرب**، المجلّد الاول، دار صادر بيروت دون تاريخ،ص 61 .

[6]- Vonderheyden M*: Le henné chez les musulmans de l'Afrique du Nord*. Journal de la Société des Africanistes. 1934, tome 4 n°1. pp. 35-61.p36.

[7]- أبو جعفر أحمد بن إبراهيم الجزار: **الاعتماد في الأدوية المفردة (العلاج بالأدوية العربية)**، حقق المخطوطة ادوار القش، شركة المطبوعات للتوزيع والنشر، الطبعة الأولى 1998، ص 31.

[8]- محمد بن أحمد بن سالم السفاريني: **غذاء الألباب في شرح منظومة الآداب**، الجزء الأول، مؤسسة قرطبة 1993 ط2 ص416.

[9]- الخطيب العدناني : **الملابس والزّينة في الإسلام**، مؤسسة الانتشار العربي، الطبعة الأولى1999 ص408.

❖ **الرّسم** :

يُمثّل الرّسم أو التّصوير من أقدم وسائل التّعبير التّي عرفها الانسان. وقد جعل منه هذا الاخير أداة تلخّص أفكاره وإنشغالاته على مرّ العصور. فانطلق من الخطّ والنّقطة واعتمد مواد وألوان صبغيّة مختلفة ليشكّل رسوما جداريّة أو جسديّة أو زخرفيّة تجسّد معتقداته.

وكان للرّسم وقع في كلّ الحضارات الماضية وتواصل عبرالأجيال ليكون الحديث عن ما يعرف اليوم بالتّصوير الشّعبي. وهو بتعبير أكرم قانصو: «إنّه مجموعة من الخطوط والألوان والأشكال، مرسومة بمواد سهلة وميسّرة غنيّة بالرّموز والدلالات، وتختصر تاريخ أمّة بمالها من تقاليد وعادات. إنّه يعبّر عن روح الجماعة ويتماشى مع ذوقها. فن أفرزته الثقافة مع الأيّام يمارسه الناس إبداعا وتذوّقا. يكون مجهول الهويّة والتاريخ أحيانا، لأنه ملك الجماعة. فن وظيفي غايته إمّا جماليّة بقصد تزيق البيوت والحوانيت والأواني والجسد.. وإمّا علاجيّة بقصد الاستشفاء من بعض الأمراض. وإمّا سحرية بقصد طرد الأرواح الشريرة وتجنّب إصابة العين... وإمّا دينيّة بقصد العبادة والتّقوى مواضيعه دائما تدور حول السير الشعبيّة والدّين والتّاريخ والزخرفة »[10].

وكثيرا ما تحضر الحنّاء في علاقة بالرّسم، خصوصا باتّخاذها كأداة للزينة والنقش على يدي وقدمي المرأة، التّي لم تبخل بدورها بإقحامها في جوانب عدّة من مجالاتها الحياتيّة. ليتجاوز الرّسم جسدها الأنثوي ويتجلّى في مواضع أخرى.

عُرف عن استعمال الحنّاء في المجتمعات العربيّة الإسلاميّة وفي أزمنة سابقة، أنّ صبغة اليدين والقدمين تكون في شكل خضاب، عن طريق الغمس أي دون شكل أو رسم. وكما جاء في الآداب الشرعيّة للمقدسي فإنّ الرّسول نهى عن النّقش « وروى المروذي في الورع نت طرق: عن عمر رضي الله عنه: أنّه نهى عن النّقش والتّطاريف، زاد في رواية: ويختضبن غمسا. وروى أيضا عن عائشة رضي الله عنها: أنّها سُئلت عن الخضاب فقالت: لا بأس ما لم يكن نقشا وعن إبراهيم قال: يُكره النّقش ورُخّص في الغمسة. وروى أحمد بإسناده عن أنس رضي الله عنه عن النبيّ (ص) أنّه أمر في الخضاب أن تُغمس اليد كلّها . وقال المروذي: وأخبرتني إمرأة قالت نهاني أبو عبد الله عن النّقش في الخضاب وقال: أغمسي اليد كلّها »[11].

---

[10]– اكرم قانصو: **التصوير الشعبي العربي**، عالم المعرفة 1995 ص 13.

[11]– عبد الله محمد ابن مفلح المقدسي(المتوفّي سنة 763 هـ): **الآداب الشرعيّة** ، تحقيق شعيب الارنؤوط وعمر القيّام، الجزء الثالث، مؤسسة الرسالة، بيروت 1999. ص 506

و هو ما فسّر إستعمال المرأة العربيّة بصفة عامّة والمرأة بجهة بنزرت بصفة خاصّة، في فترات ماضية، وضع الحنّاء على اليدين على هاته الشّاكلة. كما لازالت تُتّبع عند الكثيرات من كبيرات السّن إلى اليوم. وهو ما أفادتنا به الحاجّة ذهبيّة* بقولها : « كلّما رغبت بوضع الحنّاء ، أقوم بذلك بمفردي فأكتفي بتمرير العجينة على كامل الكف والأصابع .كما أحرص على تغطية أظافري ليُعوّض بياضها باللّون الحنّائيّ ولا أكترث برسم دقيق فالمهمّ بالنّسبة لي أن لا تفارق يديّ لفترة طويلة».

والحنّاء شأنها شأن كلّ الممارسات الّتي عرفها الانسان، والّتي لم يبخل عليها ما يُعرف بالموروث في جعلها متّخذة مسارا لا يقبل الثّبات. فهي لم تبق حبيسة الغمس، وإنّما ظهر مفهوم الرّسم بالحنّاء، ولعلّها بذلك أعادت إحياء ما كانت عليه في عهود ماضية قبل الإسلام أو هو تطوّر إنسانيّ لمفهوم الزّينة. ولكن بين هذا وذاك، ليست هناك حقائق ثابتة تؤكّد إلى أيّ حقبة تاريخيّة يرجع استعمال الحنّاء كرسوم تتزيّن بها المرأة. ولكن قد تكون «الفرضيّة الأرجح في أصل ظهور الرّسم بالحنّاء هي مصر، أين انتشرت هذه الممارسة، لتصل في النّهاية إلى المغرب والشّرق الاوسط والهند وآسيا من الجنوب الشرقيّ والشّرق.»[12].

- **هيكل البحث :**

انقسم العمل إلى خمسة أبواب مع مقدّمة وخاتمة .

وقد جاء الباب الأوّل عبارة عن تقديم لمجال البحث الّذي هو جهة بنزرت من حيث الخصائص الطّبيعيّة و الخلفيّات التّاريخيّة تأكيدا للصّلة الوثيقة بين ممارسة الحنّاء و بيئتها المحلّيّة .

أمّا الباب الثّاني فتركّز على الحنّاء كمادّة لونيّة ترتبط بها جملة من التّقنيّات و الخبرات في الإستعمال.

بينما كان الباب الثّالث تتبّعا لحضور الحنّاء في دورة الحياة و أهمّ مناسباتها الإجتماعيّة.

وآنصرف الباب الرّابع إلى الجوانب الفنّيّة للحنّاء من حيث الأشكال الزّخرفيّة والألوان.

وكان الباب الخامس و الأخير محاولة لتجاوز شكل الممارسة الفنّي و المادّي لإدراك دلالتها الخفيّة عبر تحليل أبعادها الرّمزيّة.

---

* ذهبيّة الجبالي 78 سنة ، أصيلة منطقة ماطر.

12- Collectif *: traditional henna designs,* the pepin press, amesterdam and Singapore, 2000, p. 214

الباب الأوّل :

تقديم مجال الدّراسة : ولاية بنزرت من حيث الخصائص الجغرافية والمعطيات التاريخية

تُمثّل جهة بنزرت المجال الجغرافيّ لبحثنا الميدانيّ هذا. وذلك في محاولة لدراسة كيفيّة حضور الحنّاء ورسومها بمختلف مناطقها. ومن الجدير بنا أن نتطرّق في البداية، إلى تحديد كلاًّ من الإطارين الجغرافيّ والتاريخيّ، باعتبارهما البوّابة الأولى لبسط فكرة عامّة عن الجهة ككلّ، ومن ثمّ معرفة مدى تأثيرهما في حياة السّكان ونمط عيشهم.

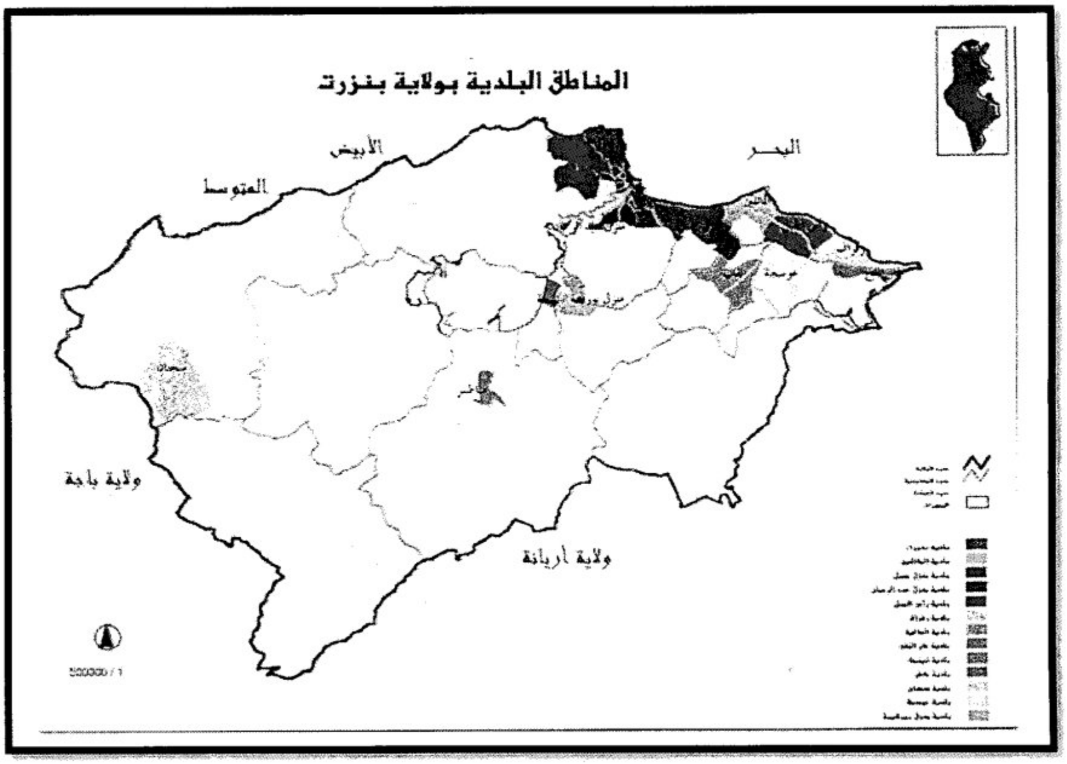
فالعامل الجغرافيّ يفرض نفسه ، في نوعيّة حياة الإنسان وجملة الممارسات التي يقوم بها. كما لا يمكن أن نغيّب أن تأثير الطبيعة في معتقدات هذا الكائن يرجع إلى نشأته الأولى في هذا الكون. فالبعد المكاني واختلاف التضاريس والمناخ تؤدي في أحيان كثيرة لنشوب تباينات في العادات والتقاليد من بلد لآخر، وحتّى داخل البلد نفسه نجد فروقًا واضحة ما بين المدينة والقرية، والمدن بين بعضها البعض. كما للعامل التّاريخي الدّور الأهمّ في الكشف عن مواطن الاختلافات والانتماءات الحضاريّة بين هذا وذاك . ليكوّنا معا بنية متكاملة لا تتجزّأ في علاقة بواقع الإنسان المُنتمي لمجموعة ذات صلة كونيّة.

ومن هذا المدخل، فإنّ الحنآء كممارسة تقليديّة وإن هي أجمعت في حضورها على كلّ المناطق بجهة بنزرت دون استثناء، إلاّ أنّ هذا الحضور المتميّز لا ينمّ سوى عن ضرورة البدء من تلك المعطيات الطبيعيّة الحضاريّة، للغوص في حيثيّات الموضوع واستنباط أوجه التّشابه والاختلاف.

1. الإطار الجغرافي:

أ- الخصائص الطبيعيّة:

تقع جهة بنزرت في أقصى شمال القارّة الإفريقية، في مدخل مضيق صقليّة. تُشرف على حوضي المتوسّط الشّرقي والغربي[13]. وهي في الشّمال الشرقيّ للبلاد التونسيّة بين خطي العرض 37°و38° شمالي (رأس إنجلة 38°) وبين خطي الطول 9° و10° شرقي خط غرينيتش ويحدّها البحر الأبيض المتوسّط من الشّرق والشّمال والغرب[14].



وثيقة رقم 1: خريطة للمناطق البلديّة بجهة بنزرت

حضور متميّز للبحر بالجهة حيث تمتد السواحل على 250 كم تقريبا بإعتبار سواحل بحيرات إشكل وغار الملح، لتحتل بذلك أطول السّواحل بالبلاد التّونسية. وهي تتميّز عن بقيّة الولايات السّاحليّة بتنوّع المظاهر المرفولوجيّة، فلا هي سواحل صخريّة أجرفيّة متعرّجة مثلما هو الحال لسواحل ولايتي باجة وجندوبة، ولا هي منبسطة ومستقيمة مثلما هو الحال لولايات الوسط والجنوب، فمرفولوجية سواحل

---

[13]- Bonniard (A) *: Bizerte et sa région,* Annales de géographie de France N°188, volume 34, 1925, p133.

[14]- **بنزرت عبر التاريخ**، أعمال الندوة السنوية التاريخية لمدينة بنزرت دورتا سنة 1991 وسنة 1992 نشر جمعية صيانة المدينة – بنزرت 1993 ص 28.

ولاية بنزرت تمتاز بوجود عدّة ثغور تفصلها رؤوس قليلة الإرتفاع وما يميّز سواحل بنزرت عن غيرها هو توغّل البحر في داخل الجهة عن طريق بحيرات بنزرت وإشكل وغار الملح التّي تمثّل ملجأ طبيعيّا ممتازا[15].

من النّاحية التضاريسيّة، تتّصف جهة بنزرت بتفرّق مرتفعاتها التّي تتوزّع تقريبا بمختلف مناطقها والتّي تتميّز بضعف إرتفاعها حيث لا يتجاوز معدّلها 60 م[16]. كما تُعرف بإختراقها العميق لمياه البحر، لتسيطر بذلك في المقابل السّهول والأحواض الداخليّة. ولكن هذا لا ينفي وجود مجموعة من القمم كجبل إشكل (508 م) وجبل الكشابطة (415 م) وجبال مقعد وهذيل وعدد من المرتفعات السّاحلية كجبل النّاظور وجبل سيدي بوشوشة (القريب من قرية الماتلين)[17] .

إلى جانب المرتفعات، نجد امتداد السّهول الشّاسعة والتّي كثيرا ما تشكّلت حول البحيرات. من ميزاتها أنّها ضيّقة بالشّمال والجنوب وممتّدة بجهة الغرب (كأراضي أودية مرازق والقرعة وتينجة في سهل سيدي أحمد) والشّرق(سهل العزيب)[18].

كما تتنوّع بالجهة مصادر المياه المتمثّلة أساسا في الأودية والبحيرات. وأمّا الأودية، فتتركّز أهمّها غرب الجهة. مثل واد مرازق وواد القرع اللّذان يصبّان في بحيرة بنزرت. وخاصّة واد سجنان الذّي ينطلق من جبل الحرش مرورا بواد مغرات، مكوّنا بذلك قرعة سجنان. بالإضافة إلى جملة من الأودية الأخرى، كواد الداموس الذّي يصب في البحر[19] . هناك أيضا نظام البحيرات الذي يعدّ من أحد المميّزات الطبيعيّة والذّي يتكوّن من بحيرة بنزرت (التّي تربط البحر الأبيض المتوسط عن طريق ممرّ مائي) ومن قرعة إشكل (التّي تستمد إسمها من جبل إشكل الذّي يرتفع من الضفة الجنوبيّة للقرعة). وتتّصل البحيرة بالقرعة عن طريق واد تينجة [20].

أمّا من النّاحية المناخيّة، فانّ جهة بنزرت تتمتّع عموما بمناخ معتدل بمعدّل 2° 18. كما تسّجل أعلى الفوارق الحراريّة في شهر أوت حيث تفوق الحرارة المعدّل الأقصى 8° 31 وفي شهر فيفري لتنخفض

---

[15]– **بنزرت عبر التاريخ**، أعمال الندوة السنوية التاريخية لمدينة بنزرت، م.س، ص27- 28.

[16]- Ahmed Kassab et Hafed Sethom : *Les régions géographiques de la Tunisie*, faculté des lettres et des sciences humaines de Tunis, volume XIII, publications de l'université de Tunis, 1981 p 51

[17]- Ibid, p 52

[18]- Ibid, p 52

[19]- Ct Hannezo : *Revue Tunisienne 1904*, tome XI p 450

[20]– فوزي المزوغي: **عمل بنزرت قبيل الاحتلال الفرنسي (1855–1881)** المغاربية للطباعة والنشر والإشهار تونس 2005 ، ص5.

بمعدل أدنى 7° ليقارب بذلك معدّل الرطوبة 73.5 °[21]. وعلى حدّ عبارة بونيار Bonniard « مناخ كهذا، جدّ ملائم للحياة البشريّة، ولتطوير النّشاط الزّراعي بالجهة »[22].

يمكن القول من خلال ما تقدّم، أنّ جهة بنزرت تتمتّع بخصائص جغرافيّة جدّ ملائمة لاستقطاب وإستيطان السّكان بمعظم مناطقها. ولكن ممّا لاشك فيه أنّ في حضور البحر ببعض المناطق وغيابه بمناطق أخرى- والمقصود هنا الدّاخلية منها- تأثيرات مباشرة على نمط العيش وطابعه الحضري أو الرّيفي.

ب-الخصائص السكانيّة (البشرية):

ما نلاحظه في الخصائص الجغرافيّة لجهة بنزرت هو التّنوع والتّباين في المعطيات الطبيعيّة. فامتداد السّواحل سيكوّن حتما مناطقا ساحليّة، لها ميزاتها في علاقتها بالبحر وبالطّبع في الانعكاسات الاقتصاديّة والاجتماعيّة، كما هو شأن مدينة بنزرت والسّاحل البنزرتي. لنجد في المقابل المناطق الدّاخلية التّي تُمثّل امتدادا للأراضي الشّاسعة والغابات وهي لا تكاد تخلو من طابع فلاحيّ ريفيّ، انطلاقا من منطقة البحيرات وسهول ماطر ومجردة وصولا إلى منطقة سجنان والمناطق المجاورة كجومين و بازينة ...

ولعلّ هذا التباين في المعطيات الطبيعيّة ولّد تباينا في طبيعة الحياة الاجتماعيّة والاقتصاديّة والثقافيّة الحضاريّة، لتتّضح لنا صورة المجتمع البنزرتي بين نمطين من العيش: حضري وريفي.

و سنعتمد هذا النّمط كمعيار لتقسيم مناطق الجهة بين حضريّة وأخرى ريفيّة.

والمقصود هنا بطابع حضري، تلك المناطق التّي تتخذ شكل المدينة من حيث كثافة التجمّعات السكانيّة، وبطبيعة الحال إرتفاع عدد السّكّان وسرعة النموّ الديمغرافيّ بها. بالإضافة إلى تنوّع الأنشطة الاقتصادية وخاصّة منها الصناعيّة والخدماتيّة، مقابل ضعف النشاط الفلاحي الذّي لا يمكن تغييبه ببعض المناطق التّي تندرج ضمن كونها حضريّة بالجهة .

كثيرا ما عُرفت جهة بنزرت بطابعها الحضري، إذ بلغ معدّل التحضّر بها 54 % سنة 1975 لتفوق بذلك المعدّل الوطني المتوسّط للتحضّر، الذّي لا يتجاوز 48 % وهذا ما جعل القسم الشرقي من التلّ الشمالي يبرز كأهمّ الجهات الحضريّة بالبلاد التونسيّة[23].

تمتدّ المناطق الحضريّة بالجهة، من بحيرة بنـزرت انطلاقا من مدينة بنـزرت وأحوازها الملاصقة كالكرنيش والناظور وعين الباردة وجرزونة وعين بيطار... إلى جانب مدينة منزل بورقيبة التي تعدّ

21- Ct Hannezo :*Revue Tunisienne* 1904 ,Tome XI p 452
22- Bonniard A. *Bizerte et sa région.* Op. cit. . pp. 133-145.p139
23- Ahmed Kassab et Hafed Sethom : *Les régions géographiques de la Tunisie*, Op. cit. p 64

مركزا حضريا حديثا إرتبط تشكّله على إثر دخول الاستعمار إلى البلاد التونسيّة ونشأت بإسم فيريفيل Ferry Ville. بالإضافة إلى جملة السّواحل الجنوبية والتّي تتمثّل في مجموعة من البلدات والمدن الصغيرة كرأس الجبل والعالية والماتلين وغـار الملح وعوسجـة ورفراف ومنزل جميل ومنزل عبد الرحمان .

تمثّل مدينة بنزرت عاصمة الجهة بإعتبارها المركز الإداري والاقتصادي وقد خوّلها موقعها الاستراتيجي من أن تكون في علاقة مباشرة بجملة المناطق الأخرى.

كما تترأس إلى جانب منزل بورقيبة جملة المناطق الحضريّة بالجهة. أوّلا لاحتوائهما على أكبر عدد من السكّان (بنزرت قرابة 65.856 ساكن ومنزل بورقيبة قرابة 42.111 ساكن)[24] بالإضافة إلى تنوّع الأنشطة الاقتصادية بهما من صناعة وتجارة وصيد بحري. كما تمّ إحداث مشاريع صناعيّة ضخمة بين المنطقتين في شكل مركّب صناعي وذلك منذ 1960 وقد شمل صناعات مختلفة ومتعدّدة[25].

وأمّا مناطق سـاحل بنـزرت ، فهي عبـارة عن قرى ضخمة تتّخذ طابعا قرويّا بالأسـاس. ورغم أنّها ليست كلّها ساحليّة إلا انّها تتشابه الى حدّ كبير، في نوعيّة الانشطة الاقتصادية ونمط العيش السّائد. وللفلاحة مكانة متميّزة داخل هذه التجمّعات القرويّة وذلك وفق المعطيات الطبيعيّة الملائمة التّي وقع استغلالها من قبل فلاّحين أغلبهم من أصل أندلسي. حيث قاموا بتطوير أساليب الزراعة وإقامة مبادلات تجاريّة مع الأسواق الحضريّة القريبة كبنـزرت وتونس [26]. وإرتكز نشاطهم الفلاحي على الغراسات والزّراعات السقويّة كما لم يكن لزراعة الحبوب أهميّة بارزة نظرا لغياب المساحات الكبرى والممتدّة.

كما حُضِيت هذه المناطق بجملة من الأنشطة الاقتصاديّة الأخرى المتمثّلة أساسا في الصّيد البحري والصناعة وبعض الحرف اليدويّة. فقد كان للبحر دورا هامّا في إنتاج الأسماك وذلك عن طريق إنشاء موانئ الصّيد، كميناء غار الملح وميناء رأس زبيب. أمّا الصناعة فهي تتركّز بطريقة متفاوتة، إذ تحضر بكثافة ببعض المناطق وتتراجع إن لم نقل تغيب تماما بمناطق أخرى. لنجد المنطقة الصناعيّة بمنزل الجميل ومصانع النسيج برأس الجبل والعالية. وعموما فإنّ المصانع تتركّز بالمدن الكبرى أو مراكز المعتمديات بالمعنى الاداري ويكون إستقطاب اليد العاملة من مختلف القرى والبلدات المجاورة...

ومن أهمّ الحرف وأشهرها بمناطق ساحل بنزرت، والتّي لا تزال تتّخذ مكانة متميزة إلى اليوم، هي حرفـة التطريز وخاصّة منها تطـريز لباس العروس التقليدي برفـراف وتطريز المفروشات بغار الملح.

[24]- Ahmed Kassab et Hafed Sethom : *Les régions géographiques de la Tunisie*, Op. cit. p 64.
[25]- Ibid, p73.
[26]-Bonniard F *: La Tunisie du nord le Tell septentrional*, étude de géographie régionale, P. Geuthner, paris 1934 p 392.

تُعتبر غالبيّة سكّان هذه المناطق، فئة مثقّفة إلتحقت بالمدارس وزاولت تعليمها وهو ما جعل نسبة من الشباب تتخلّى عن الفلاحة لتتّجه نحو الهجرة. سواء الدّاخلية (نحو المدن الكبرى كبنزرت وتونس) أو الخارجيّة (المدن الأوروبية بالخصوص) مثال رأس الجبل بلغت بها نسبة السكّان العاملين بالخارج 20% وذلك سنة 1972 [27].

أمّا المناطق التّي تصنّف ضمن النّمط الرّيفي، فهي تتركّز أساسا داخل الجهة لتنطلق غربا من ماطر وجملة السّهول المحاذية لها، وصولا إلى سجنان ومختلف المناطق التّي تُجاورها كجومين وبازينة ...

تمثّل الفلاحة بالمناطق الريفيّة أساس عيش السكّان وهي نشاطهم الاقتصادي بدرجة أولى. لتحضر بذلك الأراضي الفلاحيّة الممتدّة والغابات مقابل غياب التجمّعات السكنيّة. إذ غالبا ما يكون العيش بمساكن عائليّة مستقلّة ومتفرّقة أو هي مشتّتة هنا وهناك.

بالرّغم من أنّ منطقة ماطر تمثّل تجمّعا سكنيّا هامّا ليفوق عدد سكّانها 19645 ساكنا[28]، إلا أنّها تتّخذ طابعا ريفيّا عُرفت به منذ القديم في علاقة بوفرة إنتاجها الفلاحي وخاصّة الحبوب. كما اتخذت خاصيّتها الريفيّة من خلال سوقها المرتبط بالمنتوج الفلاحيّ لأهالي الأرياف المجاورة.

وعلى حدّ وصف حامد العجابي « وبلدة ماطر تتربّع فوق ربوة لا يتجاوز إرتفاعها 58م. وتُشرف على سهول ممتدّة من جميع جهاتها. وتتقاسم الجزء الجنوبي تُشُقّة يحيط بها وادي جومين ما عدا في جزئها الغربي. إنّ موقعها إستراتيجي بأعتبارها تمثّل نقطة عبور من النّاحية الشماليّة الشرقيّة إلى الجهة الشماليّة الغربيّة للبلاد التونسيّة »[29] .

وتحدّها مدينة بنزرت من الجانب الشرقي تتوسّطهما مدينة منزل بورقيبة ومدينة طبربة من الجهة الجنوبيّة ومدينة باجة من الجهة الغربيّة.

أمّا منطقة سجنان فيحدّها من الشّمال البحر الأبيض المتوسّط ومن الغرب معتمديّة نفزة التّي تتبع ولاية باجة ومن الجنوب معتمدتي غزالة وجومين. أمّا من الشّرق فتحدّها معتمديتا ماطر وبنزرت الجنوبيّة [30].

رغم أنّ المنطقة الحضريّة بالمعنى الاداري لهذه الكلمة لا يتجاوز سكّانها نسبة 10 % من مجموع القاطنين بالمعتمدية، فانّ عمادة سجنان، وهي تشمل المنطقة البلديّة وتمثّل محور استقطاب للوافدين،

---

[27]- Ahmed Kassab et Hafed Sethom : *Les régions géographiques de la tunisie*, Op. cit. p 63
[28]- Ibid, p 64

[29]- حامد العجابي : **وطن ماطر نشأة مدينة ومدوّنة أعلام ومعالم 1856-1956** الطبعة الأولى 2002 ص 7.

[30]- المولدي لحمر: **انتقائية التفكك والنمو في الأرياف التونسية** (التحولات الحديثة في الصناعات اليدوية المنزلية بسجنان) دار سحر للنشر جانفي 2003، ص 30.

تجمع 20 % من السّكّان. وحوالي 50 % من سكّان هذه المنطقة يقطنون المناطق الغابيّة التّي تراقبها مصلحة الغابات وتحدّد داخلها طرق التصرّف في الفضاء وتشكّله وإستخدامه[31].

كما تمثّل البطالة وعدم وفرة مواطن الشّغل المشكل الرّئيسي ويرجع ذلك إلى قلّة وعدم تنوّع الأنشطة الاقتصادية. حيث يقتصر العمل عادة على الأنشطة الموسميّة كالجني (زيتون، فلين..) أو بالمناجم (كمنجم تمرة) أو بالغابات. وبذلك فإنّ المجتمع السّجناني هو مجتمع فلاحيّ بالأساس[32].

من أهمّ ما يميّز حرفيّا هاته المنطقة، هو صناعة الفخّار اليدوي. وهي حرفة تعود بجذورها إلى ماض سحيق تحديدا الى الفترة البربرية. أسهمت المرأة السجنانيّة في إستمراريّتها كموروث عريق.

وبين نمطين من العيش حضري وريفي، تحضر جهة بنزرت لتُلّم بجملة من الخصائص الطبيعيّة، التّي لها تأثيراتها في حياة السّكان. بما فيها تلك الممارسات الموروثة التّي من شأنها أن تستمرّ بإستمرار الإطار الجغرافيّ .

2. الإطار التاريخي:

أ- مختلف المراحل التاريخية :

تزخر جهة بنزرت بزاد تاريخيّ يرجع منطلقه إلى فترة ما قبل التّاريخ. فهناك العديد من الأماكن الأثريّة التّي تعود إلى أولى الحقب التّاريخيّة في حياة الإنسان. ولعلّ في الغرف المحفورة في الصّخور التّي وقع اكتشافها بمنطقة سجنان أكبر دليل على ذلك.

وإن غُيّبت أحيانا حقائق تّاريخيّة ثّابتة لأصول نشأة بعض المناطق كقرية الماتلين كما أشار الى ذلك هانزو Hannezo حيث « يجهل السّكّان الأصليّون جذور قريتهم ويعتقدون أنّ تأسيسها مرتبط بنشأة مدينة رأس الجبل يعني في القرن التاسع ميلادي »[33]. إلا أنّ ذلك لا ينفي حضور حضارات متعاقبة أسهمت بشكل أو بآخر في ترك بصمتها الحضاريّة هنا وهناك. وهو ما فسّر انتشار البقايا الأثريّة بمختلف مناطق الجهة تقريبا. وعلى حدّ قول سمير المثلوثي « نظرا لموقعها الممتاز تعاقبت على جهة بنزرت حضارات عديدة، جاء أغلبها في شكل غزوات من البحر مثل الفنيقيين والرومان والبيزنطيين والأتراك والأسبان وأخيرا الفرنسيّين».

---

[31]- المولدي لحمر: **انتقائيّة التفكك والنمو في الأرياف التونسيّة** (التحولات الحديثة في الصناعات اليدوية المنزلية بسجنان)، م .س، ص 34.

[32]- Ahmed Kassab et Hafed Sethom : *Les régions géographiques de la Tunisie*, Op. cit. p 49

[33]- Hannezo (Ct) : Revue tunisienne : Organe de l'institut de Carthage association tunisienne des lettres, sciences et arts, Tunis 1905 p 18.

تقودنا الحقائق التاريخيّة إلى الأهميّة الجغرافيّة الّتي حُضيت بها الجهة منذ القدم. وهو ما فسّر إرتباط نشأة العديد من مناطقها بحضور البحر في معظم الأحيان. فمدينة رأس الجبل مثلا كانت تمثّل أحد المراسي الصغرى المتواجدة بين مرسى قرطاجنة وطبرقة. ومدينة غار الملح الّتي أشاد بايسونال Peysonnel بمحيطها وميناءها الجيّد الّذي اعتبره أحسن موانئ البلاد يوجد فوق جبل يكون كاب زبيب[34]. تلك المنطقة الّتي تكشف شواطئها عن بقايا أثريّة ترجع للعهد الفنيقي. كما لا ننسى الموقع الأثري بأوتيك الذي يعود تاريخه إلى العهد الفنيقي أيضا ومن أقدم مستعمراتهم في الشمال الأفريقي.

وبإعتبار مدينة بنزرت هي مركز الجهة قديما وحديثا، ألمّت تقريبا بكامل الأحداث التّاريخيّة الّتي شهدتها هذه الرّقعة الجغرافيّة من البلاد التونسيّة. فإنّها ستكون بمثابة ملخّص لمختلف الحقب الّتي عرفتها.

يعود أصل هذه المدينة إلى زمن سحيق، وذلك بالرّجوع إلى جملة أحداثها التّاريخيّة الّتي دُوّنت من قبل العديد من المؤلّفين الاغريقيّين واللاتنيّين والعرب وحتّى المعاصرين، فوصفها قد شمل تقريبا كلّ الحقب. حيث لعبت دورا بارزا في الأحداث التاريخيّة القديمة منها والوسيطة والحديثة.

امتدّت الفترة الأولى في العصور القديمة وتزامنت في البداية مع مرحلة من الاستقرار في العهد البوني، ثمّ مرحلة ثانية من إعادة التشكّل في عهد الرومانيين والبيزنطيين. وبدأت الفترة الثانية مع دخول الاسلام، وإرتقاء الأسر الحاكمة العربيّة إلى السّلطة وتواصلت إلى حدود العهد التّركي وأبرز ما ميّزها هو مجيء الإسبان والاستيطان. أمّا الفترة الثالثة فيعود تاريخها إلى القرنين التاسع عشر والعشرين وهي الفترة الاستعماريّة الّتي تزامنت مع إنتصاب جالية أوروبية وافرة العدد.

ويعود أصل هيبو، إلى كونها محطّة صغيرة منتصبة ضمن سلسلة المراسي البونية المنتشرة جنوب البحر الابيض المتوسط الجنوبيّة. ترسي فيها السّفن وتتموّن قبل قيامها بالرّحلات الطويلة. ثمّ ارتقت تدريجيّا الى مرتبة مدينة بحريّة صغيرة [35].

من أبرز الأحداث التاريخيّة في الفترة القديمة أنّ بنزرت الفينيقيّة أو "هيبوأكرا" كانت مركزا تابعا لأوتيكا. وقد غزاها القائد الصقلي "أغاطوكل" سنة 310 ق.م في حملته على قرطاج[36]. فلمّا انتصرت روما هدمت "هيبو" وألحق ترابها بأوتيكا. وعند حلول "يوليوس قيصر" ببنزرت، ضمّها إلى

---

[34]- سنيا العامري: **العادات الغذائية وفنون الحفظ والطبخ بجهة بنزرت**، بحث لنيل شهادة الماجستير، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعيّة، ديسمبر 2003، ص 34.

[35]- **بنزرت تاريخ وذاكرة**، الشركة التونسية للنشر وتنمية فنون الرسم 2002، ص11.

[36]- نفس المصدر السابق، نفس الصفحة.

الإمبراطوريّة الرومانيّة وأطلق عليها إسم "هيبـوديـاريتـوس". ولمّا تدهور حكم الرّومان تمّ إحتلالها من قبل الوندال سنة 439 م[37]. ولم يدم مُلك الوندال طويلا بالبلاد إذ سرعان ما تمّ احتلالها من قبل النفوذ البيزنطي الذّي ما لبث أن تراجع بعد هزيمة مع الجيوش العربيّة.

وقد فتحـها للعرب القائد معاوية بن حديج الذّي كان مقاتلا في جيش عبد الملك بن مـروان سنة 661 م [38]. وسمّاها القائد حسّان بن النّعمان سنـة 698 م بإسمها الحالي بنزرت[39]. والتّي أصبحت منذ ذلك الحين مدينة عربيّة مسلمة. عرفت منذ دخولها الإسلام فترات من الازدهار وأخرى من التقهقر، سنأتي على ذكر أهمّها.

اهتمّ العرب بتحصين بنزرت لاعتبار أنّ موقعها كان حيويّا من الضّرورة الحفاظ عليه تحت إمرتهم حتّى يؤمنوا خطر غزو خارجي انطلاقا من قاعدتها. لذلك كانت تسمّى بقلاع بنزرت وهي حصون يأوي إليها أهل تلك النّاحية إذا خرج الرّوم غزاة إلى بلادهم، فهي معزم لهم وغوث وهي رباطات للصالحين بتعبير البكري...»[40] وهي على الأرجح لم تكن كبيرة من حيث المساحة وبوصف ليون الافريقي « بنسرت أو بنزرت كما نقول مدينة عتيقة بناها الأفارقة على ساحل البحر المتوسط على بعد نحو خمسة وثلاثين ميلا من تونس. وهي صغيرة يسكنها قوم فقراء ويدخل البحر قرب المدينة داخل الأراضي من حلق ضيّق قصير يتّسع جنوبا إلى أن يكون شبه بحيرة كبيرة تحيط بها مداشر عديدة لصيادي السمك والفلاّحين.»[41].

إثر غزوة الهلاليين وانحلال الحكم الصنهـاجي بالمهديّة أقام القائد الورد اللخمـي من ملوك الطوائف ببنزرت دولـة بني الورد التّي استمرّت حوالى قرن ونصف. واتّسمت تلك الفترة بانتشار الاستقرار والأمن، حيث غدت المدينـة بذلك في مأمن من غارات أهل البادية، وتمكّنت ـ بفضل حصونها المتينة ـ من صدّ الهجمات والغارات التّي كانت موجّهة إليها. غير أنّ هذا الحكم سرعان ما تمّ وضع حدٍ له بوصول الموحّدين للسلطة سنة 1169 م والذّين استولوا على الدويلات التونسيّة وأرضخوها لحكمهم[42].

37– **بنزرت تاريخ وذاكرة**، م.س، ص 15

38– نفس المصدر السابق، نفس الصفحة

39– نفس المصدر السابق، ص 16

40–سنيا العامري: **العادات الغذائية وفنون الحفظ والطبخ بجهة بنزرت**، م.س، ص 36.

41– الحسن بن محمد الوزان الفاسي المعروف بليون الإفريقي: **وصف إفريقيا** الجزء الأول دار الغرب الإسلامي طبعة ثانية 1983 ص 68.

42– **بنزرت تاريخ وذاكرة**، م.س، ص 19

لم يستمرّ الحكم الموحّدي كثيرا حتّى أصبحت إفريقية مقاطعة مستقلّة تحكمها الأسرة المالكة الحفصيّة. وتميّزت فترة حكم الحفصيّين باستتباب الاستقرار والأمن والازدهار، والذّي تدعّم أواخر القرن الخامس عشر بوصول الجاليات الأندلسيّة المسلمة. فالعامل البشري قد ساهم في إحياء الجهة وعلى حدّ عبارة بونيار Bonniard « بنزرت هي نموذج المدن التونسيّة التّي شهدت تحوّلا بفعل الإسبان»[43] حيث كان لقدومهم الأثر الأكبر في تكريس ثقافة دينيّة قائمة على الإصلاح في الأرض وتقديس العمل وحسن إتقانه.

وقد تتالت الهجرات التّي قام بها المسلمون الأندلسيون نحو البلاد التونسيّة، ولعلّ أهمّها تلك التّي تمّت بين سنتي 1609 و1610 وتعدُّ أهمّ هجرة من حيث العدد والنتائج، (كانت قد جاءت تطبيقاً لقرار الطرد الذي اتّخذه فيليب الثالث ضدّ كلّ موريسكيّ في 1609م)[44].

كانت بنزرت من أهمّ المدن التونسيّة التّي استقبلت المهاجرين المسلمين المضطهدين إلى جانب مدن الوطن القبليّ والمدن الساحليّة الأخرى. عمل الأندلسيون على إفادة ضواحي المدينة وما حولها من تجاربهم في الزّراعة، فغرسوا الأشجار وأنشؤوا الحدائق والبساتين وطوّروا العديد من المهن والصّنائع، مثل صناعة الخشب المنقوش، والحدادة، والنجارة[45]. كما كان لهم الأثر الكبير في إقامة المباني، وتشييد معالم العمران، والأشغال العامّة كإصلاح الطرق وإقامة الجسور وفتح القنوات القديمة[46].

ويُنسب إلى الأندلسيين إقامة مجموعة من الأحياء والأسواق داخل المدينة العتيقة، ومنها سوق النجارين والحدادين، كما يعود إليهم تأسيس حيّ كامل هو "حيّ الأندلس".

ولكنّ هذا الاستقرار لم يدم طويلا وسرعان ما شهد القرن السّادس عشر تنازعاً كبيراً بين الأتراك والإسبان خاصّة بعد تراجع سلطة الحفصيين، وتحوّلت في البداية إلى قاعدة إسبانيّة بقيادة الامبراطور شارل الخامس سنة 1535م، ما لبث أن هزمها الأتراك سنة 1574 للميلاد من قبل سنان باشا، واسترجعوا مدينة بنزرت ليتمّ بذلك وضع حدّ للصّراع الإسباني التركي مع زوال الدولة الحفصيّة، لتُدمج بنزرت في الإمبراطوريّة العثمانيّة[47].

وقد شهدت بنزرت في العهد العثماني نهضة عمرانيّة واقتصاديّة مكّنتها من تبادل البضائع بين التونسيين والأوروبيين وخاصّة بعد حفر القنال وتهيئة الميناء العسكري والتجاري، الأمر الذّي جعلها

43- Bonniard F *: La Tunisie du nord le Tell septentrional*, Op. cit. p 478
44- Slimane-Mostafa Zbiss, Abdel-Hakim Gafsi, Mohiedne Boughanim et Mikel Epalza : *Les morisques-andalous*, Institut national d'archeologie et d'art, Tunis 1983 p131.
45 - Ibid., p147
46 - Ibid., p 143

47- **بنزرت عبر التاريخ**، أعمال الندوة السنوية التاريخية لمدينة بنزرت، م.س، ،ص21.

على كفاءة عالية من الدفاع والمراقبة. كما أصبحت بنزرت في الفترة العثمانيّة قاعدة من القواعد الحصينة لأسطول القرصنة بالبحر الأبيض المتوسط إذ شجّعت السّلطة المركزيّة القرصنة أو ما يُسمّى (الجهاد البحري)،[48] وانعكست الموارد الهامّة المتحصّل عليها من هذا النّشاط على الحياة الاقتصاديّة والاجتماعيّة والعمرانيّة.

كما أولى البايات خلال فترة حكمهم اهتماماً خاصّاً ببنزَرت، خصوصا في عهد عثمان ويوسف داي اللذين جهزّاها بعدّة انجازات لتعزيز نفوذهما فأمروا بتشييد المساجد والزوايا والأسبلة، لعلّ أبرزها الجامع الكبير وسبيل الجرينة، واصطدم هذا الرّخاء والاستقرار بضعف سلطة البايات أواخر القرن التّاسع عشر، مِمَّا أدّى إلى تقهقر القرصنة، وتراجع الأنشطة المرتبطة بها، فتدهورت أوضاع المدينة وانحدرت تدريجياً نحو الاستعمار.

كانت بنزرت أولى محطّات المستعمر الفرنسيّ إذ أنزلت البحريّة قواتها في ميناء المدينة في 1 مايو 1881 وذلك بموافقة الباي في إطار ما يسمّى نظام الحماية[49]. كما تمسّكت فرنسا بهاته المدينة حتّى بعدما إستقلّت البلاد التونسيّة في 20 مارس 1956، مِمَّا جعل الاستقلال منقوصاً. فقد حافظت القوّات الفرنسيّة على تواجدها في المنطقة لمدّة ثماني سنوات، مِمَّا أثار جدلاً قانونيّاً دوليّاً، مردّه اتّفاقيّة أمضاها الباي واعتبرت بموجبها بنزرت ومنشآتها العسكرية وتحصيناتها ومياهها الإقليميّة، أي بحيراتها وشواطئها وشبكة اتّصالاتها الإستراتيجيّة منطقة غير تابعة لتونس، الأمر الذّي خوّل للفرنسيين اعتبارها ولاية بحريّة فرنسيّة تشمل جملة المواقع والتّحصينات البحريّة والجويّة.

ليتمّ في النهاية جلاء القوات العسكريّة عن بنزرت، بعد معركة دامية أسفرت عن خسائر ماديّة وبشريّة فادحة، وأعلن يوم 15 أكتوبر 1963 عن خروج آخر القوات الفرنسيّة من المدينة[50].

ب- أهمّ العناصر البشريّة المستقرّة بالجهة:

انطلاقا ممّا سبق، تبيّن أنّ جهة بنزرت مرّت بحقب تاريخيّة متعدّدة ومتنوّعة، أضفت وممّا لا شكّ فيه إلى استقرار أجناس مختلفة منتشرة بكامل مناطقها. وإن كان ليس من السّهل علينا تحديد كلّ العناصر البشريّة المستقرّة بالجهة، فإنّنا سنحاول بسط فكرة عن أهمّها. «إنّ من الخصائص البشريّة الأساسيّة لجهة بنزرت تنوّع عناصرها. فظروفها الطبيعيّة والاقتصاديّة الملائمة، وإنفتاحها على البحر، وقربها من الحاضرة، جعلتها منطقة استقبال للهجرات الداخليّة والخارجيّة. وشملت الهجرات الداخليّة أفرادها

---

[48]- **بنزرت عبر التاريخ**، أعمال الندوة السنوية التاريخية لمدينة بنزرت، م.س، ص 22.

[49] - نفس المصدر السابق، ص27.

[50]- نفس المصدر السابق، ص34.

من قبائل أو جهات من وسط وجنوب البلاد. فنجد الهمامة بالعالية والوسلاتيّة وأولاد ماجر ببنزرت والجرابة برأس الجبل. في حين شملت الهجرات الخارجيّة عناصر من الجزائر ومن بعض الدّول الأوروبية المتوسطيّة.»[51].

فالمجتمع البنزرتي هو نسيج من الأجناس التّي إرتبط استقرارها بعوامل تاريخيّة واقتصاديّة واجتماعيّة. لتكون التّركيبة البشريّة، كمزيج من الثّقافات والسلوكيّات الجماعيّة. التّي قد يكون العامل الجغرافيّ السّبب الأكبر في استيطانها. فبالنظر للطبيعة الريفيّة لمنطقة ماطر نجد حضور لجملة من القبائل عُرفت بقبائل وطن ماطر وهي عرب البحيرة والجبالية. والمقصود هنا « بعرب البحيرة: كلمة العرب نسبة إلى عرش كان شيخ مشايخه يسمّى الشّيخ عبد الرّحمان العربي. والبحيرة تعني السّهول الممتدّة حول ماطر مثل سهل إشكل. والتّي تشتمل على أخصب أراضي المنطقة. من أهمّ سكّانها أولاد دخيل والعدواني والعرب إلى جانب عناصر أخرى من جهات متفرّقة من البلاد مثل الوطن القبلي والجنوب والشّمال الغربي. وخارجها خاصّة الجزائريين والطرابلسيّة الذّين وفدوا في موجات مختلفة من الهجرة. وأمّا الجباليّة فهم مجموعة القبائل التّي كانت خارجة عن البحيرة واستقرّت بالمرتفعات ومن أبرزها عروش بجاوة وهذيل ومقعد»[52].

أمّا إذا ما توجّهنا للبحث عن الأصول السّكانيّة للمجتمع السجناني، الذّي كثيرا ما عرف على انّه مجتمع يحمل في جوانبه الحياتيّة العديد من جذوره البربريّة كجملة الرّسوم والأشكال التّي اتّسمت بها صناعات الفخّار اليدويّة للحرفيّات السجنانيّات. فإنّ المولدي لحمر يسوقنا هنا إلى أنّ هناك حقيقتين انثروبولوجتين:« الأولى هي أنّه رغم أنّ بعض الجوانب الفنيّة في الصّناعات اليدويّة المنزليّة المحليّة يمكن أن تُردّ إلى تجربة ثقافيّة بربريّة قديمة. فإنّ هذا الأمر ليست له اليوم أيّة قيمة عمليّة من النّاحية الاثنية بسبب الانصهار الكبير الذي عرفه المجتمع السجناني داخل الثقافة العربيّة الإسلاميّة الجامعة بين التونسيين. الثانية هي أنّ سكان سجنان الحاليين، لا يدعون بشكل صريح، الانتماء إلى وحدات قبليّة تقليديّة محليّة متجانسة، انحدر منها أجدادهم خلافا لما هو الحال بالنّسبة لكثير من سكّان الوسط والجنوب.

فرغم أهميّة عنصري القرابة السلالية الضيّقة والجيرة اللّذين يستخدمان في تشكيل هويّات عائليّة محليّة متميّزة تأخذ شكل الدوّار فإنّ نسيج السّكّان الاجتماعي يمثّل خليطا معقّدا من الوافدين من كلّ مكان (من الجزائر إلى الجريد التونسي إلى وسط البلاد وشمالها)»[53] كلّ حسب الظروف الاقتصاديّة والاجتماعيّة.

---

[51]- **بنزرت عبر التاريخ**، أعمال الندوة السنوية التاريخية لمدينة بنزرت م.س، ص 41.

[52]- نفس المصدر السابق، ص 64-65.

[53]- المولدي لحمر: **انتقائية التفكك والنمو في الأرياف التونسيّة**، م.س، ص 34.

من الجدير بنا عند ذكرنا لأهمّ العناصر المستقرة بالجهة، الحديث عن العنصر الأندلسي الذي لا تزال بصمته قائمة في مختلف المجالات الحياتيّة للعديد من المدن والقرى. فقد تركّز تواجد الموريسكيين بالمنطقة المسمّاة بالسّاحل البنزرتي وذلك في المراكز التّالية: انطلاقا من مدينة بنزرت ومنزل جميل ومنزل عبد الرحمان والعالية وغار الملح والماتلين ورأس الجبل. ولقد كان تأثيرهم بالغ الأهميّة على جميع المستويات.

كانت إضافة الجالية الأندلسية واضحة وجليّة، وتفاعل معها المجتمع المحلّي بسرعة وتقبّل واضحين. حيث جلب هؤلاء معهم خلاصة تاريخ حضورهم في الأندلس من تقنيات زراعيّة وغراسات وعادات غذائيّة وأشكال معماريّة جديدة. فاستفاد العنصر المحليّ من حضور مئات البنّائين، الذّين استعملوا لأوّل مرّة الخزف والجليز والقرمود الأحمر والآجر الملآن، كما تميّزت منازلهم بالسّقيفة والصّحن الواسع حيث توجد عديد أشجار الزّينة والغراسات مثل الياسمين والفلّ والقرنفل والحنّاء والنسري[54].

إضافة إلى طرق الريّ وتقنيات المحافظة على المياه. كما جلبوا عديد الغراسات والمشاتل المحسّنة من البرتقال والتّوت والإجّاص واللّيمون والزّعفران وغيرها[55].

يمكن القول عموما، أنّ الاهمّية الجغرافيّة لجهة بنزرت خوّلتها من أن تكون منذ القدم منطقة استراتيجيّة في علاقة بوجود البحر من جهة وخصوصيّتها الطبيعيّة والفلاحيّة من جهة ثانية. كما أنّ في تنوّع عاداتها وتقاليدها التّي بتنا نشهدها اليوم، لا يمكن أن يُردّ إلاّ لموقعها الجغرافيّ الذّي كان مُنطلقا للثراء الحضاريّ والثقافيّ عبر الزّمن.

فمن البديهيّ، أنّ في حضور البحر تأثيرات خاصّة على الواجهة السّاحليّة والمقصود هنا مدينة بنزرت ومختلف المناطق الأخرى المجاورة ، كمنزل جميل والماتلين وغار الملح ورفراف ... وهي مناطق نلتمس من خلالها الحضور الأندلسيّ والتركيّ والأوروبيّ وغيرهم من الشّعوب التّي أسهمت بشكل كبير في الجانب التراثيّ بها. بينما بالمناطق الدّاخلية وإن هي عرفت بدورها تمازجا بشريّا وحضاريّا، إلاّ أنّها حافظت في أغلب الأحيان على طابعها الفلاحي وبيئتها الأصليّة كمنطقة سجنان التّي لا زالت تعيش وفق أنماط تحيلنا إلى أصولها البربريّة. لتتّضح لنا الصّورة في النّهاية عن تركيبة المجتمع البنزرتي الذّي لا يمكن وصفه سوى بازدواجيّة نمط العيش كنتاج لعامل جغرافيّ وآخر تاريخيّ.

---

[54]- Slimane-Mostafa Zbiss, Abdel-Hakim Gafsi, Mohiedne Boughanim et Mikel Epalza : *Les morisques-andalous*, Op.cit. p 150.
[55]- Ibid p 140.

الباب الثاني:

استعمالات الحنّاء

1. المعارف و التّقنيات المتّصلة بها:

تحضُر الحنّاء في المتخيّل الشّعبي التّونسي بوجه عام والبنزرتي بشكل خاص، من خلال جملة من الأقوال والأفعال، التّي تعكس تلك الأهميّة لهذه الممارسة التقليديّة. وكثيرا ما يُسهم الموروث الشّفوي من حكايا وأمثال وقصص في استمراريّة تقليد ما. وهو شأن الحنّاء، التّي لا يغيب لفظها هنا وهناك. ومن بين ما يتردّد في الأوساط النّسائية " الحنّة من تراب الجنّة " " الحنة حنينة " " صحّة الحنّة " " حنّة كحلة كالتوت" " حنة لعروسة " " حنة لعروس"..

أمّا من المعتقد بينهنّ، أنّ الحلم بحنّاء خضراء اللّون فذلك من الفال الحسن، أمّا إذا ظهرت بلون أسود فهي على عكس ذلك.

ومن بين ما جاء في الأمثال الشعبيّة:" شويّة من الحنّة وشويّة من رْطابت ليدين" و"الحنّة حرْشة والحنّانة عمْشة والعروسة طرْشة والعروس وكْواك."

وفي الألغاز التراثيّة :

«عَلىَ أَنْثى جِيْدَه وبان جُودها فتْحِت ونوْرِت من غِير عودها»[56].

و لعلّ تلك الأقوال وإن هي تعكس نوعا ما مكانة الحنّاء في التصوّر الشّعبي، ولكن من المؤكّد أنّ لها حضورا قويّا في الممارسة الفعليّة، باعتبارها من العادات التّي لا غنى عن اتّباعها.

أ- تجارة الحنّاء:

تُعتبر الحنّة من المواد المتوفّرة بكامل السّنة، كما لا تكاد تغيب عن أي دكّان أو فضاء تجاري. وهي في المتناول، سعرها لا يتجاوز 800 م للـ100 غ . ومن المتعارف عن نوعيّة الحنّاء الطبيعيّة، أن تُباع إما في شكل أوراق مجفّفة غير مرحيّة وهي ما تعرف 'بالحنّة الحرشة'. أو في شكل مسحوق، يكون قابلا للخلط ومن ثمّ الاستعمال وهي ما تسمّى 'بالحنّة الرّطبة'.

وتلقى الحنّاء المسحوقة رواجا أكثر في السّوق الاستهلاكيّة. كما لا يغيب الإقبال على الأوراق المجفّفة باعتبارها طبيعيّة مائة بالمائة، في نظر العديد من النّسوة، اللاّتي لا يبخلن بالقيام بطحنها بمفردهنّ في البيت بالاعتماد على 'المهراس' غالبا. ومن ثمّ غربلتها وتنقيتها من الشّوائب وتُستعمل خصوصا للشّعر.

---

[56]- Jean Quéméneur: *Enigmes Tunisiennes*, IBLA 2005 p 90.

و كثيرا ما تكون الأوراق المجفّفة إحدى مكوّنات قفة العروسة، ولكنّها ليست عنصرا أساسيا مقارنة بالحنّاء المسحوقة، التّي لا يمكن التّخلي عنها أو تجاهلها. وتختلف الكمّيات المشترات حسب المناسبة، وغالبا ما تتضاعف في مناسبات الزّواج لتزيّن العروس وحاضراتها ويلقى العريس هو الآخر نصيبا وأصدقاءه.

تُستمد نوعيّة الحنّاء أو تسمّى بحسب موطن إنتاجها، كأن نقول حنّة قابسيّة، حنّة مصريّة، حنّة سودانيّة ... كما يمكن معرفة جودتها بواسطة اللّون والرّائحة. فالحنّاء الطبيعيّة تكون ذات رائحة عطرة قويّة، ولونها أخضر عشبي نضر، ليس بباهت أو داكن زيادة عن اللّزوم « وتكون الحنّاء في شكل أوراق أكثر فاعليّة، فبعد تحضيرها في البيت تعطي اللّون الأحمر الأكثر جمالا. بينما الحنّاء التّجارية المسحوقة تكون مغشوشة. إذ تضاف لها أوراق لنبتات أخرى كنبتة الدّفلة بنسبة تصل إلى 35 و40 بالمائة »[57].

وحسب ما جاء في قول فندرهيدن Vonderheyden، فإنّه يمكن أن تُغش لغرضين إثنين إمّا للزيادة في الكميّة أو لتحسين لونها عندما تكون قديمة، وذلك إمّا بإضافة الرّمل النّاعم عند الطّحن، أو بعض الأعشاب كنبتة الدّفلة، أو مزجها بطلاء أو صبغة خضراء اللّون. وفي كلتا الحالتين فإنّ النّتيجة بعد التحّنية تكشف نوعا ما جودة الحنّاء المُشترات.



صورة رقم 1: أوراق حنّاء مجفّفة



صورة رقم 2: مسحوق الحنّاء

[57] - Vonderheyden M. *Le henné chez les musulmans de l'Afrique du Nord.* Journal de la Société des Africanistes. 1934, tome 4 n°1. pp. 35-61.p 40.

ارتبطت زراعة هذا النّبات في أغلب الأحيان بالمناطق المُستعملة لها، لنجدها عادة بايران والهند والسّعودية وخصوصا مصر التّي تمثّل المورّد الأكبر لبلدان شمال إفريقيا. كما أنّ جزءا من الحنّاء المستهلكة بهذه البلدان يتأتى من واحات الصّحراء الشّمالية كقابس ونفزاوة والجريد وبسكرة...[58]

ولكنّ هذه الواحات بما فيها واحات قابس، لا تُنتج سوى القليل الذّي يُخصّص في الغالب للاستهلاك المحليّ مع نسبة ضئيلة للتصدير[59] . وهو ما يفسّر أنّ الحنّاء المستهلكة بالسّوق التونسيّة، لا تقتصر على الإنتاج المحليّ وإنّما يستوجب استيرادها من بلدان أخرى« يستهلك سكّان الجزائر وتونس الحنّاء المستوردة من مصر، وذلك إمّا عن طريق مرسيليا أو طرابلس. كما تُقدّر الكميّة المستوردة سنويّا من 5 إلى 6000 قنطار وهاته النّسبة تفوق كثيرا الكميّة المنتجة محليّا»[60] .

ورغم ذلك فإنْ قلنا الحنّاء بالبلاد التونسية من حيث انتاجها، سنتوجّه حتما إلى منطقة قابس بدرجة أولى. فـ " الحنّه القابسية " مشهورة لدى التونسيّين من حيث وفرتها بالسّوق الاستهلاكيّة من ناحية، وجودتها من ناحية أخرى.

ولعلّ ارتباط هذا النّبات بجهة قابس كموطن رئيسي للانتاج مردّه عاملان إثنان: أوّلهما طبيعي وآخر تاريخيّ. وأمّا العامل الطّبيعي فيتمثّل في وفرة الظروف الملائمة التّي ساعدت على نموّ الشُجيرة الحنّائية، وذلك لامتداد الواحات التّي تحتوي على تربة رمليّة طينيّة إلى جانب حرارة الطقس، فزراعتها تتطلّب فترة طويلة من الحرارة مع سقو مُستمر [61].

وأماّ العامل التاريخيّ فيتمثّل في كون زراعة الحنّاء بواحات قابس تعود لفترة قديمة. ويتجلّى ذلك من خلال أقوال الرحّالة الّذين زاروا هذه المنطقة منذ قرون بعيدة « ففي نزهة الأنظار، يقول الورثلاني الذي زار قابس في القرن الثاني عشر: فيها مياه كثيرة وبساتين من نخل ورمّان وعنب وتين وفواكه جمّة... كثيرة المزارع، كثيرة الحنّاء، بحيث لا تساويها في ذلك بلدة»[62]. ممّا جعل إنتاجها بهذه المنطقة يتّخذ بعدا حضاريّا وراثيّا.

وتعتبر دكاكين العطّارين ما يعرفون ببيع مقتنيات التّجميل التقليديّة، من عطور وبخور وإلى غير ذلك من المنتجات، المصدر الرّئيسي لاقتناء الحنّاء، إلاّ أنها لا تغيب عن الأسواق اليوميّة منها أو

---

[58]- Vonderheyden M. *Le henné chez les musulmans de l'Afrique du Nord*. Op. cit. p 37
[59] - Ibid p 38.
[60] - Ibid p39.
[61] - M. Gast, « ***Henné*** », *Encyclopédie berbère, 22 | Hadrumetum – Hidjaba*, Aix-en-Provence, Edisud, 2000, (p 3437-3440) p3438
[62]- بلقاسم بن محمد بن جراد، **قابس عبر التاريخ** ، مطبعة الخدمات السريعة قابس 2001. ص27

الأسبوعيّة كذلك الصيدليّات وحتّى المحلاّت التّجاريّة الكبرى. وإن اختلفت طريقة البيع بين هذا وذاك فإنّه من السّهل الحصول على مادّة الحنّاء.

كذلك هو الشّأن بالنّسبة لجهة بنزرت. ولعلّ الطّريف في الأمر، أنّنا نجدها حتّى بالدّكاكين المخصّصة لبيع المواد الغذائيّة. كما يؤكّد لنا ذلك العمّ علي* وهو صاحب دكّان مواد غذائيّة بقرية رأس زبيب بقوله: «أحرص دائما على أن تكون الحنّاء متوفّرة بدكاني، فهناك العديد من النّسوة اللاّتي يقبلن على شرائها في أوقات مختلفة من السّنة، ناهيك عن المناسبات الاحتفاليّة كالاعياد مثلا».

وتقول السيدة فطيم** من مدينة بنزرت «أعمل كحنّانة وفي نفس الوقت أقوم باقتناء وبيع الحنّاء ومستلزماتها لنساء الحيّ أو الأحياء المجاورة. سواء كمسحوق طبيعي أو كخلطة أقوم أنا بتحضيرها حسب الطّلب.»

كما يوضّح لنا السيّد كمال*** وهو صاحب دكّان لبيع مختلف العطورات التقليدية بمدينة رأس الجبل عن مصدر الحنّاء في الأسواق المحليّة بقوله: «لا يتمّ زراعة نبتة الحنّاء بجهة بنزرت، ومن المتعارف عنها في البلاد التونسيّة أنّ موطنها الرئيسي جهة قابس. فالحنّاء القابسيّة تحتّل طليعة الأنواع المتوفّرة بالأسواق المحليّة، وهي المحبّذة لزبوناتي حيث يكون السّؤال دوما عن مصدرها أهو قابسي أم لا. ويقال أنّها ذات جودة وفعّالة في إعطاء اللّون المرجوّ. ومن الأقوال عن حنّة قابس ' الحنّهْ حنّهْ قَابْسيَّه والزِّينة مِقْدِيّه ' بمعنى بما أنّ الحنّاء المُستعملة هي حنّة قابس فالنّتيجة ستكون مرْضيّة.

ويضيف: هناك أنواع أخرى تُجلب من الخارج كالحنّاء المغربيّة والمصريّة وغيرها. وأقوم عادة باقتنائها من أسواق العطّارين بتونس العاصمة. ويتضاعف الإقبال على هذا المنتوج في الصّيف نظرا لتزامن هذا الفصل مع مواسم الأفراح المختلفة كالأعراس وحفلات الختان .»

ومن الملاحظ أنّه في كلّ الأحوال لا يصعب الحصول على الحنّاء. حيث لا تكاد تخلو منطقة من مناطق الجهة، بمدنها وقراها من وفرة هذه المادّة الصبغيّة. فبالرّغم من عدم زراعتها إلاّ أنّها لا تقلّ من حيث استعمالها عن المناطق المُنتجة لها.

من المعتقدات بجهة بنزرت، أنّ في تخبئة الحنّاء بالبيت قد تحمل فالا غير حسن داخل العائلة. الشّيء الذّي يجعل من شرائها في أغلب الأحيان مرتبطا باستعمالها لوقت ليس ببعيد كما تؤكّد ذلك

---

* السيد علي بن أحمد 56 سنة، صاحب دكان مواد غذائية، من منطقة رأس الزبيب.

** السيدة فطيم الطيّاشي 47 سنة، تعمل حنّانة، من مدينة بنزرت.

*** السيد كمال قارة 41 سنة، صاحب دكان لبيع العطورات التقليدية، من مدينة رأس الجبل.

الحاجّة منوبية* بقولها:« إذا كنت أستحق كميّة قليلة لغرض بسيط أو مستعجل فأقوم بشرائها من دكّان القريةِ وإن كان إستعمالها مقرّرا من قبل، كالاحتفال بمناسبة عائليّة أو دينيّة، فإنّي أقتنيها إمّا من السّوق الأسبوعيّة أو من أحد دكاكين العطّارين بالمدينة. وفي كلّ الحالات، لا أقتني الحنّاء إلا إذا كنت بصدد وضعها في الأيّام القليلة القادمة." ما نِشري الحنّه كان وقت إلّي باش نْحنّي ما تِتْخباش في الدّار مُوشْ باهي، حتّى إلي يِبْقى بعد ما نْحني نِتْخلّص مِنّو".

إذ تحرص النّساء المُقتنِيات للحنّاء، على أن تكون الكميّة المُشتراة لا تتجاوز الحاجة. وكلّما كان التّفكير بوضعها كلّما كان الاقتناء من جديد. فالكميّة المتبقّية دون إستعمال، تكون مصدرا لجلب النّحس والضّرر داخل العائلة. علاوة على أنّها تتأثر بعاملي الزّمان والمكان، فسرعان ما تفقد جودتها، كلّما طالت فترة تخبئتها خصوصا إذا كان المكان شديد الرّطوبة أو أنّها تركت عرضة للهواء.

قد يستوجب وضع الحنّاء، مقتنيات أخرى إلى جانب المسحوق وذلك على حسب نوعيّة الاستعمال ولكن وبصفة عامّة ليست هناك متطلّبات ضروريّة أو مكلفة. إذ تحرص المرأة عادة على أن تكون مستلزمات التّحنية متوفّرة لديها من قبل (كالأكياس الصغيرة التّي توضع داخلها الأيادي والأقدام بعد التّحنية) أو هي من الأشياء الموجودة بالبيت (المواد المضافة إلى المسحوق كالشاي والفليو..). وهو ما تؤكّده لنا السيّدة مريم** بقولها " إستعمال الحنّاء أمر سهل لا يستوجب الكثير من المستلزمات، وفي أغلب الأحيان أكتفي باقتناء المسحوق لا غير. نظرا لوفرة كلّ ما يخصّ وضعها بالبيت، كالشّاي للخلط وأكياس صغيرة من القماش أو حتّى بعضا من الملابس التّي لم تعد صالحة للاستعمال، للف اليدين والقدمين بعد التّحنية.».

ولكن قد تختلف المقتنيات أو المواد المرافقة للحنّاء باختلاف مجال الاستعمال، ليتجاوز الأمر حدود المسحوق، ويكون الحديث عن مشتريات أخرى تقتضيها المناسبة خصوصا الاحتفاليّة منها كالزّواج أو الختان وسنتطرّق إلى الحديث عنها في مرحلة قادمة.كما يمكن أن يكون حرص المرأة في وفرة كل ما يلزمها للتّحنية ضربا من الماضي بعد أن أصبح من الصّعب اليوم، الحصول على حنّاء طبيعيّة مائة بالمائة إلاّ إذا تمّ إقتناءها في شكل أوراق وسحقها فرديّا بالمنزل. و لكنّ ذلك لم يعد من شغف المرأة العصريّةّ، التّي تحبّذ السّرعة والسّهولة في الاستعمال. ولم تعد تكترث لابتكار مواد تضيفها حسب مهارتها، ليكون اللّون موفّقا. فالأسواق التجاريّة المحليّة منها والعالميّة لم تبخل هي الأخرى عن تقديم الإضافة والتّجديد بمنح كلّ ما هو جاهز دون عناء. فهناك أنواع عديدة من الحنّاء التّي يتداول بيعها في

* منوبية نويرة 62 سنة،ربة بيت، من قرية صونين

** مريم الماطري 61 سنة،ربة بيت، من منطقة ماطر

الأسواق المحليّة معظمها دخيلة عن استعمالاتنا التقليديّة وكلّها متأتية من بلدان أخرى كدول الخليج والهند والصّين. وأغلبها إن لم نقل جلّها تتّخذ طابعا تجاريّا بحتا، يغيب فيها الجانب الصحّي الذّي عهدناه عن الحنّة الطبيعيّة. بل قد تنعكس الصّورة إلى الضدّ في أحيان كثيرة، لتصبح مادّة مضرّة بالجلد ويتسبّب وضعها في نتائج وخيمة.

فلحنّاء اليوم موادها المصنّعة التّي تجعل من لونها مرضيّا منذ الوهلة الأولى. كاقتناء ما يعرف بـ'دواء الحنّه ' وهو عبارة عن سائل شبيه بالماء شكلا ولونا غير أنّ له رائحة قويّة، يخلط مع المسحوق ويسهم بشكل كبير في تثبيت اللّون على الجلد.

وقد يتجاوز الأمر ذلك بكثير، خصوصا في السّنوات القليلة الماضية. لتباع الحنّاء في شكل خلطات جاهزة مباشرة للاستعمال، بطرق متنوّعة لا يمكن عدّها أو حصرها. كـ'حنّة ساعة ' أي يمكن إزالتها بعد ساعة من وضعها على الجلد. لتعطي في أغلب الأحيان، اللّون المرجوّ الذّي يدوم عدّة أيّام. و'الحنّه الوقتيّة' أو هي شبه حنّاء بالأصحّ لا تتجاوز اليوم الواحد، كما يكفي غسلها بالماء لتختفي تماما.

وتلقى هاته الأنواع إقبالا خصوصا من قبل الفتيات. وذلك لأسباب مختلفة من ذلك ما أفادتنا به أماني* بقولها:« أنا أحب التزيّن بالحنّاء ولكنّني لا أتقن تحضيرها . وإقتناءها جاهزة أفضل حلّ بالنّسبة لي» وكذلك زينب** بقولها: «أنا أحب الحنّاء ولكنّي أكره طول مدّة بقاءها وكيفيّة تغيّر لونها لذلك أخيّر الحنّاء التّي لا تتجاوز اليوم الواحد بعد وضعها».

أمّا بالنّسبة للشعر، فقد غزت خلطات الحنّاء ذات الصّبغات الجاهزة المختلفة الألوان والأشكال معظم الأسواق المحليّة، حيث يتوفّر اللّون البني بدرجاته الفاتح والقاتم والبني الطبيعي، ولون الشكولاتة، واللّون الأحمر الغامق واللّون الأسود. إلى جانب إقحام الحنّاء في العديد من المنتوجات الصناعيّة كالشمبوات والصابون وحتّى أحمر الشفاه.

ولم يعد استعمالها يقتصر على الشّعوب التّي مارستها منذ القدم وإنّما أضحت تعرف على نطاق عالمي. فقد أخضعتها العديد من الدّول المصنّعة لتقنياتها الصناعيّة فجعلتها من حيث التّركيبة لا تمتّ بالحنّاء الطبيعيّة بصلة غيرالاسم. وابتكرت أدوات خاصّة كالأقماع والأقلام مع التّجديد المستمرّ لأساليب الزّينة.

---

* أماني شربيب 24 سنة طالبة من مدينة رأس الجبل.

** زينب الذيب 32 سنة موظفة من مدينة غار الملح.

كما يتزايد شيئا فشيئا انتشار أصباغ دخيلة عن الحنّاء والمقصود هنا أن تسمّى باسمها ولكنّها لا تمت لها بصلة لا من حيث المواد ولا الرّائحة. بل هي عبارة على ألوان كيميائيّة الصّنع يتمّ استعمالها للرّسم على الجسد. من ذلك ما يعرف بالحنّاء الكاذبة أو الحنّاء السوداء «والتّي ما هي إلا صبغة سوداء للشّعر ومكوّنة من مادّة ' البارا- فينيلين- ديامين 'Paraphénylènediamine وهي مادّة كيميائيّة عضوية سامّة، واستعمالها ممنوع عالمياً على الجلد. حتّى لا يسمح استعمالها على الشّعر إلا بنسبة محدودة جدّا» [63]. فالحنّاء الطبيعيّة باتت ضرباً من الماضي وأصبحنا اليوم بين مرادفين اثنين، أمّا الأولى فهي حنّة طبيعيّة كثيرا ما تحرص الجدّات والأمهات على إتّباعها للمداواة، وثانية مصنّعة لا يفضي استعمالها سوى لجملة من الأمراض الجلديّة وكأنّنا انتقلنا هنا من الايجاب إلى السّلب. الشّيء الذّي يقودنا دوما لاعادة البحث عن تلك الطرق التقليديّة لاستعمال الحنّاء.

ب-طريقة التحضير:

تختلف طريقة تحضير عجينة الحنّاء باختلاف نوعيّة الاستعمال سواء للزينة أو المداواة. ولكنّنا سنتطرّق في هذا الجزء إلى بسط فكرة عامّة عن العجينة المخصّصة لتحنية الكفين والقدمين وصبغ الشّعر.

من المُتعارف عن تحضير الحنّة العادية، أن يضاف الماء إمّا باردا أو دافئا للمسحوق، ويتمّ ذلك تدريجيّا مع الخلط حتّى الحصول على عجينة ليّنة ومتماسكة. ولكن بما أنّ الشّاغل الأهمّ في عمليّة التّحنية هو اللّون، فقد تتفنّن المرأة في إضافة مكوّنات أخرى حسب خبرتها وحذقها في ذلك.

تستهلّ جدّتي* في الحديث عن كيفيّة تحضير عجينة الحنّاء بقولها: « نأخذ المسحوق ونحدّد الكمّية التّي نستحقّها لتحنية الكفين والقدمين (قرابة 150غ) ونضعها في إناء. ونضيف تدريجيّا إمّا الشّاي الأحمر المغلي والسّكر أو ' زيت لڤلّيو' (النّعناع البرّي) مع قليل من الماء، ومن الأفضل أن تُخلط باليد لتمتزج المكوّنات جيّدا. كما لا ننسى أنّ جودة الحنّاء تُسهم بشكل كبير في تحقيق اللّون المرجوّ والذّي عادة ما يكون برتقاليّ غامق أو بنّي مُحمر. فهناك حنّة 'طَلاّعَه' أي تصبغ بشكل سريع في الجلد، وأخرى على عكس ذلك وهي ما تعرف بـ 'الحنّه الباردة'، والمقصود بذلك أنّها قديمة ولم تعد صالحة للاستعمال أوهي مخلوطة بمواد أخرى ». وتضيف «أنا أفضّل دائما عجن الحنّاء بزيت الفليّو (النعناع

---

[63] حسان البيرومي، **ما هي أضرار الحناء السوداء**، مدوّنة الدكتور حسان البيرومي للتوعية الصحية، كتب بتاريخ 2012 /05/18 albeiroumi.com/ 2012/05...

* الحاجّة دوجة بلاّغة 82 سنة أصيلة قرية الماتلين

البري) لأنّه فعّال في إعطاء اللّون، وفي نفس الوقت دواء لعديد من الأمراض، خصوصا أنّه يخلّص البدن من آلام البرد».

وتحدّثنا الخالة مريم* بقولها: « أحضّر عجينة الحنّاء بإضافة الماء الدافئ، ومسحوق العود قرنفل، والقليل من الثّوم. وأخلط جيّدا باليد حتّى أتحصّل على عجينة متماسكة غليظة القوام. أتركها مدّة من الوقت لا تتجاوز السّاعة لترتاح وتمتزج المكوّنات مع بعضها البعض ثم أشرع في التّحنية».

تتنوّع المواد المُضافة في تحضير خلطة الحنّاء. فهناك من تقتصر على الماء العادي، وأخرى مع إضافة الشّاي والقليل من السّكر لتلتصق العجينة أكثر بالجلد وتُسهم في' تَطْليع الحنّة ' أو ماء \ازيت الفْلَيّو أو اللّيمون أو مادّة البنزين... كما يمكن أن تُعجن بماء زهر أو ورد لمنحها رائحة طيّبة إذا تعلّق الأمر بعروس. وقد تبلّل قطعة من القطن بقطرات من البنزين أو الخلّ، ويتمّ تمريرها فوق الحنّة بعد إتمام رسمها وقبل أن تُلف.

وفي كلّ الحالات، فإنّ المرأة بجهة بنزرت تتفنّن بحسب خبرتها في تحضير العجينة. وإن كانت الغاية واحدة وهي الحصول على اللّون الأحمر القاتم المائل للسّواد، فإنّ كلّ واحدة منهنّ تتحدّث عن خلطتها والمواد التّي تضيفها كأكثر فاعليّة وهو ما يعكس مدى أهميّة الحنّاء وحضورها في المخيال الشّعبي النّسائي بالجهة .

❖ **مرحلة أولى** : تحضير مستلزمات العجن



صورة رقم 3: مستلزمات عجن الحنّاء



صورة رقم 4: تحديد كميّة الحنّاء

---

* مريم الماطري 61 سنة من منطقة ماطر

❖ **مرحلة ثانية** : عمليّة العجن



صورة رقم 5: إضافة الشّاي للمسحوق



صورة رقم 6: عمليّة الخلط

❖ **مرحلة ثالثة**: الحصول على عجينة متماسكة



صورة رقم 7 : تجانس المكوّنات



صورة رقم 8: عجينة الحناء

ج- عمليّة التّحنية:

بعد الحصول على العجينة وتركها ترتاح مدّة من الزمن، تتراوح من ساعة إلى ساعتين تقريبا لتمتزج المكوّنات جيّدا وتعطي اللّون المرغوب فيما بعد، أو أن يُتحنّى بها مباشرة بعد خلطها إذ يتوقف هذا الأمر على واضعتها، تكون مرحلة التّحنية. وإن هي تختلف بحسب نوعيّة الرّسوم المُراد فعلها، والتّي سنتطرّق لبسطها بدقّة في مرحلة قادمة، فإنّ العمليّة تتمّ عادة عبر مراحل.

أوّلها، تنظيف الجلد بغسل اليدين والرّجلين وتجفيفها جيّدا. ثم يبْدأ وضع الحنّاء، إمّا فرديّا أو بالاعتماد على طرف ثان، وذلك بعد البسملة والقول " نْشاَلله نْحَنيوْا للفرِحْ دِيمَه". مع الحرص على البدء

باليد اليمنى فاليسرى ثمّ القدم اليمنى فاليسرى أيضا. وفي ذلك مرجعيّة دينيّة إسلاميّة مفادها تفضيل اليمين عن الشّمال. كقوله تعالى {فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا وَيَنْقَلِبُ إِلَى أَهْلِهِ مَسْرُورًا وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ فَسَوْفَ يَدْعُو ثُبُورًا وَيَصْلَى سَعِيرًا إِنَّهُ كَانَ فِي أَهْلِهِ مَسْرُورًا}[64].

وبعد الإنتهاء مباشرة، يتمّ لفّها جيّدا لكي لا تجفّ وتحافظ على طراوتها، حتّى تلتصق فترة أطول بالجلد لتصبغ به أكثر. وهناك من يقتصر في لفّها على القماش وربطها، وهناك من يلفّها بالقطن أوّلا ثمّ يضع الأكياس أو القفّازات من القماش. كما هناك أيضا من يلفّها أوّلا بالقطن، ثمّ يضعها في أكياس من البلاستيك، وبعدها أكياس القماش. وحسب ما هو متعارف، فإنّ الحنّاء تتطلّب الحرارة لتصبغ بالجلد وتعطي اللّون الدّاكن. هذا ما تؤكّده لنا الحنّانة فطيم * بقولها ' قَدْ ما تِتْلَفْ، قَدْ ما تَعْطي لُونْ أغْمِقْ. لُحنّه تْحِبْ السْخانهْ باشْ الزّينَهْ ما تِفْسدش وتِطلع مْلِيحْ'.

بعد الانتظار مدّة زمنيّة لا تقلّ في الغالب عن أربع أو خمس ساعات، وهناك من تفضّل وضعها ليلا لتركها حتّى صباح اليوم التّالي. إذ كلّما زاد وقت ترك العجينة كلّما كان اللّون أغمق. تكون إزالة القشور كمرحلة أخيرة بعد الحصول على لون يصبغ الجلد، وقد يكون مرضيّا لواضعته، أو هو على عكس ذلك، الشّيء الذّي يستوجب إعادة الكرّة مرة ثانية أو ثالثة خصوصا عندما يتعلّق الأمر بـ'حنّة لَعْروسَه'.

ومن المحبّذ عدم غسلها بالماء مباشرة، حتّى يثبُت لونها والذّي يبقى على الجلد لعدّة أيّام ويمكن أن يصل لثلاث أسابيع أو أكثر. ليختفي تدريجيّا فيما بعد، بدءا من الكف فالأصابع فالأظافر والتّي تمكث بها الصّبغة فترة طويلة تمتدّ لأشهر. كما كانت تحرص والدتي على دهن الحنّاء بعد إزالة القشور بقليل من زيت الزّيتون 'نْحَطْ الزيتْ باشْ تْعَتّقْ' بمعنى أن تصبح أكثر نضارة.

---

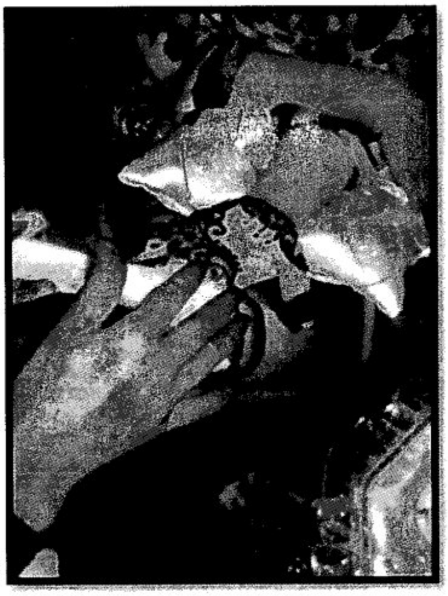
[64]– **القرآن الكريم**، سورة الانشقاق، الآية 13.

* السيدة فطيم الطيّاشي 47 سنة، تعمل حنانة، من مدينة بنزرت.



صورة رقم 9 : عمليّة إعادة التّحنية

مراحل لفّ الحنّة بعد إتمام التّحنية



صورة رقم 10: اللّف بالقطن



صورة رقم 11:

لفّ اليد بكيس بلاستيكي



صورة رقم 12 :

وضع اليد داخل كيس أو قفّاز من القماش

أمّا بالنّسبة للشّعر، فإنّ عجينة تحنية الرّأس تختلف عن عجينة تحنية الكفّين وباطن القدمين. تكون هذه الأخيرة متماسكة القوام لأجل تثبيتها بدقّة. بينما تستوجب حنّة الشّعر أن تكون أكثر مرونة أو شبه سائلة لتصل لكامل فروة الرّأس ولا تجفّ بسرعة، حتّى تُكسب الشّعر اللّون المرجوّ كما يسهل فيما بعد إزالتها.

وقد تكون لكلّ شخص طريقته في وضع الحنّاء، ولكن وبصفة عامّة تتّم العمليّة كما يلي حسب ما أفادتنا به الحاجة مَنُوبيّة*: «يقسّم الشّعر إلى نصفين وذلك بعد تسريحه جيّدا، ثمّ توضع الحنّاء من الجذور وصولا للأطراف. ومن المحبّذ اعتماد منشفة أو أي قطعة من القماش على الكتفين تفاديا لتلطيخ الملابس. وبعد الانتهاء يُلفّ الرأس جيّدا بقطعة من البلاستيك أوّلا، ثمّ من فوقها قطعة من القماش أو 'فولارة'. وبعد أن تُترك مدّة من الزمن، لا تقلّ عن أربع ساعات يتمّ غسل الشّعر جيّدا مع تمشيطه حتّى تزول آثار خليط الحنّاء».

أمّا بنات اليوم فهنّ مولعات بابتكار خلطات طبيعيّة للشّعرمستوحاة من ذاك النّبات الصّبغي كبديل عن الصّبغات الكيميائيّة. وفي ذلك عودة إلى مواد الزّينة التّقليديّة بعد اكتشاف أضرار مواد الزّينة الحديثة. وقد تتفنّن كل واحدة منهنّ في المواد التّي تضيفها ويكون ذلك حسب اللّون المرغوب فيه فللحصول على لون الشكلاطة مثلا تخلط الحنّاء مع القهوة أو ما تعرف بـ ' النّسكافيه' والقليل من الخلّ

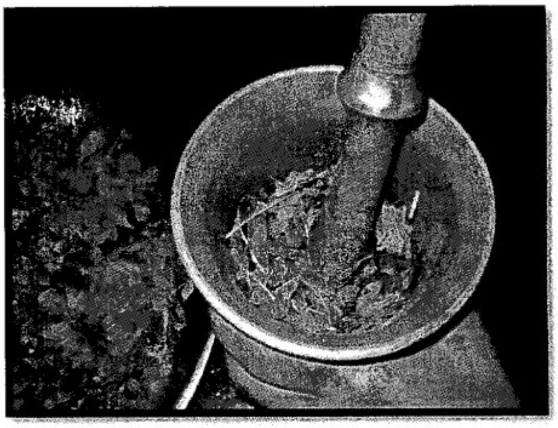
---

* الحاجة منوبية نويرة 62 سنة من قرية صونين

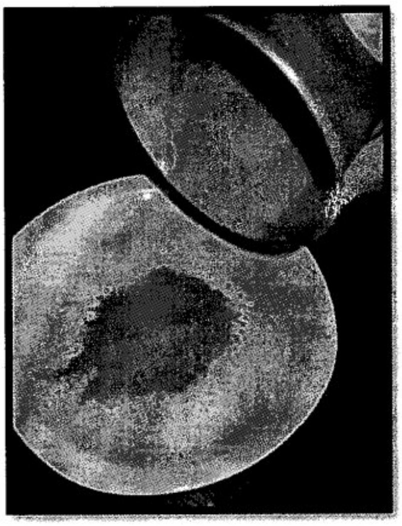
ولتفتيح الشّعر يضاف مُغلّى البابونج إلى المسحوق. وعموماً فإنّ الخلطات تتنوّع بحسب الغرض ومنها ما هو مستوحى من مواد طبيعيّة تقليديّة وأخرى مبتكرة حديثا.

وفي هذا الإطار تحدّثنا سوسن* بقولها: " للحصول على لون بنّي بنفسجي يستوجب أوّلا إقتناء الحنّة في شكل أوراق مجفّفة لأنّها تكون طبيعيّة خالية من الاضافات. ثمّ تسحق جيّدا بالاعتماد على المهراس وفي الأثناء يوضع فوق النّار إناء به ماء وبتراف (الشمندر) مقطع وقشور الرّمان المجفّف وأوراق شجر الزّيتون. تغلّى هذه المكوّنات إلى أن تنقص كميّة الماء إلى حوالي النّصف ثمّ يصفّى الخليط ونتحصّل في الأخير على السّائل الذّي سيمزج مع مسحوق الحنّاء. تتمّ عمليّة الخلط جيّدا وبعدها الشروع في التّحنية. وتترك على الشّعر من ساعتين إلى أربع ساعات وبعدها يغسل بالماء والقليل من الشامبو.

مختلف مراحل تحضير خلطة للشعر:



صورة رقم 13 : سحق أوراق الحنّاء

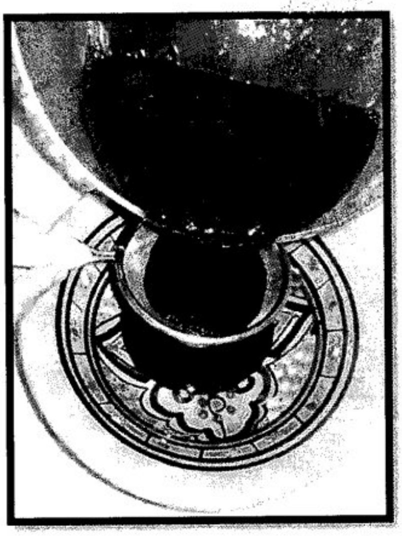


صورة رقم 14: الحصول على مسحوق حنّاء طبيعي

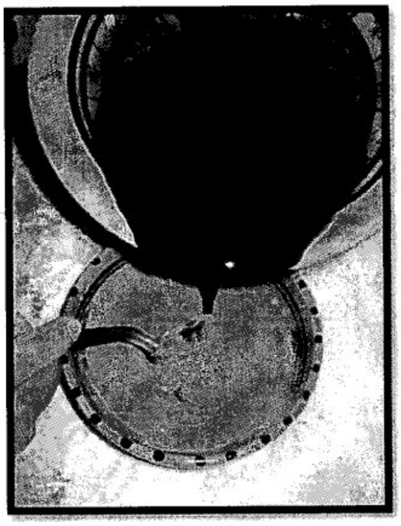
* سوسن الطريفي 27 سنة، طالبة، أصيلة الماتلين.



صورة رقم 15: المكوّنات المضافة



صورة رقم 16: عمليّة التّصفية



صورة رقم 17: إضافة السّائل للحنّاء



صورة رقم 18: عمليّة الخلط



صورة رقم 19: عمليّة تحنية الشعر



صورة رقم 20: ترك الخليط على الشّعر لفترة

لم تقتصر المرأة بجهة بنزرت في علاقتها بهذا النّبات الصبغيّ، على إضافة مواد مختلفة تجعل من 'حِنّتها ' موفّقة اللّون، وإنّما تجاوزت ذلك لتبتكر أو هي تحذق عن سابقاتها خلطات شبيهة إلى حدّ ما بالحنآء، والغاية من ذلك الحصول على لون جدّ مماثل لما تعطيه هذه النّبتة من صبغة على الجلد. فكانت ما تسمّى 'الحنّة الكَذّابَه' أو 'حِنّة الكِذِب' والتّي عرفت خصوصا في قرية الماتلين. إلى جانب 'حنّة القُرّيصة' وكما يدلّ عليها اسمها المتأتية من نبتة القُرّيصة.

وعن 'لحنّة الكذّابة' تحدّثنا الخالة حبيبة* بقولها: « كنّا في السّابق إذا لم تتوفّر لدينا الحنّاء، أو لم نتمكّن من إقتناءها نظرا للظروف الماديّة المضنية وشدّة الفقر، نقوم بمفردنا في البيت، بتحضير خلطة شبيهة بالحنّاء الطبيعيّة ونسمّيها ب'الحنّه الكذّابة'. لأنّها في حقيقة الأمر ليست بنبتة الحنّاء وإنّما تعطي تقريبا نفس اللّون البرتقاليّ المحمرّ ولكن بدرجة أقلّ. كما لا يمكن التّفريق بينهما بعد التّحنية، غير أنّ 'الحنّة الكذّابة' تعطي دائما اللّون البرتقالي الفاتح أو الباهت مقارنة بالحنّة الطبيعيّة. وهذه هي طريقة تحضيرها:

_ نقوم أوّلا بهرس الدّاد، ثمّ نضيف عود قرنفل وسكّر ونضعهم داخل علبة معدنيّة خاوية 'حكّة طماطم فارغة'، ونضع كأس شاي أو فنجان، (المهمّ أنّه كأس صغير الحجم) في الوسط أي أن يتوسّط المكوّنات المذكورة، وتوضع على نار هادئة ومن المستحسن أن يكون كانونا. وتُغلق فوهة العلبة

---

* حبيبة لفقير 61 سنة اصيلة قرية الماتلين

بصحفة مملوءة ماء، ليتحوّل تدريجيّا إلى بخار ومن ثمّ عرق، يملأ الكأس ويكون ممزوجا باحتراق المكوّنات، ونتحصّل بذلك على سائل بنيّ اللّون أو الحنّة الكذابة.

وتكون التحنية إمّا عن طريق السّبابة أو بالاعتماد على عود صغير أو ما يعرف 'بالسْمَار' ، يُغمس في السّائل الذّي كنّا تحصّلنا عليه، ويمرّر على الجلد، لتتّضح الأشكال شأنها شأن الحنّاء العاديّة. وبعد الانتهاء، نتركها تجفّ لمدّة تتراوح من ساعة إلى ساعتين لتصبغ بالجلد. ونتحصّل فيم بعد، على لون شبيه بالحنّاء الطبيعيّة وهو الأحمر البنيّ لكن بأقلّ درجة. ولا يدوم بقاؤها على الجلد سوى بضعة أيّام. وتستعمل إمّا لتحنية الكفّين وباطن القدمين، أو لمداواة بعض الأمراض الجلدية كتشقّق القدمين والحزاز الجلدي».

والطّريف في الأمر أنّه من خلال مسائلتي عن الحنّة الكذّابة بالماتلين، تبيّن أنّ نساء هاته القرية وبناتها على معرفة لهذا النّوع من الحنّاء، وإن كان أغلبهن يجهلن طريقة إعدادها إلاّ أنّهن لم ينفين وضعها لها كلّما سنحت الفرصة لذلك.

في المقابل تنفي الحنّانة فضّة* من سجنان، معرفتها هذا النّوع من الحنّاء أو شبيه الحنّاء بمعنى أصحّ بقولها « نحن نسمّي حنّة كذّابة تلك التّي لا تعطي اللّون المرغوب أي أن تكون مغشوشة أو قديمة».

وتحدّثنا الحاجة فرجانية** من منطقة 'القرية' (تابعة لقرية الماتلين) عن حنّة القُرّيصة فتقول: « هي 'حنّة الرّبيع ' نظرا لوفرة نبتة القرّيصة في هذا الفصل، إذ نقوم بتجميع زهورها الصّفراء، ونخلطها جيّدا - بعد سحقها - مع القليل من الجير أو الرّماد إلى أن نتحصّل على خليط متجانس وليّن. وهناك من يقوم بالتحنية مباشرة عن طريق السّبابة أو بالاعتماد على عود رقيق. لنتحصّل في النّهاية، بعد غسلها بالماء، على لون برتقاليّ باهت نوعا ما، ولكنّه شبيه بلون الحنّاء. ولا يمكث طويلا على الجلد، سوى يوم أو يومان لتكون الغاية من ذلك للزّينة فقط.

لم ينحصر مفهوم الحنّاء بالجهة، على النّبتة في حدّ ذاتها وإنّما مثّلت هي نفسها - تحديدا لونها- وسيلة استنباط لخلطات أخرى، ليكون مبدأ إستعمالها جدّ لصيق بما جاءت من أجله الحنّاء الطبيعيّة وهو البركة والفال الحسن.

---

* فضة معلاوي 42 سنة من سجنان تعمل حنانة

** الحاجة فرجانية بالرحومة 71 سنة القرية – الماتلين

2. المحامل التّي توضع عليها :

مثّل جسد الإنسان منطلق الفكر البشريّ في علاقته بالكون. وهو بما يحتويه من تحوّلات وحتميّات مثّل لغزا في حدّ ذاته، وأفرز تصوّرات ومعتقدات جاءت كلّها على شاكلة جملة من الممارسات. لتتطوّر عبر الزّمن ويصبح الحديث عن العادات التّي هي اختلفت باختلاف الجماعات.

ولعلّ الحنّة باعتبارها تنطوي ضمن هذه المنظومة التّي تنطلق من الجسد، فإنّ استعمالها كصبغة نباتيّة للجلد يرجع إلى عهد سحيق « ليست هناك حقيقة مؤكّدة من أين أو متى ظهر استعمال الحنّاء كصبغة لتزيين الجسد، ولكن هناك العديد من الأدلّة التّي ترجّح بأنّها ممارسة واغلة في القدم»[65]. ولعلّ من أبرزها حضورها في الحضارة الفرعونيّة حيث « تبيّن أن يدي وقدمي مومياء رمسيس الثاني كانت مخضّبة بالحنّاء »[66].

لكنّ هذا الإنسان المنتمي لبيئة كونيّة متكاملة لم يقتصر في استعمالاته على ذاته البشريّة وإنّما تجاوزها ليقحم محيطه أيضا من حيوان وجماد.

أ- الجسد:

قد تختلف المفاهيم حول الجسد، وذلك باختلاف النظريات والتصوّرات التّي سيق ضمنها. «يُفهم الجسد في الثنائيّة الكلاسيكيّة دينيّة كانت أو فلسفيّة إلاّ في جدليّته مع الرّوح، لقد كان يمثّل اللاّروح le non-esprit، فكان دوما الثاني في التراتبيّة الوجوديّة، السيئ في التراتبية الأخلاقيّة والنّسبي في التراتبية الجماليّة، يقول François Chirpaz في كتابه: الجسد le corps: " إنّ الثنائية الكلاسيكيّة، والعلوم الحديثة – البيولوجيا – تتحدّث عن تنظيم عضوي لا عن إنسان»[67].

و لكن وفي كلّ الحالات، وجب الاختصار على كونه هو ذاك الهيكل الذّي يعطي الصّورة الخارجيّة للإنسان، وهو ببساطة وجوده المادّي في علاقته بالأخرين وبالكون. وهو منطلق ممارساته ومجسّدا لعاداته وتقاليده، فهو ليس سوى تلك المرآة العاكسة لمعتقداته منذ الازل .

يُمثّل جسد الإنسان أو المرأة على وجه الخصوص الموضع الأوّل للحنّاء. إذ سرعان ما تتوارى لمخيّلتنا، عند ذكرنا لهاته النّبتة، كفوف وباطن أقدام النّسوة مغطّاة بصبغة ذات لون أحمر بنيّ جذّاب.

---

[65]- Collectif : *traditional henna designs* Op. cit. p 214

[66] - M. Gast, « ***Henné*** », *Encyclopédie berbère,* Op. cit. (p 3437-3440) p3437

[67]– الجيلالي المستاري: **الجسد والمقدس : قراءة في الخطاب الفقهي لابن قيّم الجوزية**، مجلة انسانيات 31، 2006، ص 95-96.

كما لا يخفى عنّا، صورة العجائز صاحبات الشّعر الذّي استُبدل بياض شيبه بلون برتقاليّ نحاسي. ولكنّ ذلك لا ينفي الاستعمال الرجاليّ أيضا والذّي يبقى محدودا مقارنة بالمرأة.

ولعلّ في انفرادها بتحنية اليدين والقدمين - في المجتمع العربي المسلم على وجه التحديد - مردّه الدّين، ففي جملة الأحاديث والأقوال التّي وردت عن الرّسول (ص) صرّح فيها على استعمال الحنّاء في شكل خضاب بالنسبة للمرأة بأن تكون في يديها ورجليها. « فأمّا خضاب المرأة كفّيها ورجليها، فقد ساقه الإسلام في سياق خضاب الشيب، الذّي حثّ على اتّخاذه حثّا كاد أن يبلغ به الوجوب. ونهى عن تركه نهيا أوشك أن يرسله في عداد المحرّمات. فقد ذكر عن الصدوق (ع) لا ينبغي للمرأة أن تعطّل نفسها ولو أن تعلّق في عنقها قلادة، ولا ينبغي لها أن تدع يدها من الخضاب ولو أن تمسحها بالحنّاء مسحا وإن كانت مسنّة.»[68].

بينما نهى عن ذلك للرّجال ما عدى إذا كانت لغرض المداواة وحثّ على تلوين اللّحية والشّعر« كما ورد قول أنس ابن مالك " رأيت شعر رسول الله مخضوبا. كما أنّ أمّ سلمة زوج الرّسول كانت تحتفظ ببعض شعر النبيّ مخضوبا بالحنّاء والكتم. كما كان لديها شعر من لحية النبيّ فيه أثر من الحنّاء والكتم لونه أحمر. فقد كانوا يغيّرون بياض شعورهم بألوان دكنة تغلب عليه الحُمرة. وقد كان الرّسول يغيّر لحيته بماء السّدر ويأمر بتغير الشّعر مخالفة للأعاجم»[69].

ومن الجسد توضع الحنّاء عادة على اليدين والقدمين والشّعر أو اللّحية بالنّسبة للرّجل. ولكن قد يختلف ذلك إن كانت لغرض آخر كالمداواة أو كطلب لزينة تختصّ بها جماعة عن غيرها، لتتجاوز الأطراف وتشمل مواضع أخرى من الجسد متّخذة بعدا طقوسيا احتفاليا. وهو ما كُنّ يقمن به نساء العرب المقيمين بالصحاري المجاورة لمملكتي تلمسان وتونس حسب وصف ليون الإفريقي عند زيارته لهاته المنطقة « ومن عادات هؤلاء النّساء أنّهن قبل الزّفاف إلى أزواجهنّ، يخضّبن بالحنّاء وجوههنّ وصدورهنّ وأذرعهنّ وأيديهنّ، إلى رؤوس الأصابع لأنّ ذلك مستحسن عندهن. وقد اتّخذ العرب المستعجمة هذه العادة عندما انتقلوا إلى سكنى هذه البلاد الإفريقية، ولم تكن معروفة لديهم من قبل»[70].

[68]– الخطيب العدناني: **الملابس والزينة في الاسلام**، م.س، ص 107.

[69]– محمد عادل الخزنابي: **العناية بالشعر واللحية لدى الرجل في صدر الإسلام**، مجلة الفنون والتقاليد الشعبية رقم 10، وزارة الشؤون الثقافية، 1990، ص 32.

[70] – الحسن بن محمد الوزان الفاسي المعروف بليون الإفريقي: **وصف إفريقيا**، م.س، ص 64.

وكانت المرأة العربيّة ، جدّ وفيّة لما جاء من دعوة دينيّة في الحثّ على الخضاب: « قال مثل ذلك أسماء بن خارجة لابنته حين هدائها إلى الحجاج، فاتّفقوا جميعا على توصيتهنّ بالزّينة، وأكدوا منها في الكحل، وكذلك أيضا حضّ النّساء على الخضاب، وكره النبيّ(ص) أن تكون يد المرأة كيد الرّجل. فروى الاوازغي عن معاوية بن سلمة أنّ رسول الله (ص) رأى امرأة لا تختضب فقال: « تدع إحداكنّ يدها حتّى كأنّها يد رجل». قال:« فمازالت تختضب وقد تجاوزت السّبعين حتّى ماتت.»[71].

وإن اقترن لفظ 'الخضاب' في النصوص والأحاديث الدينيّة بالعديد من المواد الصبغيّة كالورس والكتم والزعفران والحنّاء، إلاّ أنّ هاته الأخيرة كنبتة صبغيّة، كانت رفيقة المرأة العربيّة بامتياز. حيث لا تكاد تفارقها فهي تعتبرها جزءا لا يتجزّأ من زينتها. تتفنّن بوضعها على جسدها وتلوّن بها شعرها. كما تهتمّ بأدقّ التّفاصيل التّي من شأنها أن تمَت لهذه النّبتة المباركة بصلة. وعلى حدّ عبارة فندرهيدن «وفي كلّ الحالات فهي التّي من تقوم دائما بوضع الحنّاء حتّى وإن كان للرّجال[72]».

في المقابل، فإنّ العلاقة القائمة بين الثّنائي 'الرّجل والحنّاء' من حيث حجم الاستخدام وزمانه ومواضع استخدامه، سواء في الحياة اليوميّة أو المناسبات الخاصّة، لا ترقى إلى نفس المستوى لتلك العلاقة الوطيدة بين الحنّاء والنّساء. ومن الواضح أنّ الاستخدامات الذكوريّة تكاد تكون منعدمة - إلاّ إذا كانت للمداواة – ليقتصر حضورها غالبا على المناسبات الاجتماعيّة المتمثّلة في حفلات الزّواج.

وممّا عُرف عند رجال العرب، أنّهم كانوا يخضبون شُعورهم ولحاهم بالحنّاء فراراً من بياض الشّيب. « وفي الصّحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبيّ (صلى الله عليه وسلم) أنّ اليهود والنصارى لا يصبغون فخالفوهم {قال في الآداب الكبرى : ويُستحب بحنّاء وكتم لفعل النّبي صلى الله عليه وسلّم، رواه الإمام أحمد وابن ماجه وإسناده ثقات. ولفعل أبي بكر رضي الله عنه متّفق عليه ولا بأس بالورس والزعفران قاله القاضي، وجزم به في الإقناع وغيره. وفي التّلخيص والشّرح. وقدم بعض الأصحاب أن خضابه بغير السواد سنة وقال نص عليه، وهو ظاهر إطلاق الناظم رحمه الله لما روى أبو داود عن ابن عمر رضي الله عنهما أنّ رسول الله (صلى الله عليه وسلم) كان يلبس النّعال السبتية ويصفر لحيته بالورس والزّعفران، وكان ابن عمر رضي الله عنهما يفعل ذلك قال ابن مفلح : حديث حسن، ورواه النسائي»[73].

---

[71]– محمد بن أحمد التيجاني: **تحفة العروس ومتعة النفوس** تحقيق جليل العطية رياض الريس للكتب والنشر الطبعة الأولى 1992 ص132.

[72]- Vonderheyden M., *Le henné chez les musulmans de l'Afrique du Nord*. Op. cit. pp. 35-61.p 47

[73]– محمد بن أحمد بن سالم السفاريني: **غذاء الألباب في شرح منظومة الآداب** ، م.س، ص417.

والمرأة التونسيّة بشكل عام، والبنزرتية بشكل خاص، لم تكن بمنأى عن صورة المرأة العربيّة في العديد من الممارسات التقليديّة. كما هو الشّأن في استعمالها للحنّاء كأداة للزّينة واتّباعا لما جاء من أقوال الرّسول (ص) في الحثّ على ذلك.

'حنّة النّبي' 'نبتة سيدنا محمّد' 'من الجنّة'... تلك كانت مطلع الإجابات عند بدء الحديث عن الحنّاء من قبل نساء الجهة. وكما تشير الحاجّة شادلية *حول علاقتها بهذا النّبات لتستهلّ بقولها « ما خِيرشْ مِلْحنه، نْبَات لْجنه» معتبرة إيّاها من السُّنّة، ذات الفال الحسن وجلب البركة. علاوة على أنّها من مواد الزّينة التّي تُجمِّل جسد المرأة وتقوّي علاقتها بزوجها.

كما تحدّثنا الحاجة منوبية** بقولها «أستعمل الحنّاء في كلّ وقت وحين، إلاّ اذا حُرّم عليّ ذلك كموت أحد الأقرباء. أقوم بتحنية شعري باستمرار ما يعادل مرّة كل شهرين أو ثلاث، وخصوصا في فصل الصّيف. فعند وضعها في الطقس البارد، قد تتسبّب في أوجاع بالرّأس أو المرض بالزكام 'تِبْرد عَالرّاسْ'. وذلك لتغطية ما بدى منه من شيب، مع السّعي للمحافظة على لمعانه وقوّته .. وقد حذقت ذلك عن والدتي، التّي كانت شديدة الحرص على تحنية شعرها بترديد " لْحِنهْ دْوَا". ولها في ذلك خلطة خاصّة، تتمثّل في خلط المسحوق مع بيضة، والقليل من العود قرنفل مرحي، مع إضافة الماء تدريجيّا. وأمّا البيض فلأنّه يغذي الشّعر ويزيده صلابة ولمعانا، والعود قرنفل فله جوانب علاجيّة لآلام الرّأس. تمتزج المكوّنات جيّدا للحصول على خليط متجانس ويكون شبه سائل. وبعد وضعه على الشّعر يلفّ الرّأس جيّدا بقطعة من القماش البالي أو 'فولارة'. يُترك من أربع إلى خمس ساعات ثمّ يغسل جيّدا بالماء أوّلا ثمّ غسول 'الطْفَل' ويمشّط بالمشط أو 'الفلاّية'.».

من المتعارف عن الحناء أنّها استعملت كثيرا لتلوين الشّعر والحفاظ عليه، كما عمدت المرأة للحصول على لون صبغي أكثر قتامة من اللّون الحنائي، إلى مزجها أو الاعتماد على مواد طبيعيّة أخرى كالعفص، فكانت فكرة 'المَرْدُومة' كصبغة سوداء اللون مارستها - أو هي لازالت - المرأة التونسية في زينتها التّقليدية.

وإن عُرفت بمختلف مناطق جهة بنزرت، إلاّ أنّها لقيت حظّا أوفر عند نساء مدينة العالية اللاّتي لم يتردّدن في استعمالها لصبغ شعورهّن وحواجبهنّ أيضا. وهي عبارة عن خلطة من المواد الطبيعيّة التّقليدية، أساسها الحديدة والعفص والعود والحنّاء (هناك من يستغني عن الحنّاء ولكن يُحبّذ إضافتها نظرا لفوائدها في الحفاظ على الشّعر). وقد تختلف طريقة إعدادها من امرأة إلى أخرى، ولكنّها تتم

---

* الحاجة شادلية بوحديدة 75 سنة اصيلة مدينة رأس الجبل.

** الحاجة منوبية نويرة 62 سنة من قرية صونين

عموما بسحق العفص والعود قرنفل(بعد وضعها قليلا فوق النار) والحديدة وتضاف بعدها الحنّاء. ثمّ تُخلط المكوّنات بالماء وتوضع على الشّعر لمدّة زمنيّة لا تقلّ عن أربع ساعات. وفي كلّ الحالات تكون النّتيجة واحدة وهي أن تكسب الشّعر اللّون الأسود القاتم الذّي يدوم فترة طويلة تتجاوز الأشهر إلى سنة. وتسمّى بجهة بنزرت، عمليّة وضع الحناء أو المردومة للشعر بـ " لْكَبْسَه " ويقال فلانة " كَبْسِتْ شْعَرْهَا ". أفادتنا به الحاجّة آمنة*

مراحل وضع المردومة للشعر:



صورة رقم21: مسحوق المردومة



صورة رقم22: إضافة الحنّاء لمسحوق المردومة



صورة رقم 23 : إضافة الماء



صورة رقم 24 : الخلط باليد

* الحاجة امنة الكوكي 72 سنة اصيلة العالية.



صورة رقم25: الحصول على خليط شبه سائل



صورة رقم26: وضع المردومة للشعر

ب- الحيوان

إنّ علاقة الإنسان بالحيوان، هي علاقة قديمة قدم الإنسان نفسه. وقد أثبتت الأبحاث الأركيولوجيّة ذلك، من خلال جملة الرّسوم والمجسّمات، التّي اعتمدها الكائن البشري لتجسيد أفكاره وانشغالاته اليوميّة في علاقة بكلّ ما يحيط به. ففي الحضارة الفرعونيّة، مثّلت مجموعة من الحيوانات رموزا أساسيّة في الكتابة الهيروغليفية منها القطّ الذّي كان بمثابة الحيوان المقدّس.

وللعرب علاقة خاصّة بالحيوان منذ القدم، وفي فترات سابقة للإسلام. فكثيرا ما اعتمدوا على الدّواب في تنقلاتهم وفي خوض الحروب. إلى حدّ أن اقترنت في أحيان كثيرة، شجاعة الفارس بصلابة وقوّة حصانه. ولعلّ أهميّة هذا الحيوان دفع الإنسان في تلك الفترة، إلى الحرص في المحافظة عليه. وذلك بجعله جزءا لا يتجّزأ من ممارساته، منها عادة الوسم و« هو مجموعة من الرّموز والدّلالات، يرسم على جلد الحيوان بواسطة 'الكي'»[74] كعلامة للانتماء والصبغ بالحناء « إذ أنّ عادة صبغ الدّواب عادة قديمة جدّا عند الشّعوب التّي عرفت الفروسيّة في الشّرق، وخصوصا في إيران، حيث كانوا يصبغون الجبهات البيضاء للأحصنة الملكيّة. وربّما صبغوا شعر خيلهم أو ظهور أغنامهم بالحناء استحساناً للونها »[75].

كما أكّد الإسلام على أهميّة الحيوان في الحياة ونفعه للإنسان، ولكونه قبل ذلك من خلق الله.. حتّى أن عددًا من السّور في القرآن جاءت بأسماء الحيوانات مثل: سورة البقرة، والأنعام، والنحل، والنمل، والعنكبوت، والفيل. ومن قوله تعالى: { وَالأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ، وَلَكُمْ فِيهَا

---

[74]-اكرم قانصو: **التصوير الشعبي العربي**، م.س، ص39.

[75]- M .Vonderheyden : *Le henné chez les musulmans de l'Afrique du nord*, Op. cit.. pp. 179-202.P190

جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ، وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَى بَلَدٍ لَمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ إِلاَّ بِشِقِّ الأَنْفُسِ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ، وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لا تَعْلَمُونَ}[76].

وفي ذلك تكريم للحيوان، وبيان مكانته، وتحديد موقعه لخدمة الإنسان الذي لم يبخل بدوره في الاعتماد عليه في العديد من جوانبه الحياتيّة ومعاملته ضمن قواعد دينيّة حتّى في تلك الممارسات السّابقة للإسلام. فعادة الوسم «عرفت أيضا في العصر الإسلامي ففي صحيح البخاري حديث لأنس ابن مالك أن رسول الله كان يسم إبل الصدقة لتمييزها عن غيرها. أمّا أصوله فكانت تخضع لاعتبارات خاصّة بين البدو فيحرصون عملا ببعض الأحاديث النبوية على ألاّ يسموا الغنم إلاّ في أذانها. أمّا الابل والبقر فيسمونها في أفخاذها وهي مواضع صلبة تخفيفا لآلامها»[77].

كما تواصلت عمليّة وضع الحنّاء للحيوان لتتّخذ بعدا علاجيّا دوائيا. حيث لم يبخل الإنسان العربي في مداواته بنفس الأعشاب التّي يستعملها لجسده. وهو ما ذهب إليه العدناني عند ذكره لمنافعها بقوله «يشفي ظهور الدّواب ممّا يدفع بها من طول شدّها بالسّروج والرّكاف من تقرّح وتمزّق في الجلد»[78] كما اتّخذت أيضا بعدا وقائيّا وذلك « بوضعها في أحيان كثيرة على ذيل الأحصنة أو على جبهة البقر والثّيران كعلامة وقائيّة وللحماية من الأمراض»[79].

واستمرّت عادة وضع الحنّاء للحيوان إلى اليوم لنجدها خصوصا في عيد الإضحى وذلك بالعديد من المجتمعات العربيّة. وهي حنّة الكبش أو 'حنة العلوش' بمجتمعنا التونسي. وتتمثل في وضع القليل من الحنّاء لهذا الحيوان على اعتباره 'ضَحِية' .وذلك إمّا يوم عرفة ' نهارالوقفة ' أو صبيحة يوم العيد ومن الممكن أن يختلف موضعها من الكبش « ففي الجزائر مثلا، وخصوصا في المناطق البربريّة، فإنّها توضع في القدمين والرّأس أمّا في العاصمة فتكون للرأس فقط»[80] .

كما لم تغب هذه العادة في الأوساط العائليّة بجهة بنزرت حيث تعمد المرأة إلى عجن كميّة من الحنّاء لتوضع بمقدّمة رأس الكبش ، كفال خير بحلول العيد ونيلا للبركة حسب المعتقد الشعبي.

---

[76]- **القرآن الكريم**، سورة النحل الآية 8

[77]- اكرم قانصو: **التصوير الشعبي العربي**، م.س، ص39.

[78]- الخطيب العدناني، **الملابس والزينة في الاسلام**، م.س، ص408 .

[79]- M. Gast, « ***Henné*** », *Encyclopédie berbère, Op. cit.* (p 3437-3440) p3439

[80]- M .vonderheyden : *Le henné chez les musulmans de l'afrique du nord*, Op. cit.. pp. 179-202.P191

<u>حنة كبش 'علوش' العيد :</u>



صورة رقم27:
عمليّة وضع الحناء على مقدّمة رس كبش العيد



صورة رقم 28:
اللّون الحنائي يصبغ جبهة الكبش

ج- الجماد

قد تختلف المواضع باختلاف فكر تصوّري فردي تجاه شيء ما، وذلك بحسب درجة الاعتقاد في مدى فعاليّة نبتة الحنّاء كوسيلة وقائيّة قادرة على دفع الشرّ ليس للجسد فقط وإنّما بكلّ ما له صلة به أو من حوله .

عادة تلطيخ الكفّ بالحنّاء وطبعه بالحائط، تعتبر ممارسة تقليديّة تلجأ إليها الكثيرات بغاية إبعاد الحسد والشر ' تْطيِّر النُّفس' . لنجد هذه الصّورة في مدخل بيت جديد وداخل بعض الحمّامات التقليديّة وخصوصا في مقرّات الأولياء الصّالحين. فلا تكاد تُدهن جدران الزوايا إلا ليُعاد الرّسم من جديد. ويتّضح كمزيج بين الأشكال والكلمات. وزيارة ضريح يعني التبرّك بقبر شخص كانت له صلة بالله من خلال علمه وعبادته، كان عالما أو متعبدا أو معروفا بالصلاح يشهد له بذلك في حياته .ويأمل الناس من خلال ذلك أن يكون عونا لهم في الدنيا في شتى أمور الحياة.

عند دخول بيت جديد، وكما تقول الحاجة مريم*« بَاشْ تْكون عَتِبتو باهية وْلِيه لِقْبول ومبروك على مْالِيه، بالنسبة لِلِّي يذبح يغمس يِدو في الدّم ويلطخها على الحيط عند المدخل والي ما يذبحش يغمس يِدو في الحنّة» وهي العادة نفسها التي جاء على ذكرها فندرهيدن Vonderheyden « عند الحلول بمسكن

* مريم الماطري 61 سنة من منطقة ماطر.

جديد، وعوض أن ترسم يد على الباب، أو أن تلطخ الخمس أصابع بعد غمسها في دم الدجاج، فإنّه من المحبّذ أن تلطّخ بالحنّاء »[81].

كانت الحنّاء في فترات سابقة، تستعمل داخل الحمّام باعتبارها تعدّ جزءا من الطهارة والتطيّب. من ذلك ما نصح به الطبيب المغزالي على من يتوجّه إلى الحمّام، عليه بالغسل بالعسل والسدر والترمس المعجون بالعسل والطفل مع التخضيب بالحنّاء وتنشيف الرأس بمنشف من القطن الرطب.»[82].

واستمرّ هذا الاستعمال إلى اليوم، إذ تعمد الكثيرات من النّساء إلى غسل شعورهن في الحمّام بعد تحنيتها. كما لم يبخلن بوضع القليل على جدرانه. وهو ما أفادتنا به الحاجة شادلية** بقولها «تلطيخ الحنّة بجدران الحمّام ممارسة قلّ استعمالها كثيرا إن لم نقل اندثرت. كنت من وقت لآخر عندما أنوي الذّهاب للاغتسال أحضّر قليلا من الحنّاء وأحملها معي لأغمس فيها يدي وألصقها على الحائط». وعن سبب ذلك تقول:« الحمّام من الطهارة وهي نبتة مباركة أترك بصمتي هناك طمعا في نيل البركة.»

كما تستعمل الحنّاء في صبغ الأنسجة والجلود، حيث تقوم العديد من النّسوة بصبغ جلد كبش العيد بعد غسله ومكوثه مدّة من الزّمن تحت أشعّة الشّمس. وذلك بخلط المسحوق مع الماء وطلي ظهر الجلد، حتّى لا تقربه بعض الفطريات التّي من شأنها أن تحدث رائحة كريهة و لإكسابه لونا أحمر بني .

لا ينمّ اختلاف محامل الحنّاء سوى عن الأهميّة التّي لعبتها – أو هي لا زالت تلعبها - في المخيال الجماعي. الجسد فالحيوان فالجماد أو حتّى النّبات فليس من الغريب أن يوضع القليل من الحنّاء لشجرة معطاء. أو رشّ حفنة منها على حقل مُخضرّ كثير النّبات. وكما أشار فندرهيدن « فعند القرب من إنهاء حصاد حقل ما، تُترك آخر حزمة من السّنابل باعتبارها مقدسة. ولا يتمّ حصدها إلا بعد أن تُرشّ بالحناء ضمن طقوس خاصّة»[83]. فهي تلك النبتة المباركة التّي قد تحمي نبتات أخرى من شرّ العين الحاسدة أو تلك القوى الخفيّة التّي يُجهل مصدرها.

تعدّد المواضع لا ينّم سوى عن تعدّد الممارسات لهذه النبتة. وحضورها القوي في علاقة بالزّمان والمكان، إنّما هو تجسيد لجملة من السياقات.

---

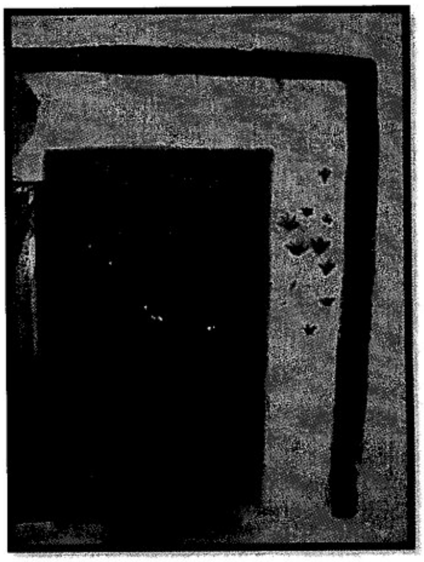
[81]- M .vonderheyden : *Le henné chez les musulmans de l'afrique du nord*, Op. cit. pp. 179-202. P186

[82]– صوفية السحيري بن حتيرة: **الجسد والمجتمع** (دراسة انثروبولوجية لبعض الاعتقادات والتصورات حول الجسد بإفريقية في العهد الحفصي) بحث لنيل شهادة الدكتوراه في التاريخ الوسيط .كلية العلوم الانسانية والاجتماعية 2003-2004 ص195.

** الحاجة شادلية بوحديدة 75 سنة أصيلة مدينة رأس الجبل.

[83]- M .Vonderheyden : *Le henné chez les musulmans de l'afrique du Nord*, Op. cit. pp. 179-202. p185

الحنّاء بجدران مقرّ الاولياء الصّالحين :



صورة رقم29: رسم أشكال بالحناء على جدار زاوية قرب الضريح*



صورة رقم30: الكتابة بالحناء على جدار الزاوية **

* زاوية لعجولة برأس الجبل

** زاوية سيدي بن سعيدان سجنان

الباب الثالث:

سياقات استعمال الحنّاء: المناسبات الاجتماعية ودورة الحياة

مع أنّه يمكن استعمال الحنّاء في كلّ وقت وحين إلّا أنّ حضورها لم يكن أمرا اعتباطيّا أو عشوائيّا في المجتمعات الإسلاميّة. وإنّما هي ممارسة لها قوانينها وأوقاتها وأماكنها أيضا داخل المجتمع. وقد جاءت هذه الضّوابط ، إمّا تبعا لما حثّ عليه الرّسول (ص). أو أنّها وليدة تصوّر جماعيّ لتكون بين هذا وذاك تقليدا تحكمه سياقات تحتّم حضوره في أغلب الأحيان وتحجّر استعماله في أحيان أخرى.

يبرز حضور الحنّاء أكثر في جهة بنزرت في المناسبات الدينيّة والاجتماعيّة الخاصّة منها والعامّة، حيث لا تكاد تمرّ مناسبة زفاف أو ختان من دون أن تكون أيادي وأقدام النّساء والأطفال مزيّنة بلونها الصبغي . كما لا يمكن الحديث داخل الأوساط القرويّة منها والحضريّة عن عروس تزفّ من دون حنّاء وكذا عريسها وإن كان بالشّيء القليل.

1. الاحتفالات العائليّة:

أ- حفلات الزواج :

يمثّل الزّواج رابطا اجتماعيّا بين طرفين، و« هو نتيجة حتميّة للإنسانيّة وقد سنّته جميع الشّرائع السّماويّة، وكان سبب عمران الكون. ولم تُنكره أية طائفة أو أمّة. ومهما كان له من طرق ومراسيم، فنهايته واحدة وهي الجمع بين شطري الإنسانيّة»[84].

يُقترن مفهوم الزّواج في مجتمعنا، بما جاء في الشّريعة الإسلاميّة على أنّه عقد يجمع بين الرّجل والمرأة، يفيد إباحة العشرة بينهما، وتعاونهما في مودّة ورحمة، ويُبيّن ما لكليهما من حقوق وما عليهما من واجبات. وإن جاء الاتّفاق الجماعي على ما وضع من أجله الزّواج من وجهة نظر دينيّة في مجتمعنا العربي إلاّ أنّ طرق الاحتفال به لم تكن ذاتها. إذ هي تختلف باختلاف العادات ولكنّها تحتفظ في الآن نفسه بجملة من الطقوس المشتركة الّتي لا يمكن التّغاضي عنها في أيّ حال من الأحوال كطقس استعمال الحناء الذّي يمثّل رمزا لذاك الفرح .

تزخرجهة بنزرت بثراء تراثيّ جدّ متنوّع وهو ما نلتمسه في جوانب عدّة انطلاقا من اختلاف الطرق الاحتفاليّة بالزّواج بين مناطقها . وإن كنّا في هذا البحث لا نختصّ بعادات الزّواج بالجهة إلّا أنّه من الجدير بنا التوقّف عند البعض منها حتّى تتسنّى لنا إبراز كيفيّة حضور الحنّاء من جملة الطقوس الاحتفاليّة المتّبعة.

84– اسعد لطفي حسن: **الزواج في الإسلام**، الطبعة الأولى، مصر 1938، ص 21.

وعن جملة المراحل المتعارف عنها في عادات الزّواج التونسي يقول الصادق الرّزقي « عبّرنا عنها بالجمع لأنّها متعدّدة. وهي التّقليب أو خطبة الرضى، قراءة الفاتحة، الاملاك، العقد، الصبغة، الفرش، الوطية، الطعم، ليلة العرس، الصباح، الثالث، السابع»[85].

والعرس البنزرتي لا يختلف كثيرا عن جملة هاته الطقوس الاحتفاليّة المتّبعة في مختلف جهات البلاد. إذ تحرص العديد من العائلات إلى وجوب الرّقم سبعة لإتمامها 'سبعة أيّام وسبعة ليالي' أو حتّى أكثر وذلك بمواصلة الاحتفال بعد ليلة الزواج (الصباح، الثالث، السابع).

كما تشكّل مراسم الأعراس 'لعْروسات' أهمّ المناسبات التّي تحرص فيها النّساء والبنات على استخدام الحنّاء في زينتهن ومشاركة العروس فرحتها حسب اعتقادهن. وقد يوجد اختلاف في طريقة الاستخدام من منطقة إلى أخرى أو حتّى بين العائلات من نفس المنطقة، إلاّ أنّ القاسم المشترك بين الجميع هو أهميّة حضور الحنّاء كوسيلة يعبّر من خلالها عن الفرح وطلبا للفال الحسن للعروسين.

وتنطلق رحلة العروس مع هذه النبتة 'المباركة' منذ الخطوبة، التّي تمثّل موافقة العائلتين على زواج ابنيهما. ويكون هذا اليوم كإعلان للأقرباء والأصدقاء على هاته الموافقة. و ذلك بقدوم العريس مع عائلته للاحتفال. ومن العادات المتّبعة، أن يجلب معه الهدايا للعروس. وتكون الحنّاء في طليعة رزنامة المقتنيات، وأن يُؤتى بها عجينة جاهزة للتحنية تكون في صحن بلوري تتوسّطه شمعة وتزيّنه الحلوى أو طوابع السكر.

وبعد قراءة الفاتحة، تتقدّم إحدى النّساء من أهل العريس ويشترط أن تكون ذات ثقة ورصانة. فتقوم بتمرير عجينة الحنّاء وسط كفّ العروس لتتخذ شكلا دائريا. وهو نفس الشّكل الذي تحدّث عنه الصادق المرزوقي ولكن بطريقة مختلفة في رسمه بقوله « فيأخذن بيدها اليمنى فيضعن بكفّها القطعة الذهبية، ويحضّبن الكف بالحنّاء بحيث أنّه يبقى لتلك القطعة أثر مستدير بكف البنت بعد إزالة الحناء وظهور خضابها. وفي أثناء الحناء يقع التعليل والتعشيق»[86]. ولكن هذا الشّكل الدّائري لا ينطبق على كلّ الاوساط العائليّة بالجهة، فهناك من تقوم بتحنية كفّ أو الكفين معا.

وفي التّساؤل عن الغاية من وضع الحناء تخبرنا السيدة ناجية* من منطقة القرية (الواقعة بين العالية والماتلين) بقولها: « هي حنّة القبول أو الرضا، بمعنى الاتفاق الرسمي بين العائلتين وتوضع للتفاؤل بها في إتمام الزواج فيما بعد».

---

[85]- الصادق الرزقي: **الأغاني التونسية**، الدار التونسية للنشر، 1989، ص 175.

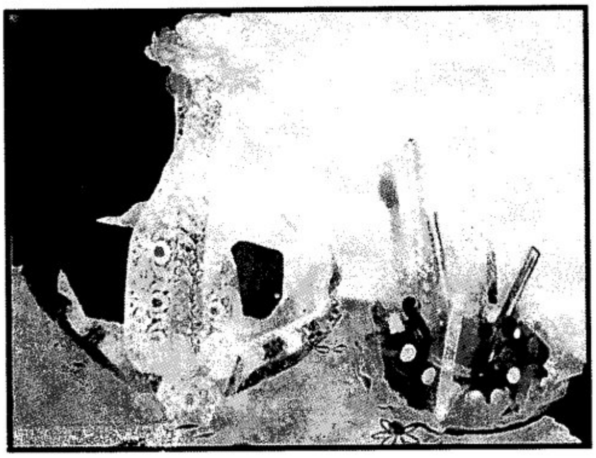
[86]- نفس المصدر السابق، ص 176.

* ناجية بالرحومة 41 سنة، ربة بيت، أصيلة منطقة القرية

ومن العادات التّي تتميّز بها منطقة الماتلين في هذا اليوم، هي ضرورة تقديم قطع من الخبز وصحون يختلط فيها الزّيت مع السكر- أو العسل حديثا- ليتذوّقه كلّ الحاضرين. وذلك مباشرة بعد قراءة الفاتحة وقبل أن توضع الحنّاء للعروس. ليعوّض ' نهارالخطبة ' بهذه المنطقة بـ' نهار الزّيت والسكر'.

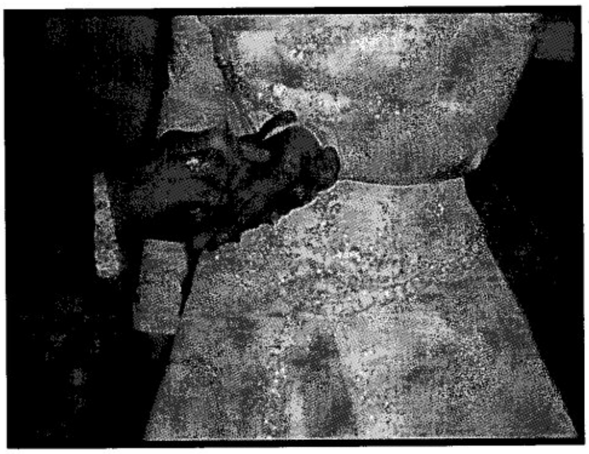
ولحنّاء الخطوبة مكانة هامّة لدى الفتيات الرّاغبات في الزّواج. فبعد أن يتمّ تحنية العروس تتكفّل امرأة كبيرة في السّن وغالبا ما تكون الجدّة، بوضع القليل إمّا في أكفهن أو فوق رؤوسهن مردّدة "العاقبة ليكم".

حنة الخطوبة :





صور رقم31\32: صحن 'حنة الخطوبة' تزيّنه الحلوى وتتوسطه شمعة



صورة رقم33: عملية وضع حناء الخطوبة
في شكل دائري وسط الكف بمنطقة ماطر



صورة رقم 34
وضع حناء الخطوبة بمنطقة الماتلين

ومن العوائد المتّبعة في جهة بنزرت، أن يكون كلّ الحرص في التخلّص مما يتبقى من حنّاء العروس أو العريس سواء في الخطوبة أو عقد قران أو زواج. وذلك إمّا برميها في مجرى مياه، سواء كان بئرا أو بحرا. أو أن تتحنّى بها الأمّ أو الجدّة أو امرأة مقرّبة لا يشكّ في إخلاصها. وكلّ ذلك تفاديا لما يمكن أن يلحق من أعمال شريرة تسيئ للعروسين أو تُبطل فرحهما.

و لعلّ هذا التصوّر الجماعي بجهة بنزرت، في وجوب التخلّص من الحنّاء المتبقيّة التي استعملت من طرف العروس أو العريس منطلقه موروث مشترك في المخيال الشعبي التونسي. إذ نجد هذه العادة بمختلف الجهات تقريبا. وإن كانت الممارسة نفسها هو إبعاد أو إقصاء حنة العروس فقد تختلف الاعتقادات في ذلك.وهو ما ذهب إليه شومبولChampault في الحديث عن حنة العروس بجهة قابس بقوله « عند وضع الحنّاء للعروس لأوّل مرّة، لا يحقّ لأيّ شخص الحصول ولو على القليل من العجينة، خشية أن لا يلقى نصيبا من الحظ فيم بعد. فإذا بقيت كميّة لا يجوز إعادة استعمالها وإنّما تُلقى إمّا في الوادي أو البحر.»[87].

كما تحضر الحنّاء أيضا، في عقد القران 'كتبان الصْداق' إذا كان يسبق الزّواج بمدّة زمنيّة. فبعد أن يتمّ العقد في المساء تنفصل العائلتين، ليرجع أهل العريس إلى منزلهم ويكون الملتقى من جديد في الليل أو 'السهرية'، والمتمثلة بالأساس في وضع الحنة للعروس وسط جوّ احتفالي.

و أمّا في حفل الزواج، فقد يكون البدء مع الحنّاء منذ مطلع نهار أوّل يوم من أيّام الاحتفال. وذلك بتخضيب شعر العروس إمّا بالحناء أو المردومة. ويسمّى ذاك اليوم بـ ' نهار الكبسة ' ويقال فلانة كبست شعرها أو ' نهار الحَمّام'. على اعتبار أنّ النّصف الأوّل من اليوم يكون لتحنية الشّعر والنّصف الثاني يمثّل الذّهاب للحمّام. ولكنّ هذه العادة اندثرت منذ فترة وإن تمّ الإبقاء على الذهاب للحمّام. وليلة اليوم نفسه تخصّص للبدء في رسم حنة العروس. لتكون بذلك أولى ليالي الحنّاء الثلاث. ويُستدعى لها النّساء فقط من أسرتي الزّوجين معا والجارات والصديقات، وقد تختلف طريقة الاحتفال بهذه اللّيلة من منطقة إلى أخرى من مناطق جهة بنزرت وذلك في بعض الجوانب البسيطة ولكنّها تتّفق جميعها على الاحتفال بالعروس والحنّاء معا.

ويتميّز هذا «اليوم الاوّل: "الحنّة" بممارسة ترجع الى تقليد قديم جدّا. يتمّ فيه إهداء قفّة السّلطان أو سلّة الزّواج، التّي تحتوي على جملة من الهدايا كالأسورة والأقراط والخواتم وقمصان وفساتين من

---

[87]- D. Champault : *Les jours du mariage*, Cahiers des arts et traditions populaires N°10, Ministère des affaires culturelles – Tunis 1990 p 59.

الحرير وعطور وحنّاء ..»[88]. وتمثّل' قفة العروسة' هديّة من العروس لعروسه وتعتبر مرحلة ضروريّة من مراحل الزّواج، لا يمكن في أي حال من الأحوال الاستغناء أو التّغاضي عنها.

وتحتوي هاته القفّة أو هي في حقيقة الأمر تتجاوز من حيث الكميّة القفّة إلى جملة من القفاف أو السّلال والتّي تعرف باللّغة العاميّة ' كنستروات ' على مجموعة من مواد الزّينة والعطوروالمأكولات. وتتصدّرالحنّاء جملة هذه المحتويات بنوعيها المسحوقة والأوراق المجفّفة إلى جانب مستلزماتها من علبة شموع وأخرى قطن. كما نجد البخور بأنواعه، واللّوبان، والسّواك، والكحل، وقواريرالعطر والصّابون، وعود القرنفل، والسّينوج، وشوش الورد، فضلا عن مجموعة من الفواكه الجافّة، مثل اللّوز غير المقشر، والزبيب والحلوى، إلى جانب بعض أدوات الزّينة، مثل «الخلاّص» أو المشط و«الفلايّة»، وهي (نوع آخر من أنواع المشط)، والملقاط، والمرآة، وأدوات التّجميل، وبعض المشروبات، أهمّها قارورة 'شروبو' أو 'روزاته'، وعلبة سكر طوابع.

كما يمكن أن تختلف بالجهة تسميات اللّيلة الأولى للحنّاء. كأن تقترن بحمل القفّة لتسمّى بليلة ' هزّان القفّة ' ببعض المناطق كالماتلين. أو بـ ' ليلة الطابع' كرأس الجبل .أو أن تسمّى بليلة 'رشمة الحنّة ' ويقال ' بدات فلانة برشم حنتها ' أي القيام بالرّسم الذّي سيقع إعادته في الأيّام الموالية حتّى الحصول على اللّون المرجوّ. أو أن تقتصر التّسمية على ليلة البدوّ' أو البدء وقد تختلف التّسميات لكن المعنى واحد وهو وضع الحنّاء للعروس للمرّة الأولى .

ولليالي الحنّاء لباس خاصّ قد يختلف من منطقة إلى أخرى، ولكن يبقى بالأساس لباسا مطرّزا ولكنّه يعتبر بسيطا مقارنة بلباس ليلة الزفاف من حيث الزّخرفة ويسمّى عادة ب ' قفطان الحنة' أو ' لبسة الحنة' أو ' كسوة الحنة أو تبديلة الحنة'.

وينطلق الاحتفال بشروع الحنّانة في تحضير صحن عجينة الحناء التّي تعجن بعد البسملة والقول" نشاالله للسعد والهنا ". ويعوّض الماء العادي للعجن بماء زهر أو ورد لتنبعث منها رائحة عطرة وتتمتّع العروس بحياة زوجيّة موفّقة أو هي مُزهرة. ويُزيّن الصّحن بعد ذلك بالحلوى وطوابع السكّر لتتوسّطه في الأخير شمعة مشتعلة. ويملأ في الأثناء المرشّ النحاسيّ من ذاك ماء الزّهر أو الورد الذّي عجنت به الحنّاء ليُرَش به فيم بعد على رؤوس الحاضرات.

ويوضع الصّحن والأكياس الصغيرة أو القفازات والسّمكة المطرّزة والقطن والمرشّ داخل ' كنسترو العروسة'. بعدها تشرع إحدى المقرّبات بتلبيس العروس اللّباس المخصّص لهذه اللّيلة وسط زغاريد

[88] . Kamel Tmarzizet : *Tunisie : Rites et cérémonies*, Maison tunisienne de l'édition, Mai 1979 p 40.

النّسوة وهتافهن. وكثيرا ما يكون قفطانا مطرّزا مصحوبا بوشاح شفّاف أو ما يعرف بـ' الخِمار' لتغطية الرّأس والوجه. ولعلّ في ذلك اتّباع لعادة قديمة تعود إلى زمن سحيق وهي الرّمز بذاك الغطاء إلى عذريّة الفتاة [89].

من ثمّ تتجمّع الفتيات داخل الغرفة لترافق العروس إلى مكان الاحتفال - وسط الدّار في أغلب الأحيان أو السّقيفة– وتتكفّل إثنتان منهنّ بحمل الشّموع والمشي وراء العروس لتكون واحدة من اليمين وأخرى من اليسار. تتقدمهنّ إمّا العمّة أو الخالة حاملة الكانون الذّي تعبق منه رائحة البخور.

وتجلس الحاضرات في شكل حلقة. لتتوسّطها العروس إمّا قابعة على كرسي - كثيرا ما يغطّى بزربيّة أو قماش من الحرير كدلالة على المقام المرموق- أو ان يخصّص لها مكانا مميّزا لتكون بارزة في نظر كل الحاضرات، مغطاة الوجه لا يكاد يرى منها غير الكفين والقدمين لتتقدّم الحنانة «وهي امرأة تقوم بتحسين بزّة العروس وتهيئتها لعريسها »[90] بتعبير الصادق الرّزقي وتبدأ بخفّة ومهارة في وضع الحنّاء بدءا من اليد اليمنى فاليسرى ونفس الشيئ للقدمين. و يشترط في ذلك أن تكون الرّسوم مميّزة تختلف عن رسوم الحاضرات من حيث الشّكل والدّقة في الرّسم حتى تكاد تكون خالية من الأخطاء.

وتمتزج طقوس وضع الحنّاء للعروس مع الزغاريد والغناء المتمثّل في أغاني شعبيّة ومواويل غنائيّة من ترديد الحنانة أو الفتيات والنّساء الحاضرات مصحوبة بايقاعات الدّربوكة والتّار، وأحيانا من طرف فرقة غنائيّة نسائيّة تسمّى' الضّرَبات ' أو 'الدّربكات' تحيي تلك الليلة الاحتفاليّة. ومن بين الأغاني التراثيّة التّي يتغنى فيها بهذه الممارسة والتّي من المحتّم أن يكون منطلقها دينيّا بذكر الرّسول لتنتهي كذلك أيضا بالتّعليلة. نذكر ما يلي :

نْزاد النَّبي وفْرَحْنَا بيه صلى الله عليه يا عاشقين رسول الله صلّوا عليه

ومن الأغاني التّي تغنى أثناء وضع الحنّاء:

جِيبوا الحنّة جِيبوها بماء الورد والطّيب اعْجنُوها
جيبوا الحنة في صْحَن بلاّر تحنّي العروسة وكلّ مَنْ في الدّار
جيبوا الحنّة في صحن أخضر تْحَنّي العروسة وكلّ من في المحضر
جيبوا الحنّة اليوم فرحة كبيرة والطير يبني العش مع الطيرة
جيبوا الحنة اليوم ما أكبر سعدي من بعد بنتي صعيب نبقى وحدي

---

[89]- L.Bertholon / E.Chantre : *Recherches anthropologiques dans la berbérie orientale : Tripolitaine, Tunisie, Algérie*. A.Rey, imprimeur- éditeur 4, Rue Gentil, Lyon 1913 p579

[90]– الصادق الرّزقي، **الأغاني التونسية** م.س، ص 180.

جيبوا الحنّة للصبايا تحنّي في فرح بنتي الناس جات تهنّي

وفي إنشاد آخر:

مُصلّي عالنّبي

هاتوا الحنه هاتوا يا لْخالات

هاتوا الحنّه في صحن بلاّر

تحنّي لِلاّ وكلْ ما في الدار

هاتوا الحنه في صحن أخضر

تحنّي للاّ وكلْ منْ يَحْضر

هاتوا الحنّه في صحن جِرْبي

تُحنّي للاّ وكلْ مِنْ يِبْغي

هاتوا الحنّة في صحن كْبير

يجعل عرْقُوبك لْخِير

هاتوا الحنة في صحن قِنْديل

تحنّي بْنَيْتي ليلة السبعة وعشرين

هاتوا الحنّة وهاتوها

وجْمَاعه كِبّوا عْلى بُوها[91]

ومن الاغاني الشعبية التي تردّدها النسوة:

مدّي يدك للحنة يا كنّة خلّي ميمتك تتهنى

وعروسك يفرح بيك قدّاش عندو يستنّى

مدي يدك للحنة حنّيها ونزيد نواشيها

لعروسة خميس عليها يا مشموم الفلّ

مدّي يدك للحنّة بالتشريف

لعروسة قدّك ظريف يا مشموم الفلّ

[91]- Dornier P. : *La politesse bédouine dans les campagnes du nord de la Tunisie : Le mariage*, I.B.L.A,VIII/69 1[er] trimestre 1955, p92-268 p110-111

وهي أغاني تتلخّص معانيها في التغنّي بالعروس وحنّتها مع الجمع بين لوعة عائلتها لفراقها والتفاؤل لها بحياة زوجيّة موفّقة.

إلى حين الانتهاء من تحنية اليدين والرجلين، ليكون الدّور للحاضرين من الأطفال والفتيات والنّساء. كما تحرص الوالدة في الأثناء على تقديم القليل من الحنّاء سواء في شكل مسحوق أو عجينة لمن تهمّ بالمغادرة مردّدة ' ذُوقْ شويّة من حنّة لَعْروسة'.

في الوقت ذاته تقوم الحاضرات بوضع أوراق نقديّة في ' كنسترو العروسة' أوعلى صحن الحنّاء وهو ما يعرف ب' الرْمُوّ ' الذّي يمثّل مساهمة ماليّة واجبة على كلّ الحاضرات من النساء وذلك بعد تهنئة العروس والدّعوة لها بحياة سعيدة، من ذلك " صحّ الحنّه نشاالله للسّعد" " ربّي يزيّن سعدك ويْقدْ ايّامك" " نشاالله بَدِو بالتْمَامْ". وقد تختلف بعض مناطق الجهة في اليوم الذي تحضر فيه هذه العادة. ولكنّها تكون عموما إمّا في اللّيلة الأولى للحناء أو اللّيلة الأخيرة التّي تمثّل الإنتهاء من التّحنية، وهي ما تعرف بليلة الوطية. و تعتبر آخر ليلة يحتفل فيها بالعروس قبل أن تزف إلى عريسها. وقد تختلف الطرق الاحتفاليّة بها ولكنّها تمثّل عموما تجمّعا نسائيّا تتصدّره العروس بكامل زينتها. انطلاقا من رسوم حنّاء تغطّي كفّيها وباطن قدميها ويكسو جسدها لباسا مطرّزا خصّص لتلك اللّيلة وهو ما يسمّى ' بكسوة الوطيّة'. ومن بين العادات المتّبعة بالجهة هو ضرورة أن تتمّ عروس كلّ من منطقتي رفراف وصونين، الرّقم سبعة في عدد ' الكساوي المطرّزة ' التّي تلبسها طيلة الاحتفال.

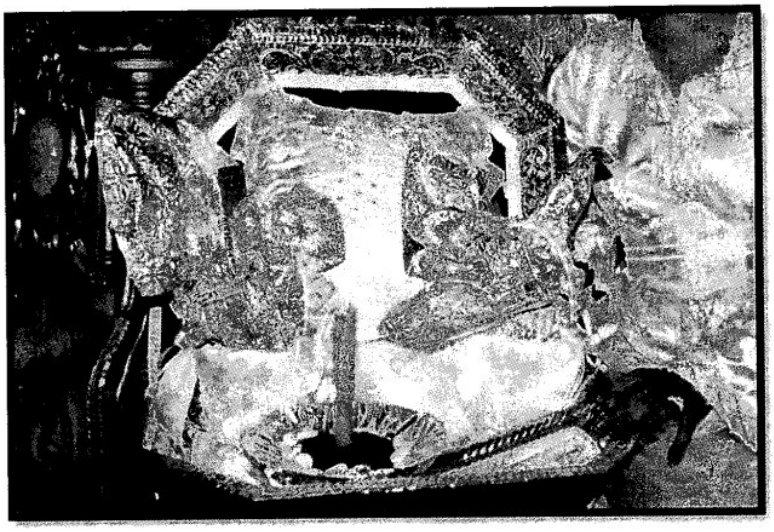
و يخصّص نهار يوم غد لوضع الحرقوص أو ' النّقْشة '. ويسمّى ' نهار النقشة ' أو ' نهار الرّاحة ' على اعتبار أنّه يمثّل يوم راحة بالنّسبة لأهل العروس. و لكن لا يغيب فيه الجوّ الاحتفالي وإن كان ليس بالكيفيّة التّي تكون للحنّاء. حيث تكتفي الحاضرات من أفراد العائلة عادة بالغناء والرقص على إيقاعات الدربوكة .

و في أولى ليالي الحنّاء بمدينة العالية ميزة خاصّة تتمثّل في وجوب تحضير طعام للمدعوات يتكوّن بالأساس في ' مرقة وخبز الدار'. أي مرق (يعدّ من الطّماطم والفلفل والزّيت واللّحم والحمص) وخبز يعجن في البيت ليطبخ عند فرّان الحيّ. و طريقة إعداد الخبز هي من العادات التّي تميز هذه المدينة. لتسمّى تلك اللّيلة بـ ' ليلة البدو' أو' ليلة العشاء'. يكون ليلة فقط بينما يغيب في الليلتين المقبلتين ليقتصر على المشروبات والحلويات ولكن تعاد هاته العادة لتكون كغداء في يوم النّقشة.

و ما جلب انتباهي أثناء حضوري لعدّة حفلات زفاف بهذه المدينة، أنّ غالبيّة الفتيات يحذقن بشكل كبير وضع الحنّاء ويتفنّن في رسمها. كما لا يبخلن البتّة في مشاركة العروس بوضع ولو القليل منها. ولعلّ مردّ شغفهن هذا، هو حرص أمهاتهن وجدّاتهن على استعمال الحنّاء باستمرار كما تؤكد ذلك السيدة

خديجة* بقولها :« الحنّاء لا تغيب عن حياة المرأة العَلْوِيَه ، تلازمها في كلّ المناسبات والأفراح. وتَعلُّمِها ضرورة نتناقلها جيلا عن جيل. وكما حذقتها عن والدتي علّمتها لابنتي». وهو ما يفسّر أهميّة هذا النبات الصبغيّ في علاقته بالمرأة الّتي تمثّل رمز استمراريته كممارسة تقليديّة .

'كنسترو لعروسة' أو 'كنسترو لحنه':



صورة رقم 35: 'كنسترو لعروسة' بسجنان



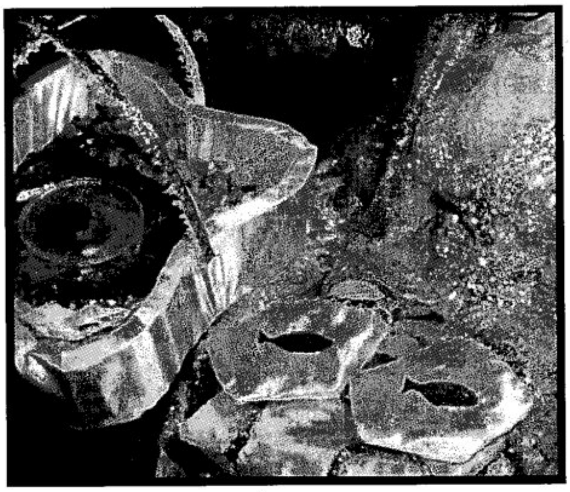
صورة رقم 36: عمليّة الرُّمُو

* خديجة بن سالم 54 سنة ربّة بيت.

'كسوة الحنه' :



صورة رقم 37



صورة رقم 38

أمّا بالنّسبة للعريس، فيقوم في اللّيلة السّابقة للزواج، وهي ما تعرف عادة ب'حنة لَعْروس' أو 'المْبيته ' أو ' سهريّة العروس' - وسط جو احتفالي- بتحنية إمّا ثلاثة أصابع من اليد اليسرى وهو ما يسمّى 'جْنَاح' بالجهة. أو الإكتفاء بوضع القليل على طرف الخنصر، للتبارك بالحناء في زواجه نظرا للاعتقاد السّائد بأنّ هاته المادّة توحي بالحنان والبركة والسّعادة.

ومن أكثر الأغاني تداولا ليلة 'حنة لعروس' ما يلي :

يا ديني محلالي فرحوا	بالعواده الله لا تَقُطَـعْلوا عَـــادَة
ونْخَـافْ عْليـــــــه	خمســـــــة والخْميس عليــــــه
يا ديني مَحْلالي عِرسو	بالدَّرْبوكة وانْشالله عْرُوستوا مَبروكة
ونْخـــــاف عْليـــه	خَمســة والخْميــــــس عليـــــــه

ومن الأغاني الشّعبية :

جِيبولوا الحنّة يا مّا وهاتولوا الحنّه وعلى عْرُوسنا اليُوم تْهَنا

جيبوا الحنة وهاتو الحنه على وليدنا اليوم تْهنا

جيبوا الشّمْعات وشَعلُوا الشّمعات

عروستنا زينة لبْنات

ويحدّثنا السيد علي* (لم يمرّ على زواجه سوى بضعة أسابيع) فيقول:« لا تكتمل مراسم الزّواج لدينا إلا بإقامة ' المبيته' ». لتكون في اللّيلة التّي تسبق ليلة الزّفاف مباشرة. وهي عبارة عن احتفال العريس مع الأصدقاء والأقرباء. يتمّ خلالها وسط جوّ احتفاليّ تمتزج فيه الزّغاريد والغناء بموائد الطّعام ورقص الحاضرين، بوضع القليل من الحنّاء للعريس من طرف امرأة من المقرّبات كالعمّة أو الخالة. وتقديم الهدايا له والتّي تكون في غالب الأحيان في شكل نقود تقدّم كمساهمة في مصاريف الزّواج.

والطّريف في الأمر، أنّ ' ليلة المبيتة ' بمدينة العالية، لا تقتصر على العريس فقط وإنّما تخصّ العروس أيضا. حيث يتمّ جلبها بعد صلاة العشاء في موكب احتفاليّ إلى بيتها الزوجيّ لتبيت فيه، صحبة أفراد عائلتها من النّساء والبنات وكذلك الصديقات. لتتّجه في الغد إلى قاعة التجميل او ما تعرف ب'الحَجّامة' ويتمّ الزفاف في مساء ذاك اليوم. وهذه العادة لا توجد بأيّ منطقة أخرى من مناطق جهة بنزرت. وفي السؤال عن الغاية من فعلها يقال بأنّها تمثل تمهيدا نفسيّا جنسيّا للعروس أي أنّها تعتاد ببيتها الجديد قبل ليلة من الزّفاف.

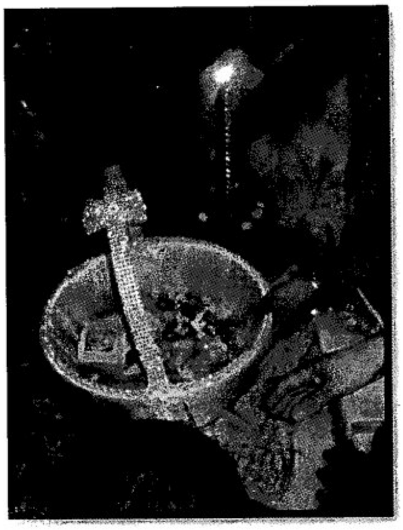
وعلى عكس الأهميّة الاحتفاليّة لحنّاء العريس بمختلف مناطق الجهة، فإنّ عريس الماتلين لا يُحضى بليلة الحنّة أو المبيتة. ولكنّه لا يزفّ من دون وضع القليل من الحنّاء قبل يوم أو يومان من ليلة الزّفاف.

---

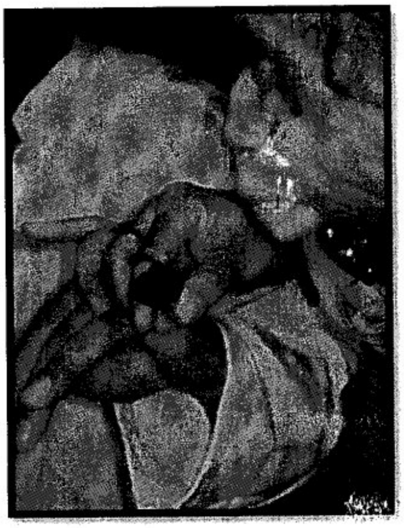
* علي المثلوثي 32 سنة من قرية لعزيب الواقعة بين منزل جميل والعالية.

ولعلّ هذا الاستخدام المحدود للحنّاء لدى العريس، يعكس شكلا رمزيا من أشكال التّواصل مع العروس. بالنّظر إلى ما يتميّز به عطر نبات الحناء الطبيعيّ، من رائحة مثيرة ومنشّطة تساعد على تقوية الرّوابط العاطفيّة والروحيّة بين العريس والعروس. على غرار العديد من العطور والنباتات الأخرى العطرة كالفل و الياسمين. أو هي تحضر لتتّخذ أبعادها الوقائيّة في حمايته من العين الحاسدة أو أي فعل مشين.

مراحل تحنية العريس :



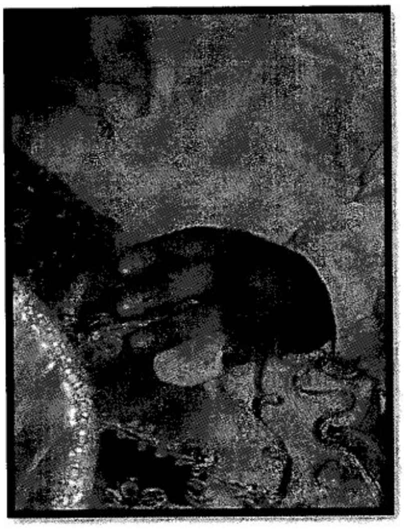
صورة رقم 39: 'كنسترو الحنّة'



صورة رقم40: عمليّة التّحنية



صورة رقم 41 : اللّف بالقطن



صورة رقم42: تحنية الطرف الاعلى من الخنصر

كما لا يمكن الحديث عن عادات الزّواج بجهة بنزرت، دون ذكر الزّواج على طريقة سيدي البشير. الذّي عرف بمنطقة ماطر ثمّ شمل مناطق أخرى أو بمعنى أصحّ أوساط عائليّة بمناطق أخرى. لنجد هذه الظاهرة في العزيب والختمين ومنزل جميل... ويقال 'مَعْطِت سيدي البشير' أو 'ماخِذت سيدي البشير' وفي كلتا الحالتين على العائلة التّي ستصاهر أحفاد هذا الولي، أن تلتزم بعاداتهم واتّباع ما جاء به هذا الولي الصالح من قواعد في الزّواج.

« سيدي البشير هو وليّ صالح، أصله من جبل زواوة. ولادته مجهولة التاريخ أمّا وفاته فهي يوم 16 شوال 1242هـ/ 12 ماي1827م. ينتمي إلى الطريقة الرحمانية، أتى الحاضرة بعد وفاة عمّه الونيسي مقامه المشهور بالجلاز »[92].

و«هو أحد شيوخ تعليم القرآن الكريم وسنّة النبي صلى الله عليه وسلّم. كان قد حطّت به الرّحال بمنطقة جبليّة بجومين. وكان يعلّم الناس الفقه الدّيني وأصبح له إشعاع في جميع المنطقة، ممّا أدّى إلى توافد العديد من «العروشات» إليه لتعلّم القرآن والسنة ومن أبرزها بني طياش والمزي والجبابرة والعجابي والبجاوي والتيزاوي... وكانوا قد تعاهدوا مع الشيخ سيدي البشير باحترام جميع الشعائر الدينية وطريقته هم وذريتهم »[93].

ويمكن اعتبار فكرة الزّواج على عادة سيدي البشير قائمة على أساس عدم التبذير والإكتفاء بالضروريات. حيث يمنع كلا من المخطوبين أو العائلتين من تبادل الهدايا في الفترة السّابقة للزواج كما لا يحقّ للفتاة الحصول على خاتم خطوبة ذهبي أو شراء مصوغ إلا بعد الزفاف .

« ومن العادات المتّبعة في الاحتفال بالزّواج، أن يقوم أهل العريس بحمل ما يعرف بـ «العقيرة» إلى دار العروس. والمتمثّلة خاصّة في الذبيحة (خروف أو عجل) ونصف ويبة (50 كلغ) كسكسي والخضر والغلال ومستلزمات الطبخ مثل الزيت. ويمنع حمل الحنّة والحمص والفواكه لأنّها تعتبر « زيادة » ويقدّر مهر العروس بـ 69 مليما»[94]. ولا يكون الانصراف إلّا بعد الذّبح والطّبخ والأكل المشترك بين العائلتين .

---

[92]-احمد ابن أبي الضياف: **اتحاف أهل الزمان بأخبار ملوك تونس وعهد الأمان**، الدار التونسية للنشر1989، ج 2، ص 145.

[93]– البشير المزي: نشر في الشروق بتاريخ 11 - 08 - 2011.

www.turess.com/alchourouk/502622

[94]– نفس المصدر السابق

ليست هناك طقوسا خاصّة متّبعة بالنّسبة لليلة الحنّاء. غير أنّ العروس على عادة سيدي البشير، لا تُحضى بقفة العروسة ولا يحبّذ استدعاء الحنّانة باعتبارها تمثّل مصاريف إضافيّة. ولكنّها لا تُزف من دون حنّاء تزيّن كفيها وقدميها. وعلى الرّغم من اعتبارها « زيادة » لا يقوم العريس باقتنائها لعروسه، إلاّ أنّ التشبّث بالحنّاء ولياليها الثلاث إلى جانب الاحتفال بـ' ليلة المْبيتَه ' يؤكّد غير ذلك.

ويمكن القول إجمالا، بالرّغم من تلك الاهميّة التّي تحضى بها الحنّاء في حفلات الزّفاف الا أنّها عرفت مسارا مغايرا في عصرنا الحاليّ فأضحت تقتصرفي أغلب الاحيان على ليلة واحدة. أو أن يتمّ التخلّي عنها والإكتفاء بتحنية العروس رفقة أفراد عائلتها ومن دون احتفال. كما فقدت 'حنة لعروسة' طابعها القدسي - إن صحّ التّعبير-فلم يعد الخوف من توظيفها لأعمال شرّيرة ولعلّ أبرز دليل على ذلك أنّها أصبحت تجلب كخلطة جاهزة مع الحنّانة التّي بإمكانها استعمالها لأكثر من عروس.

لم يقتصر التغيير عن كيفيّة وضع الحنّاء فحسب، بل شمل أيضا 'لبسة الحنّه' للعروس. والذّي أضحى هو الآخر دخيلا عن تقاليد اللّباس المحليّة، لنجد اللّباس الهندي والقفطان المغربي. و إن لا يمكن تعميم ذلك على كلّ مناطق الجهة، أو كلّ الأوساط العائليّة بالمنطقة نفسها. فهناك العديد من العرائس اللاتي لا زالت تزفّ الى اليوم بلباسها التّقليدي الأصيل. ونخصّ بالذّكر منطقة رفراف أين تحرص الأمّهات على تحضير لباس بناتهن للزّواج على الطريقة التقليديّة. بأن تطرّز كسوة الزّفاف ولا تُكترى وإن تطلّب الأمر سنوات لإتمامها.

كما لم تعد مهنة الحنّانة تستوجب الخبرة والرّصانة. أو هي تلك المرأة المكلّفة بأدقّ تفاصيل العروس. إنّما أصبحت تقتصر على تعلّم وحذق رسوم الحنّاء. فلم نعد نرى صورة الحنّانة، تلك المرأة العجوز التّي تحدث في نفوسنا نوعا من الرّهبة، بملامحها التّي تتجاوز الجديّة إلى الصرامة في أحيان كثيرة. بل وعلى عكس ذلك فقد أصبحت حنّانة اليوم تخصّ الشابات العارفات بأمور الموضة. كما أصبحت مهنة وقتيّة لدى الكثيرات منهنّ ومصدرا للرّبح لا غير. هذا وإن لم يتمّ التخلّي عنها نهائيّا نظرا لانتشار صالونات التّجميل التي تختصّ بكامل زينة العروس بما في ذلك الحنّة.

ب- الختان

في مفهوم الختان دينيّا « اتّفقوا على أنّه شعيرة واجبة من شعاير الإسلام ومعظمهم الفقهاء على أنّه واجب لنفسه ، فإن لم يختن الوالدان ابنهما، وجب ذلك عليه إذا بلغ الحلم. وكذا إذا كان كافرا

وأسلم. لما في الوسايل عن الكليني بسنده عن السكوني عن الصادق عن علي قال: إذا أسلم الرّجل أختتن ولو بلغ ثمانين سنة.»[95].

و في حديث آخر« ومن العلامة للمسلمين الختان والخضاب ولبس السّواد، فأمّا الختان فلأنّه من الفطرة كما قال صلى الله عليه وسلّم : {عشر من الفطرة وذكر من جملتها الختان} إلا أنّ من أهل الكتاب من يختتن فإنّما يمكن التّمييز بهذه العلامة إذا اختلط المسلمون بقوم من المشركين يعلم أنّهم لا يختتنون»[96].

يسمّى عندنا الطْهُور، والمباشر لعمليّة الختان يسمّى الطّهّار. ومحلّ الختان من نفس الصبي يسمّى الطهارة، وصناعة الختان تسمّى الطهارة أيضا. يقوم بها جماعة من الحلاّقين المشهورين[97]. وكلمة الطهور مقترنة بالطهارة في الإسلام لذلك يعتبر واجبا على كل مسلم.

تحرص العائلات بالجهة على ختن أبناءها قبل سنّ السادسة أي قبل الالتحاق بالمدرسة. وإن كان هناك من يقتصر على ختن طفله دون إقامة احتفال لذلك، إلاّ أنّ الكثير يعتبر أنّ الاحتفال بالطهور لا يقلّ أهميّة عن الاحتفال بالزّواج. رغم مقولة كبار السنّ 'عِرْسكم اشهروه وطْهوركم اخْفِيّوه' . وفي كلّ الحالات، لا يمكن الحديث عن ختان دون حضور للحنّاء ونقوش الحرقوس، لتزيّن كفي وقدمي الطفل المختون.

فبعد تحديد تاريخ الختان والقيام باستدعاء الأقرباء والأصدقاء يكون الحديث عن التّحضيرات التّي تسبق هذا الاحتفال. فتعمد الأمّ لإقتناء لباس المطهّر أو ' كسوة المطهّر' التّي تتجاوز اللّباس في حدّ ذاته إلى مقتنيات أخرى كالعطر والبخور والحنّاء...

يتم الاّحتفال بالطهور بالجهة من يومين إلى ثلاثة أيّام. ليكون البدء بوضع الحنّاء أو المردومة على شعر الطّفل وأمّه قبل الذّهاب إلى الحمّام لتخصص ليلة اليوم الاول للتحنية . حيث تحرص الأمّهات على تحنية أيدي وأرجل أطفالهنّ. لطلب البركة وأملا في إطالة العمر، لمشاهدة أطفالهن عرسانا بعد إحياء ختانهم وهو ما تردّده النّسوة بقول ' العَاقْبه لْعِرْسُو'. ويكون اليوم الثّاني عادة للذّبيحة وهناك من يسمّيها 'وطيّة المطهّر' أمّا اليوم الثالث فهو يوم الختان أو 'نهار الطهور'.

وتتمّ ' ليلة حنة المطهر' باجتماع النّسوة من الأقارب والجيران، اللاّتي يجلسن في شكل حلقة دائريّة ليتوسّطها الطفل. ويشرعن في ترديد أغاني تراثيّة وشعبيّة تتخلّلها بعض الزّغاريد. وذلك بالموازاة مع

95- الخطيب العدناني: **الملابس والزينة في الإسلام**، م.س، ص19.

96- محمد بن أحمد بن أبي سهل السرخسي: **المبسوط** ، الجزء العاشر، دار المعرفة 1989 ، ص200.

97- الصادق الرزقي: **الأغاني التونسية**، م.س، ص 177.

قيام إمرأة مسنّة كالجدّة أو امرأة على دراية بأمور الحنّاء بتخضيب كفّي وقدمي الطّفل مع الحرص على أن تصاحب عمليّة التّحنية شمعة مشتعلة إلى حين الإنتهاء.

ومن أشهر الأغاني التراثيّة التّي لا تغيب عن الاحتفال بالختان وخصوصا ليلة الحنّاء نذكر:

طهّر يا مُطهَّرصح الله إيديك ولا توجع وليدي لا نَغضب عليك

طهّر يا مطهر تحت الداليـه وطهارة وليدي صبْحت باريـــــه

طهر يا مطــهر لا تخــافْ طهرلي وليدي على طرف اللّحاف

أولك مطهر وعُقابك عــروسْ وحصانـك يولول ما بيـن الغـروسْ

أولك مطهر وعقابك شبـــاب وحصـانك يولـول ما بيـن العُـزّاب

ويني أم المطهر ويني عَمْتــه تُجـي ترمي الـدراهم على تعليلتـه

ويني أم المطهر ويني خالتــه تجي ترمي الدراهم على عمّارته[98]

ومن الملاحظ أنّ 'حنّة المطهّر' تكون بسيطة الأشكال قدر المستطاع أو الإقتصار عادة على 'لْحنّه سوالف'. ولعلّ مردّ ذلك كونه طفل صغير لا يمكنه التحمّل لوقت طويل للقيام برسومات دقيقة. أو أنّه فتى لا تخصّه الزّينة المبالغ فيها، التّي هي من شأن الاناث. ويبقى التمسّك بها من باب العادة ولا مجال لاستدعاء الحنانة. فغالبا ماتقوم بذلك أمرأة من المقرّبات التّي تتقن وضع الحنّاء.

'حنة المطهر'



صورة رقم43: عملية وضع الحنة للمطهر(بتاريخ 7 جويلية 1993 قرية رأس الزبيب)

[98]- الصادق الرزقي: **الأغاني التونسية**، م.س، ص 175



صورة رقم 44: وضع الحنة للمطهر (بتاريخ أوت 2012 بنزرت)

ج- الولادة

تمثّل الولادة حدثا عائليّا هامّا. يتّخذ بعدا احتفاليّا بزيادة المولود الجديد من جهة، ومرور مرحلة الولادة بسلام بالنّسبة للأمّ من جهة ثانية. ولهذا الحدث تقاليده الخاصّة في المجتمع التونسي. يجمع بين ثنائيتي الفرح بالمولود، والخوف على النّفساء التّي يتطلب بقاءها بالبيت أربعين يوما بعد الولادة.

جرت العادة في الأوساط العائليّة بجهة بنزرت، إلى أن تعمد المرأة الحامل حين يقترب موعد الولادة إلى تحضير ما يلزمها هي ومولودها من لباس وطعام. وأن تحرص كلّ الحرص على أن تضع الحنّاء بيديها ورجليها، وخصوصا إذا تعلّق الأمر بالولادة للمرّة الأولى. ومردّ ذلك أنّ الحناء مبروكة وهي من الجنّة، تساعد المرأة التي ستضع مولودها على تجاوز المرحلة بسلام كما تقيها شرّ العين الحاسدة*.

فالولادة الأولى تعني أنّ المرأة لا تزال عروس ' مازالت عْروسَه' في الفكر النّسائي بالجهة وهي تكون أكثر عرضة للأخطار الشّريرة أو ما يعرف بالنّفس. و' حنة الولادة ' تكون بمثابة واق لها ولمولودها.« والمرأة الحامل عندما تكون في شهرها الأخير فإنها تكرّر صبغ يديها وقدميها بذاك اللّون الأحمر وفي ذلك محاولة لإبعاد الأخطار التّي من شأنها أن تمسّها»

ومن العادات المتّبعة بالجهة، أن يتمّ تحنية الحامل (التّي تكون للمرّة الأولى) في بيت أهلها. وسط أفراد عائلتها من الإناث. ففي أغلب الأحيان نجد الأمّ أكثر حرصا على أن تضع ابنتها الحنّاء والحرقوس

* أفادتنا به الحاجة شادلية بوحديدة 75 سنة اصيلة مدينة رأس الجبل.

أيضا. وأمّا بعد الولادة، فتعيد المرأة النافس وضعها تحديدا بعد انقضاء الأربعين يوما من النفاس. وذلك بأن تحنّي شعرها لتقصد الحمّام فيما بعد، ثمّ وبعد عودتها تقوم بتخضيب يديها ورجليها.

قد تصاحب الحنّاء المرأة طيلة مدّة نفاسها كوصفة طبيّة، لعلاج أو تخفيف بعض الأمراض التّي يمكن أن تصادفها بعد الوضع. كمداواة حلمة الثدي التّي تحدث بها تشققات مصحوبة بآلام عند إرضاع المولود. وذلك بخلط القليل من الحنّاء مع السّمن ودهن الحلمة مرّات عديدة في اليوم باعتبارها طبيعيّة ولا تضرّ الرّضيع عند الرّضاعة.

كما لا تخصّ الحنّاء الأمّ فقط، وإنّما مولودها أيضا. وهو ما ذكره الصادق الرزقي بقوله «أعرف أنّ الصبيّ إذا بلغ من العمر عاما حجّلوا له بالحنّاء. أي يحنّون له يدا واحدة وساقا واحدة ولا أعلم السبب الدّاعي لكن على كلّ حال قد تنوسي أمر التّحجيل وقلّ استعماله»[99]. وإن قلّ استعمال أو تونسي أمر التّحجيل بعبارة الرّزقي فقد تمّ الاكتفاء داخل بعض العائلات بجهة بنزرت تحديدا في بعض المناطق ذات الطابع القروي كالماتلين و العالية و القرية و بازينة...بوضع القليل ليد واحدة و ذلك بعد قصّ شعر الطفل. وفي السّؤال عن هذه الممارسة أفادتنا الحاجة فرجانية** أنّها من باب البركة وللتّفاؤل له بطول العمر.



صورة رقم 45: وضع الحنّاء للطفل عند بلوغه السّنة

[99]- الصادق الرزقي: **الأغاني التونسية**، م.س، ص 164.

** الحاجة فرجانية بالرحومة 71 سنة القرية – الماتلين.

د- الحجّ:

يُعدّ الحجّ ركنا من أركان الإسلام الخمس إلى جانب شهادة أن لا إله إلا الله وأنّ محمداً رسول الله، وإقام الصّلاة وإيتاء الزّكاة وصوم رمضان. لقوله تعالى { ولله على النّاس حج البيت من استطاع إليه سبيلا}[100]. فالحجّ واجب على كلّ مسلم مستطيع مرّة واحدة في العمر. ويقوم باعتباره ممارسة دينيّة على جملة من القواعد والطّقوس التّي تجمع بين الوجوب وعدمه.

وفي أداء هذه الفريضة، هناك مراحل لابدّ من إتمامها ليكون مقبولا عند الله. وتتمثّل في الإحرام والوقوف بعرفة، وطواف الإفاضة، والسّعي بين الصفا والمروة . كما وجب على كل حاجّ أو حاجّة لباس خاصّ أبيض اللّون ومُنع على كلا الجنسين كل ما له صلة بالزينة والتبرّج.

وقد جاء في الأحاديث الدينيّة، تحريم الحنّاء في الإحرام على اعتبارها من الطّيب ومن ذلك «الحنّاء من الزّينة. ومن يرخّص في الرّيحان يرخّص فيه. ونقل محمّد بن حرب وسئل عن الخضاب للمحرم فقال: ليس بمنزلة الطّيب ولكنّه زينة، وقد كره الزّينة عطاء للمحرم، وقد احتجّ غير واحد من فقهاء الحديث كابن جرير وقال العقيلي : لا يصحّ في هذا المتن شيء، {لخبر بريدة مرفوعا (سيد إدام الدنيا والآخرة اللحم، وفيه وسيّد الشّراب في الدّنيا والآخرة الماء ، وسيّد الرّياحين في الدّنيا والآخرة الفاغية وهو الحنّاء)، رواه ابن شاذان بإسناده»[101] .

وفي حديث آخر« وعد أبو حنيفة الدينوري في النّبات: الحنّاء من أنواع الطّيب، وعند البيهقي في المعرفة بسند ضعيف عن خولة بنت حكيم، عن أمّها مرفوعا : لا تطيّبي وأنت محرمة، ولا تمسّي الحنّاء فإنّه طيب»[102].

و ترى نساء كثيرات، أنّ في تعبيرهنّ عن فرحهنّ بقبولهن في قائمة الحجيج، لابدّ من وضع الحنّاء باعتبارها نبتة النبيّ. تقول الحاجة هناني *«عندما علمت بقبولي في قائمة الحجيج وكتعبير عن فرحتي قمت بوضع الحنّاء. و منذ عودتي من البقاع المقدسة أضحت لا تفارق يدي ولو اكتفي بالقليل للبركة».

أمّا بعد الرّجوع من الحجّ، فإنّ الحنّاء أو 'حنّة الحجّ' تكون في طليعة المقتنيات التي قام الحاجّ باقتنائها للعائلة والأقرباء والأصدقاء. فهي من أهمّ الأنواع التّي يمكن استعمالها والتبرّك بها نظرا

---

[100]- **القرآن الكريم**، سورة آل عمران الآية 97.

[101]- محمد بن مفلح بن محمد المقدسي، **الفروع**، الجزء الثالث، عالم الكتب ط 4 1985، ص 456.

[102]- أحمد بن علي محمد الكناني العسقلاني، **التلخيص الحبير في تخريج أحاديث الرافعي الكبير** الجزء الثاني، مؤسسة قرطبة ط 1 1995 ص 538.

* الحاجة هناني البحري 74 سنة أصيلة منطقة رأس الزبيب.

لمصدرها وقدسيّته من النّاحية الدّينيّة. وكما تقول الحاجّة زهرة* « تكون حنّة الحجّ منتظرة من قبل الجميع - ما خِيرشْ من حاجِت بيتْ ربّي - فهي للبركة. وتوزّع على الحاضرات إلى جانب البخور والتّمر وماء زمزم».

ومن المعتقد في الجانب النّسائي أنّ حنّة الحجّ - تُقوّي سعِد لِبْنيّة - أي تُسرع بزواجها. وذلك بخلطها مع الماء، ووضع القليل إمّا على فروة الرّأس أو وسط الكف، كما تُستعمل في معالجة بعض الأمراض كأوجاع الرّأس والتقرّحات...

و أمّا المرأة الحاجّة وبعد أن تُتّم القيام بمناسك الحجّ، فإنّها تعمد إلى وضع الحنّاء بيديها وقدميها. وإن هي لم تتمكّن من ذلك في البقاع المقدّسة، فتكون التّحنية بعد العودة، لتشاركها فيها نساء العائلة وبناتهنّ. وفي كلّ الأحوال فإنّ وضعها على الجسد يتطلّب احترام مصدر مأتاها القدسي، وذلك بوجوب البسملة وعقد النيّة مهما كان الغرض من استعمالها.

2. الاحتفالات الدينيّة:

أ- عيد الفطر :

يُعتبر عيد الفطر حدثا دينيّا هامّا لدى المسلمين، ويُحتفل به في الأوّل من شهر شوّال من كلّ عام. كما أطلقت عليه تسمية عيد الفطر لأنّه خاتمة شهر رمضان. وهو أوّل يومٍ يَفطرُ فيه المسلمون بعد شهر الصّيام، ويعرف بلهجتنا التونسية بالعيد الصغير ويرجّح الشادلي بن عبد الله هاته التسمية « إمّا لأنّه يسبق العيد الكبير الذّي يمثّل ذكرى تضحية سيدنا إبراهيم أو لأنّه احتفال يُمَجد فيه الصّغار»[103]. ويتّسم هذا اليوم بالفرح والبهجة داخل الأوساط العائليّة ليتّخذ بعدا احتفاليّا بامتياز قد يتواصل لثلاثة أيّام يتبادل فيها التّهاني بترديد عيد مبروك سنين دايمة وربّي يحيينا لأمثاله...

و تحرص النّساء لاستقبال عيد الفطر على القيام بتحضيرات خاصّة لهذه المناسبة. فبعد انقضاء النّصف الأوّل من شهر رمضان، يكون الحديث عن شراء الملابس الجديدة للأطفال وتحضير الحلويات والتّهيئة لاستقبال العيد. وقد لا يختلف الاحتفال بجهة بنزرت عن باقي جهات البلاد التونسيّة طبعا من ناحية العوائد المتّبعة أو التّحضيرات بصفة عامّة، ولكن قد تتّخذ الحنّاء، باعتبارها إحدى المستلزمات التّي ترى العديد من النسوة في حضورها أمرا لا غنى عنه، طابعا خاصّا تختلف طقوسه من عائلة إلى أخرى أو من منطقة إلى غيرها .

---

* الحاجة زهرة 63 سنة من مدينة بنزرت.

103- Chadly Ben Abdallah: *Fêtes religieuses et rythmes de Tunisie*, J.P.S. Editions 1988 p89

فحنّة العيد لها ميزتها الخاصّة بغار الملح كما تقرّ بذلك السيّدة بيّة* بقولها« تُشترى الحنّاء قبل حلول العيد بيومين أو ثلاث. ومن ثمّة يكون الاتّفاق بين النّساء سواء من القريبات أو الجارات، عن منزل إحداهنّ الذّي ستتم به سهريّة العيد وعجن الحناء ليتقاسمنها هنّ وصغارهنّ. وتستمرّ عمليّة التّحنية حتّى بزوغ الفجر في أحيان كثيرة، في جوّ يمتزج فيه الحديث بالفكاهة وتناول الحلويات المتبادلة بينهنّ».

كما لم يكن يمضي عيد من دون أن نتزيّن بالحنّاء. فلا زلت أذكر جيّدا حرص والدتي على اقتناء مسحوق هذه النّبتة قبل أيّام وتحنيتنا بها أنا وأخواتي البنات ليلة العيد. وكنّا لا نمل الانتظار لتتحنّى الواحدة تلو الأخرى.كما لم أنسى قطّ ولعنا الشّديد بها والتّفاخر فيما بيننا في الغد عن من تكون رسوماتها الأجمل ولونها الأدكن . كما لم تغب عن مخيّلتي صورة جدّتي وحرصها على وضع الحنّاء بمفردها. فتمرّر العجينة بمهارة ودقّة في باطن قدميها ليتّضح الشّكل بعد الانتهاء كخفين أخضرا اللّون. ولم تكن هاته الممارسة لتخصّ عائلتي، وإنّما هي مجرّد نموذج للعديد من العائلات بقرية الماتلين أو مناطق أخرى من جهة بنزرت إن لم نقل كلّها.

وهو ما نلتمسه في جهة ماطر" فعادة ما تحرص الأمّهات على عجن الكميّة الكافية من الحناء ليلة العيد أو الليلة التي تسبقها. وتهيّئ قطعا من الملابس القديمة أو أن تخيط من قبل قفّازات أو أكياس صغيرة لتوضع بها الأيادي والأقدام بعد التّحنية. و تجتمع الأطفال حول الجدّة أو الأمّ اللتان تقومان بوضع الحنّاء على أيدي الصّغار من الإناث والذكور الذّين لم يختنون بعد. وتربط بقطع القماش ويطلب منهم إبقاؤها موثوقة حتّى الصّباح لتزال القشور وتتّضح الصّبغة تُجمّل الأكفّ والأقدام ليمتزج فرح الأطفال بين اللّباس الجديد ورسوم الحنّاء. ويتردّد اللفظ 'صَحّه الحنه' بين النساء والأطفال»**.

وقد يصل وضع الحنّاء في مناسبة العيد إلى الوجوب، إذا تعلّق الأمر بامرأة حديثة الزّواج أو لم يمرّ على زواجها السّنة 'مازالت عْرُوسة لازمها تِتْزيّن'. عبارة تتردّد كثيرا في الأوساط النسائيّة بالجهة. خصوصا وأنّ لفظ العروس مقترن بالتزيّن بالحنّاء في نظر الكثيرات منهنّ. وقد يصل الأمر في التّشكيك بمدى سعادتها الزّوجيّة إن هي تغاضت عن ذلك. إذ كثيرا ما تحثّ الأمّ - أو الحماة في بعض الأحيان- ابنتها حديثة الزّواج على وضع الحنّاء في هذه المناسبة بقولها 'ما تْخَلّيش يِدِّك بِيضَه مُوشْ مْلِيح' ولعلّها تقصد بمعنى أصح ضعي الحنّاء حتّى لا يُفهم على أنّك غير موفّقة في زواجك.

---

* السيدة بيّة بلانكو 49 سنة ربة بيت.

** أفادتنا به السيدة منيرة الطرابلسي 57 سنة من مدينة ماطر.

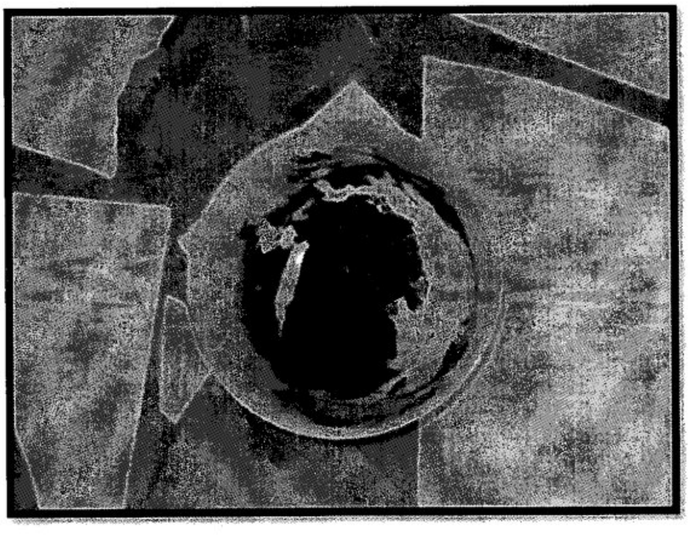
ب- عيد الأضحى:

عيد الأضحى أو العيد الكبير، هو عيد النّحر ويرتبط أساساً بشعائر الحجّ. ويبدأ في « اليوم العاشر من شهر ذي الحجة، آخر شهر في السّنة الهجرية وثالث أربعة أشهر مقدّسة وهي شوّال ذو القعدة ذو الحجّة ومحرم»[104]، ويرمز عيد الأضحى في الذّاكرة الشّعبيّة إلى المناسبات الاحتفاليّة الّتي تجسّد رمزيّة التّضحية، فهو مناسبة يتذكّر فيه الإنسان قصّة سيدنا إبراهيم الذّي أوشك أن يذبح ابنه إسماعيل تلبية لطلب الله تعالى والذّي افتدى إسماعيل بكبش عظيم. وفي ذلك تحرير للبشريّة من التقرّب للأله عن طريق ذبح البشر.كما سمّي عيد الأضحى لارتباطه بالأضحية.. والأضحية من التّضحية وجمعها أضاحي وأضحيات. وتعتبر أضحية العيد الدّعامة الرئيسية للاحتفال بعاشر ذي الحجّة.

و إن اقتصر وضع الحنّاء في عيد الفطر على أجساد النّساء والأطفال، فإنّه يتجاوز ذلك في عيد الأضحى لينال كبش العيد أو 'الضّحية' القليل من الحنّاء. ليكون امّا قبل يوم العيد بيوم وهو ما يسمّى بـ' نهار الوقفة ' أو صبيحة العيد. حيث تعمد الأمّ أو الجدّة بعد اشعال الكانون ووضع البخور، إلى عجن كميّة من الحنّاء لطلي مقدّمة رأس الكبش ويتّم التحنّي بالمتبقيّة. و كثيرا ما تكتفي الفتيات والنّساء بوضع القليل وسط الكف لتكون في شكل دائري. و في السّوال عن الغاية من فعلها يقال بأنّها للبركة و لقبول الضّحية.

و قد تراجعت هاته العادة إن لم نقل اندثرت تماما في العديد من الأوساط العائليّة بجهة بنزرت إلا أنّها لاتزال ببعض القرى واقتصرت على الجدّات دون غيرهنّ.

حنّة العلوش



صورة رقم 46: صحفة حنة العلوش

[104] Chadly Ben Abdallah : *Fêtes religieuses et rythmes de Tunisie*, Op. cit. p 109.



صورة رقم47: تلطيخ جبهة الكبش بالحناء



صورة رقم 48: ظهور اللّون الصّبغي الحنائي

كما تستغلّ العديد من النّسوة المناسبات الدينيّة وخصوصا الأعياد، لزيارة ولي صالح ليحملن معهنّ الحنّاء. فيلطّخ القليل منها على جدار الزّاوية ويتحنّى بالمتبقيّة بعد العودة إلى البيت باعتبارها حنّاء عيد تحمل بركة الولي.

ج- المولد النبوي :

يمثّل المولد النبوى الشريف 'لُمُولد' إحياء ذكرى ميلاد الرّسول محمد (ص). وذلك فى الثانى عشر من ربيع الأوّل هجريّا. ويحتفل به المسلمون ليس باعتباره عيدا فحسب بل فرحا بمولد النبى.

وليس هناك ما يميّز جهة بنزرت في احتفالها عن بقيّة الجهات بالبلاد. إلا أنّ حضور الحنّاء يسجّل بقوة في الليلة التّي تسبق يوم المولد لتزيّن أكفّ الصغيرات. وبتعبير فندرهيدن « في الاحتفال بمولد سيدنا محمّد توضع الحنّاء للأطفال وخصوصا البنات».[105]

فترى في صبيحة المولد _خصوصا بتلك المناطق التّي لطابعها القروي الدّور الاكبر في استمراريّة تقليد ما كما هو شأن الحنّاء لنخصّ بالذّكر العالية والماتلين وعوسجة..._ أكفهنّ وأقدامهنّ بذاك الصبغ الحنائي. وهنّ يحملن صحاف 'عصيدة الزّقوقو' (تعدّ بالأساس من نبتة الصنوبر ويضاف لها الطحين والسكر) إمّا للجامع أو الأقرباء أو الجيران وذلك في حركة تبادليّة بين هذا وذاك.

---

[105]- Vonderheyden M. *Le henné chez les musulmans de l'Afrique du Nord*. Op. cit. pp. 35-61. p 48

أمّا النّساء كبيرات السّن، فهنّ لا يتخلّين عن أمرين اثنين: 'العصيدة البيضة' أو 'العصيدة العربي' (وهي عبارة عن سميد وماء وقليل من الملح تُطبخ على نار هادئة وتُمزج بعد إعدادها بزيت الزّيتون والسكّر أو بالسّمن والعسل أو الزبدة). والحنّاء التّي توضع سواء في شعورهنّ أو أيديهنّ وأقدامهنّ.

وترى كثيرات منهنّ أنّ 'حنّة المُولد' أمر لا غنى عنه، كما هو شأن جدّتي التّي تعتبرها نبتة الرّسول ووضعها في ذكرى مولده يعكس المحبّة له.

د- العاشوراء:

عاشوراء(العاشُوره أو العَيْشوره) هو اليوم العاشر من شهر محرّم في التقويم الهجري. ويسمّى عند المسلمين بيوم عاشوراء هو اليوم الذّي قُتل فيه الحسين بن علي حفيد النّبي محمّد في معركة كربلاء[106]. يعتبره الشّيعة الإماميّة يوم عزاء وحزن. ويعتقد أهل السّنة والجماعة بوقوع مناسبات أخرى في نفس اليوم، مثل اليوم الذّي نجى الله فيه موسى وقومه من آل فرعون.

و شأن كلّ المناسبات الدّينية، فإنّ هذا اليوم لم يغب عن التّقاليد التّونسية التّي تتجلّى من خلال عدّة ممارسات تُقترن باقتران الفكر الجماعي. وما يميّز جهة بنزرت في هذه المناسبة، هو الجمع بين يومين اثنين، اليوم الأسبق وهو ما يسمّى 'التّاسوعة' أي اليوم التّاسع، وتكون فيه عادات خاصّة كذبح الدّجاج وتحضير 'حمص العاشوره' وهو عبارة عن قلي الحمص والفول في 'الطاجين العربي' أو' لُغنّاي' مع إضافة الزّبيب والحلوى، ليتمّ توزيعه على الأطفال في اليوم التّالي. والذّي يتّخذ بدوره عادات أخرى، من أهمّها أن تحرص النّساء على الاكتحال هنّ وبناتهنّ، ويحرّمن فيه وضع الحنّاء 'موش مليح تِتْحط فيه الحنّة'. وهو ما ذهبت إليه عزيزة بن طنفوس « ما عدى عاشوراء بحيث يمنع منعا باتّا وضع الحنّاء باعتبارها تمثّل ذكرى حداد»[107].

ولا يُفهم في الحقيقة، التّناقض بين هذا وذاك أي بين وجوب الاكتحال والامتناع عن التحنية، خصوصا وأنّ المناسبة تُعدّ ضمن الحداد باعتبارها ذكرى موت، وكليهما يمثّلان زينة. غير أنّ ما تذهب إليه النّساء كبيرات السنّ أنّ ' كحل العاشورة ' يحمي العينين من المرض أو أيّ خطر طيلة سنة كاملة. وتبقى الدّوافع الحقيقيّة وراء هاته الممارسة رهينة تصوّر جماعي.

ويمكن القول إجمالا أنّ عادة وضع الحنّاء في الأعياد والمناسبات الدينيّة لم تحافظ على حجم الاستعمال التّي كانت عليه في السّابق ولكنّ ذلك لم ينفي استمراريّتها كموروث لا غنى عنه .فهي لا

---

[106]- Chadly Ben Abdallah : *Fêtes religieuses et rythmes de Tunisie*, Op. cit. p 41.

[107]- Aziza Ben Tanfous : *Le maquillage traditionnel* ,cahiers des arts et traditions populaires,revue du centre des arts et traditions populaires n°6 , Ministères des Affaires Culturelles Tunis 1977 p41.

تزال قائمة ببصمتها التقليديّة لدى عائلات عدّة بالجهة تحديدا بتلك المناطق التّي تتميّز بطابعها القروي أو الرّيفي كمختلف مناطق السّاحل البنزرتي وماطر وبازينة... وهو ما تؤكّده السّيدة عائدة* بقولها «أحرص في كلّ مناسبة دينيّة أو عائليّة خصوصا الاعياد و حفلات الزّواج على وضع الحنّاء لي ولبناتي، حيث أجتمع وأخواتي وأطفالهن فنقوم بتحضير العجينة وتشرع كلّ منّا بعد البسملة في التّحنية حسب مهارتها وسط جوّ عائليّ احتفالي».

3. الموت

أ- الحنّاء والميّت:

يمثّل الموت شطبا نهائيّا لحياة الفرد وهو الشّاغل الأوّل في الفكر البشري منذ الأزل وكثيرا ما كان ولا يزال هذا الحدث محلّ حيرة ورهبة في محاولة للفهم بين الوجود والفناء. الشيء الذي ولّد معتقدات وطقوسا مختلفة باختلاف الإنتماءات الفكريّة والحضاريّة والعقائديّة الدينيّة. و من بين الاعتقادات القديمة فكرة استمراريّة الحياة ما بعد الموت، لذلك فقد أولت العديد من الشعوب عناية خاصّة بجسد الميّت وطريقة دفنه. ويذهب كامبس في هذا الإطار« إلى أنّ الميّت إنّما كان يدفن على جنبه ثمّ تتّم إمالته أو ضمّه. وقبل ذلك فإنّه غالبا ما كان ينزع اللّحم عن العظم وعادة تغطّى العظام واللّحم بتراب أحمر يعتقد أنّه يعيد الحياة الى الجثّة. ويتمّ تزويده بالطّعام كما توضع التّمائم لحمايته في الحياة الأخرى»[108] ولعلّ في التّحنيط الفرعوني للمحافظة على جسد الميت إنّما هو تجسيد لمعنى الخلود والعودة للحياة من جديد.

وقد ولّد ظهور الأديان السّماوية مفاهيم جديدة حول الحياة والموت. ليتّخذ بذلك هذا الأمر الحتميّ في حياة الإنسان لدى العديد من الشّعوب منحى يحكمه المعتقد الدّيني؛ فما الحياة سوى تمهيد اللأخرة والوجود الدنيوي هو سعي ومثابرة لنيل الجنّة وذلك حسب الدّين الإسلامي .

" فالإسلام قد وضع معجما جديدا للموت مثل الوفاة، اللّحاق بالرّفيق، لقاء الله، الرجوع إلى الله، إجابة الله، الجود بالنفس إلى الله... وهي مصطلحات تهدف إلى استئناس الموت بإزالة المعاني المخيفة وتعويضها بمعاني مطمئنة لا نعثر فيها على استعمال مباشر لكلمة الموت كما تعطي تصوّرا يؤكّد على الصّلة المتينة بين الموت والله[109] .

---

* عائدة مروان 38 سنة، عاملة بشركة،من مدينة راس الجبل.

[108]- محمد بيومي مهران، **المغرب القديم مصر والشرق الأدنى القديم** (9) دار المعرفة الجامعية 1990 ص206.

[109]- نور الدين بن قنديل، **الموت وتقاليده في بعض المدن الأندلسية طبربة نموذجا**، بحث لنيل شهادة الدراسات المعمقة في التراث، جامعة تونس الاولى كلية العلوم الانسانية والاجتماعية تونس 2004/2003 ص34.

ومن ثمة، فإن ملاقاة الميّت بربّه يتطلب تحضيرات، تمكنّه من الخروج نهائيّا من العالم البشري والدّخول في العالم القدسي. وهذه المرحلة تستوجب القيام بمجموعة من الطقوس تتناغم مع النّسق الدّيني والتّي يمكن تصنيفها إلى طقوس تقام لفائدة الجسم مثل التّغسيل والتّكفين وأخرى لفائدة الرّوح مثل تلقين الشهادة.

و أمّا تغسيل الميّت فالغاية منها تطهير الجسد من النّجاسة. ويكون عادة بالماء الدافئ وقطعة من القماش الرّطب.« يغسل الميّت حسب قواعد تشبه من حيث الشّكل الاغتسال من الجنابة. كما يستعمل على جسم الميّت إلى جانب الماء، السدر والحنوط مثل المسك والعنبر والكافور».[110]

لم تغب الحنّاء رغم ما تحمله من معاني الفرح في المعتقد الشعبي، عن حدث الموت وما يمثله من حزن. لكنّها وعلى العكس فقد جمعت في الآن نفسه بين هذين النقيضين لترافق الميّت مثواه الأخير من ناحية وتحرّم على المقرّبين منه لفترة من الزّمن من ناحية ثانية. فهي من المواد التّي توضع أثناء التّكفين لكلا الجنسين وتقريبا بنفس الكيفيّة. باعتبارها « تحضر في الفكر الإسلامي كرمز للفرح والسعادة. فهي توضع للتعبيرعن الفرح والميّت يكون سعيدا بملاقاة ربّه والحصول على مكان بالجنّة أين تنمو هذه النّبتة»[111].

فبعد أن تتمّ عمليّة غسل الجسد ووضع الكفن، تكون مرحلة التطيّب. وذلك بدءا من الحنّاء حيث تخلط بالماء مع التأكيد على خلط كامل الكميّة المشتريات، أو الاحتفاظ بالقليل إن كانت المتوفيّة فتاة. ومن ثمّ تلطّخ بها الكفّين وباطن القدمين بعد البسملة مع ترديد ' نشاالله للجنة '. ويتمّ لفّها بالقطن مع وضع القليل في فروة الرّأس.

كما يمكن أن توضع بمناطق مختلفة من جسد الميّت إن كان به وشوم لأنّه يعدّ من المحرّمات لاعتباره تغييرا لخلق الله. وبما أنّه غير قابل للإزالة من الجلد فيكون الدّور للحنّاء بستره أو إخفاءه ولو بشكل رمزي « ومن بين الإشكاليّات المطروحة في مستوى التّطهر طريقة التّعامل مع الوشم. حيث يعتبره البعض تغييرا للخلق الأوّل، وباعتباره غير قابل للإزالة فيتمّ إزالته بشكل رمزي من خلال تغطيته بالحنّة»[112] . ويتمّ ذلك بوضع كميّة من العجينة فوق الرّسم، مع الحرص على إخفاءه جيّدا وترديد "ربّي اغفر له(لها)"*.

---

[110]- نفس المصدر السابق ص 41.

[111]- Aziza ben Tanfous, «*Le maquillage traditionnel* », Op. cit. p.41.

[112]- نور الدين بن قنديل، **الموت وتقاليده في بعض المدن الأندلسية طبربة نموذجا**، م.س، ص 140.

* افادنا به السيد محمد بلحاج 62 سنة ، معلم متقاعد وامام جامع قرية راس الزبيب

ولا يقتصر وضع الحنّاء على عمليّة التّكفين فقط إذا كانت المتوفاة فتاة، وإنّما تنثر فوقها بعد وضعها في القبر. كما « تخصّص الحنّاء إمّا لتغطية وُشوم الميّت أو لتُرش في القبر إذا كان المتوفّي امرأة وخصوصا إذا كانت فتاة.»[113] وفي السّؤال عن السّبب انحصرت الإجابة على كونها توفيّت عزباء ولم تحضى بحفل زفاف.

ب- الحداد:

في مفهوم الحداد هو الحزن على المتوفّي والإبتعاد عن كل ما يمت للفرح بصلة. و لكنّه لا يقتصر على الأفراد المقرّبين من نفس العائلة، بل من الممكن أن يتجاوزها إلى الأقرباء وحتّى الجيران في أحيان كثيرة. و يكون ذلك لفترة تمتدّ إلى ثلاثة أيّام، كما من الممكن أن تستمرّ إلى أربعين يوما أو أكثر. وذلك بحسب صلة القرابة بين الميّت والشّخص الحادّ. وتجسّد مقولة جدّتي " الّي ما يِحْزِنِشْ على دَمُّه يْجِيه هَم أكبر من هَمه" إلزاميّة المشاركة الجماعيّة في مأساة الفرد أو الموت بمعنى أوضح. وذلك بالإبتعاد عن كلّ ما يخصّ الزّينة والاحتفال، لتكون الحنّاء في الطليعة باعتبارها رمزا للفرح في المعتقد الشعبي.

تبعا للقواعد الإسلاميّة، فإنّ المرأة التّي تفقد زوجها تعتدّ لمدّة أربعة أشهر وعشرة أيّام للتأكّد من الحمل أو عدمه. ومن الأحاديث في هذا الشّأن« (2286) أخبرنا محمد بن يوسف حدّثنا زائدة عن هشام بن حسّان عن حفصة بنت سيرين عن أمّ عطيّة عن النبيّ (صلّى الله عليه وسلم) قال: لا تَحِدّ المرأة فوق ثلاثة أيّام إلاّ على زوج فإنّها تحد عليه أربعة أشهر وعشرا. لا تلبس ثوبا مصبوغا إلا ثوب عصب ولا تكتحل ولا تمسّ طيبا إلا في أدنى طهرها إذا اغتسلت من محيضها نبذة من كست وأظفار»[114]. وتسمّى هذه الفترة "العدّة" تمنع المرأة خلالها من النّظر أو الالتقاء أو التحدّث إلى غير المحارم من الذكور البالغين، وكذلك من التزيّن.

وتظلّ زوجة المتوفّى بدون حنّاء إلى أن تكتمل مدّة عدّتها الشرعيّة، حينها تقوم بوضعها كدلالة على أنّها فارقت الحزن. ويقال ' فلانة طَيْرِتْ الحزن ' أي تخلت عنه أو تجاوزته وعادت إلى نسق الحياة العادية من جديد. وإن حدّدت للمرأة من النّاحية الدينيّة فترة زمنيّة للحداد إلا أنّ ذلك لا ينطبق عادة داخل الأوساط العائليّة بجهة بنزرت على اعتبار أنّ التّي يتوفّى عنها زوجها خصوصا تلك التّي لا تزال في مقتبل العمر تمنع من كلّ ما له صلة بالزّينة إلى حين إعادة زواجها مرّة ثانية . ففي المعتقد الشعبي زينة المرأة مقترنة لزوما بحضور الرّجل. خصوصا إذا تعلّق الأمر برسوم حنّاء على اليدين والقدمين.

113- M.Kerrou : *La mort au féminin*, Cahiers des arts et traditions populaires N°10, Ministère des Affaires Culturelles – Tunis 1990 p 37.

114- عبد الله بن عبد الرحمن الدرامي السمرقندي: **سنن الدرامي**، الجزء الثاني، دار الكتاب العربي 1987 ص221.

4. زيارة الأولياء الصالحين:

"الشَّايْ لله سيدي فلان وْقِف عْلِيّ البارح في المنام، لا زمني نهز شمعة وحنه وبخور ونمشي نزور" تلك هي مقولة جدّتي كلما همّت بزيارة وليّها الصّالح. شأنها شأن كل من دأبت على هاته العادة. ورؤية الولي في النّوم يستوجب من صاحبته الاستجابة لزيارته وعقد النّذُر. «النحبُ وهو ما يُنذره الإنسان، فيجعله على نفسه نَحْبًا واجبًا، جمعه نُذُر. وهي عادة قديمة متجذّرة في الحضارات القديمة بقيت رواسبها عند عرب الجاهليّة. وأقرّ الإسلام النُذر إلاّ أنّه حدّد معناه ومجال ممارسته وأضفى عليه طابعا إسلاميّا»[115].

و ولي صالح كما هو دالّ عليه اسمه، فهو بمثابة شخص حكيم مقرّب إلى الله لحسن خلقه وتمكّنه من تعاليم الدّين الإسلامي. « يكتسب الأولياء المغاربة مهارتهم من ممارسة دقيقة للعلوم الدينيّة، فهم على دراية بأصول الفقه ويحذقون جيّدا الآيات القرآنيّة والأحاديث»[116]. ليكون الولي في المتخيّل الشعبي ذاك الوسيط بين الإنسان وإلاهه.والأولياء الصالحين ببلدان المغرب شأن الصوفية بالمشرق والأندلس[117].

أمّا ظهور الأولياء الصّالحين في بلدان شمال إفريقيا فمردّه المرابطون. هي حركة دعويّة إصلاحيّة إسلاميّة، كان لها تأثير كبير في بلاد المغرب (1030-1151م).[118] أسّست أوّل دولة في منطقة المغرب الإسلامي بكامل المعنى، حيث كانت بلاد المغرب الكبير من قبل سوى نظام إمارات صغيرة ومبعثرة مبنيّة على أساس قبلي.

تحضر بجهة بنزرت العديد من الزوايا المنتشرة بكامل مناطقها دون استثناء وفي أحيان كثيرة نجد ببلدة أو قرية صغيرة من اثنين إلى ثلاثة زوايا أو حتّى أكثر. وسنأتي على ذكر البعض منها كسيدي البشير بمنطقة ماطر والعجولة برأس الجبل وسيدي علي المكي بغار الملح وزاوية سيدي بن سعيدان بسجنان.

وهناك العديد من الزّوايا التّي لا زالت إلى اليوم تستقطب الكثير من الزوّار إمّا بسبب الاعتقاد في بركاتهم وبالتّالي التقرّب منهم بالهدايا والذبائح أو بسبب التعوّد على زيارتهم ولكلّ جهة من جهات البلاد وليّ صالح على الأقل أو أولياء مرتبطون بتلك المنطقة أو الجهة. وزيارة ولي عند البعض هو بمثابة عادة لا يمكن التّغاضي عنها. لتصل العلاقة بين الولي وزائريه إلى نوع من الانتساب إليه في جملة الممارسات كما هو عادة الزواج على طريقة سيدي البشير.

---

[115]- صوفية السحيري بن حتيرة: **الجسد والمجتمع**، م.س، ص94.

[116] - Malek Chebel*: L'imaginaire arabo- musulman,* Presses universitaires de France ,1 janvier 1993, p 171.

[117] - Ibid p 170

[118] - Ibid

ويتجاوز الأمر حدود الزّيارة في أحيان كثيرة لتكون ما يعرف بالزّردة. و" الزّردة " في الموروث الثّقافي الشعبي التونسي هي وليمة تقام على شرف أحد الأولياء الصالحين في شكل تجمع احتفالي.وهو الموسم moussem على حدّ عبارة مالك شبل باعتباره يقام سنويا ويمثّل طقسا للتبرّع والتّضحية.[119]

ومن الضروري في الحديث عن ولي أن تختلط الخرافة مع الحقيقة، لتكتسب القصّة صبغة واقعيّة خياليّة في الآن نفسه، وتحكي عن مقدرات ذاتيّة خارقة لكل ضريح، الذّي يمكّنه من صنع المعجزات في مجال تخصص حدّد له أو حدّدته الخرافة له، لتصبح الأضرحة وبدون استثناء جزءا من طقوس التدين لدى الكثيرين ومجالا للتبرك وطلبا للشفاء. فتصبح تلك البركات اختصاصات حيث يتمّ التوسّل لسيدي فلان طمعا في الإنجاب وتجاوز حالات العقم، ويتمّ اللجوء إلى سيدي فلان من أجل الشفاء، في حين يعتبر سيدي فلان لغير المحظوظين في الحياة، وكذا هي الرّحلة مع الأولياء الصالحين.

وعمليّة التوسّل هذه تستوجب أداة تُقرب بين ما هو قدسي وما هو بشري. من ثمّة جاءت فكرة الحنّاء والبخور والشّموع. « فالمرأة التّي تذهب لزيارة مقرّ وليّ يمكن أن تضع الحنّاء أو أن تحمل معها القليل لتطبعه بجدار المقرّ»[120] لتمتزج الدّعوات عند تلطيخ الحنّاء على الحائط بين طلب الشّفاء والبخت وفكّ العين والتوسّل إلى الله باسم الوليّ لتحقيق أمر ما " يا ربّي بجاه سيدي فلان".

وفي محاولة معرفة سبب إقامة الطقوس والشّعائر تجيبنا الحاجة شادلية* وهي من الزوّار المواضبين على السيّدة لعجولة برأس الجبل بقولها:« إنّ الحنّاء من أجل البركة وكسب رضا الوليّ يحني بها الزائرون ليتحقّق مبتغاهم، أمّا الشّمعة فهي للوقاية من التّابعة والعين، والولائم التّي تقام في المقام من أجل الفقراء والمساكين وعابري السبيل» و تضيف «أحمل معي الحنّاء وقارورة ماء وإناء أقوم بعجنها في مقرّ الوليّ قرب الضّريح مع الدّعاء وعقد النيّة. ثم أغمس يدي وأقوم بتلطيخها على الحائط وذلك لغاية تحصين نفسي من كلّ شرّ وإبعاد الضرر عنّي وعن عائلتي وأمّا المتبقيّة فأحملها معي إلى البيت وأتحنّى بها. وتسمّى حنّة سيدي فلان وإلا للا فلانة.»

وقد تحضر جدران المقرّ في كثير من الأحيان كلوحة تراثيّة مشبعة بالرّموز والدّلالات وإن اختلفت الأيادي في رسمها فإنّ المادّة المجسّمة لتلك الأفكار المشتركة بين زوّار الوليّ أو زائراته بمعنى أوضح تبقى الحنّاء. لينتهي الأمر بأشكال لا تحصى ولا تعدّ انطلاقا من بصمات الأيادي والنّصوص المكتوبة والأحرف والأسماء إلى جانب جملة من الأشكال الهندسية التي تتكرّر هنا وهناك.

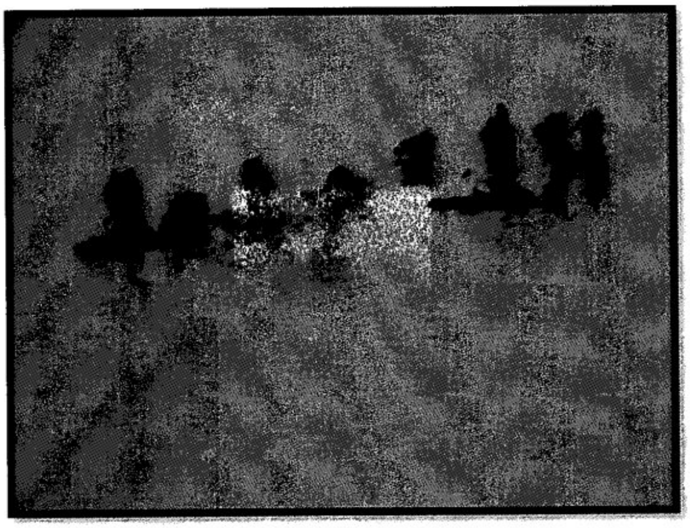
119- Malek Chebel *: l'imaginaire arabo- musulman,* Op. cit. p 172

120- Vonderheyden M. *Le henné chez les musulmans de l'Afrique du Nord.* Op. cit.. pp. 35-61.p 49.

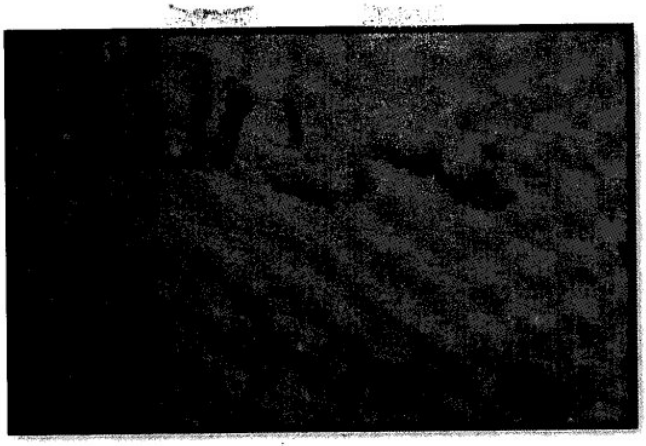
* الحاجة شادلية بوحديدة 75 سنة أصيلة مدينة رأس الجبل.

كما لا تنحصر الحنّاء في علاقتها بالوليّ الصالح في وجودها على الجدران فهناك من تقوم برشّها على الضريح وعلى عتبة باب الزّاوية مردّدة عبارة "سيدي فلان حنّ عليّ". وقد تتجاوزه لتمارس بشكل مغاير في مكان قدسي آخر ووليّ صالح آخر ولكنّه من دون مقرّ. بل يتجسّد في عين ماء دائمة الجريان هي ما تسمّى بـ'عين الشفا ' بمنطقة رأس زبيب وتمارس عندها نفس الطقوس التّي تخصّ الوليّ بإشعال الشموع وربط قطعة من القماش والشّرب من مائها. و الذّي يقال عنه بأنّه يخفّف من حدّة العديد من الأمراض الجلدية وإن عُجنت به حنّاء ووُضعت موضع الألم إلا وخفت حدّته. و لا تتردّد نساء كثيرات من هذه المنطقة إلى التبرّك بهذا الماء سواء اكتفين بغسل وجوههن وأيديهن أو حملن معهن القليل لتعجن به الحنّاء بعد عودتهن.وبين هذا وذاك يبقى الوليّ في اعتقاد الكثير وسيلة لا غنى عنها في تحقيق الأمنيات وطلب الشفاء وتحصين النفس.

أشكال كتابية :

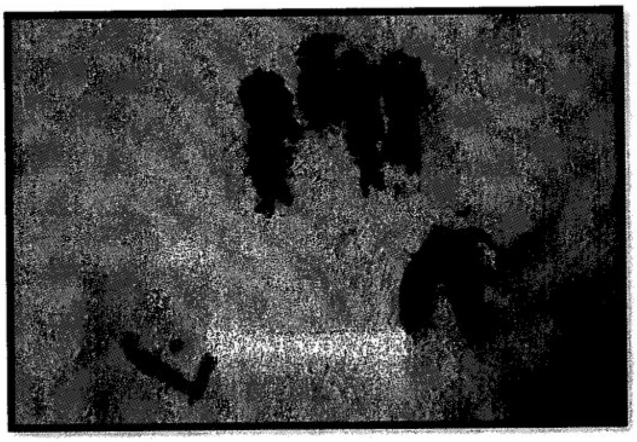


صورة رقم49: كتب بالحناء اسم الله ورسوله محمد / (زاوية سيدي بن سعيدان سجنان)



صورة رقم50: دعاء "يبرد الله وجهه " / (سيدي بوشوشة الماتلين)

أشكال هندسية :



صورة رقم51: الحرف V تتوسطه نقطة وآخر قاعدته إلى أعلى مع أربعة خطوط/(زاوية سيدي بن سعيدان سجنان)

شكل اليد أو الخمسة



صورة رقم52: شكل اليد " الخمسة " / (زاوية سيدي بوشوشة الماتلين)

الباب الرابع: المظهر الفني لممارسة الحنّاء

1. طرق الرّسم بالحناء:

في ظهور مفهوم الرّسم، أصبح الحديث عن مدى جماليّة الحنّاء وزينتها. ولم تعد تقتصر على كونها ممارسة فرديّة، بل أصبح فِعلها يتطلّب حضور شخص ثان يُتقن التّحنية وأشكالها. ولعلّ ذلك كان منطلق فكرة 'الحنّانة'، والّتي وكما يدلّ عليها اسمها، فهي المرأة الّتي تختصّ بشؤون الحنّاء ورسومها. كما لم يقتصر دورها في أغلب الأحيان على هذا الحدّ، وإنّما كان أشمل بكثير في علاقة بتهيئة العروس وتحضيرها جسديّا ونفسيّا طيلة أيّام الزّفاف. إلى أن أضحى وجودها في هذه المناسبة، أمرا حتميّا لا يقلّ شأنا عن الحنّاء نفسها « وتُعتبر الحنّانة المُهيّأة لهذا الاحتفال وسيّدة الطقس المُتّبع فهي الّتي تترأس مختلف مراحل العبور.»[121]

وقد تتجاوز مهمّتها تحضير العروس في أحيان كثيرة، لتكون 'مستادنية ' أي تقوم بدعوة الأهالي والأصدقاء لحضور حفل الزفاف وذلك قبل أيّام العرس بأسبوع أو أسبوعين.

ونتجاوز في الحديث عن الحنّانة والزّواج، لنتوجّه في البحث عن رسوم الحنّاء الّتي أضحت رمزا لزينة المرأة ومقياسا لإنتمائها الثّقافي التراثي بأشكال يتفنّن في رسمها وألوان لا يستهان بنضارتها. فدقّة الشّكل ونضارة اللّون، يلتقيان ليكوّنان معا حنّة مرضيّة أو هي موفّقة بالنّسبة لها. كما لم يكن الرّسم على الجسد بذاك المسحوق النباتي عفوياً أو عشوائياً بل هو شكل من أشكال التّعبير الذّي له أصوله وأدواته الخاصّة وقواعده المتعارف عليها داخل الأوساط الاجتماعيّة أو النسائيّة على وجه الخصوص.

ولكنّ شاغل المرأة برسوم الحنّاء لم يقتصر على جسدها الانثوي، وإنّما تجاوزه لنجده على الجدران، في أشكال قد تكون مختلفة عن تلك الّتي تزيّن بها يديها وقدميها. لكنّها ليست بمنأى عن ذاك الفكر التصوّري الاعتقاديّ الذّي أنتج فكرة الرّسم بذاك النّبات الصّبغي.

تختلف تسميات رسوم الحنّاء التّقليدية للجسد بجهة بنزرت، باختلاف الأشكال المرسومة وطرق رسمها أيضا. ولكن يمكن حصرها في ثلاث تسميات رئيسيّة متداولة بين مختلف مناطق الجهة، وهي 'حنّة سْوَالِفْ' أو 'حنّة عَرْبي'، و'حنّة شَبَكُوني' أو 'حنّة بالزُرِّيقه' ، و'حنّة شْرّاف' أو 'حنّة مْشَرْفة'.

تقول جدّتي « وما عرفنا من رسوم الحنّة في السّابق سوى 'الحنّة سْوَالف' ، فما كانت النّساء تهتمّ بزينة الحنّاء ونقشها كما هو اليوم، وكنّا نقتصرعلى تمرير العجينة بأيدينا. كما أذكر أنّ والدتي كانت تضعها على كامل الكفّ مثل القدمين. ومنذ زمن ليس بالبعيد ظهرت حنّة شُرّاف أو 'حنّة مْشرفَة'، وهي تلك الّتي تظهر في شكل خطّ منحني أو منكسر عن طريق السّبابة أو اللّصقة. وكذلك ' الشّبكوني ' أو ما تعرف بـ' حنّة بالزرّيقة '.

---

[121]- Alya Bayram « *Rites de passage et initiation dans le mariage traditionnel tunisois* », cahiers des arts et traditions populaires n°6. Ministère des affaires culturelles Tunis 1977 p5.

ومن خلال ما تقدّم فإنّ الطّريقة الأقدم في الرّسم بالحنّاء بجهة بنزرت، تتمثّل في الاستعمال المباشر من دون الاعتماد على أيّة أداة. بأن يُؤخذ القليل من العجينة بواسطة السبّابة، ويوضع بين الشّفتين لتتشكّل في شكل خيط سميك يُلصق مباشرة على الجلد. ومن ثمّة، يتمّ تثبيته بطريقة فنّية وبالسّبابة أيضا. وتتكرّر العمليّة نفسها إلى حين إتّمام التّحنية.

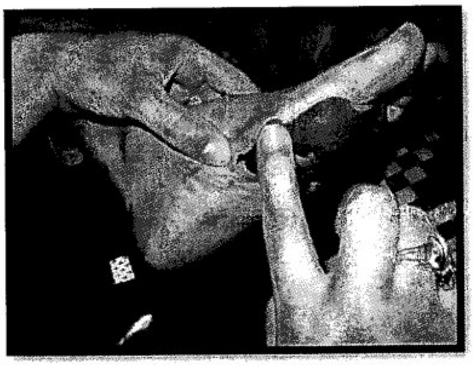
وتعتبر هذه الطّريقة الأسهل إذا اقتصرت التّحنية على شكل دائري وسط الكفّ مع وضع القليل على الأظافر. وهو ما تكتفي به غالبا بعض النساء كبيرات السنّ في بعض المناطق كالقرية وعوسجة وسجنان وبازينة.. أمّا إذا تعلّق الأمر بالحنّة سوالف فلابدّ من الدقّة في تحصيل الشّكل. ولكن يمكن القيام بذلك فرديا خصوصا من قبل النّساء اللاتي اعتدنا وضع الحنّاء باستمرار، دون الاعتماد على طرف ثان.

ويكون البدء في الحنّة سوالف من الأصابع تحديدا الأظافر، من ظهر اليد إلى أن تمتدّ إلى الكفّ. وأمّا القدمين فيتمّ تحديد شكل الجانبين في شكل خطّ مستقيم ومن ثمّ تغطى باطن القدم بالكامل.

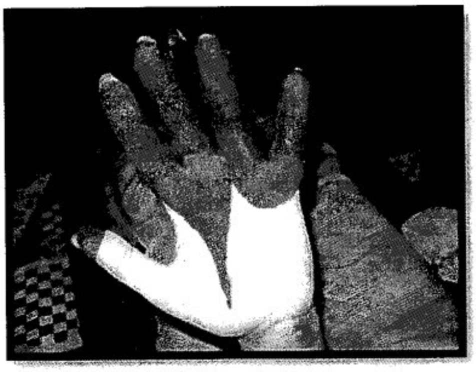
طريقة الحنة سوالف:



صورة رقم 53 : لليدين



صورة رقم 54 : للقدمين



صورة رقم55: الشكل النهائي للحنة سوالف

أمّا الطريقة الثّانية فهي بالاعتماد على الحقنة البلاستكية منزوعة الإبرة أو 'الزُرِّيقه' وتستعمل هذه الأداة عادة في ' الحنّة شبكوني' والتّي من الممكن أن يجمع رسمها بين السّبابة والحقنة.

فبعد تحضير العجينة والتّي من المحبّذ أن تكون طريّة نوعا ما ليسهل تعبئتها بالحقنة تبدأ عمليّة الرّسم والتّي تستوجب من راسمتها أن تكون متمكّنة ولها مهارة خاصّة للحصول على رسوم دقيقة متطابقة في كلا الكفين والقدمين.

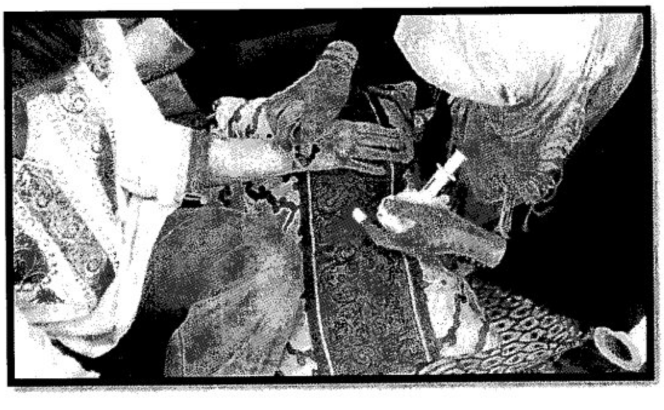
<u>طريقة الحنة شبكوني :</u>



صورة رقم56: بالاعتماد على الحقنة البلاستيكية



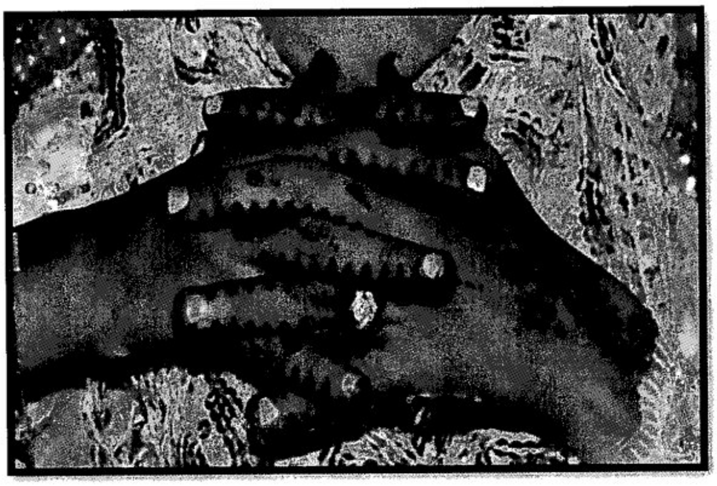
صورة رقم57: الرسم بالحقنة



صورة رقم 58: تثبيت الحناء بالسبابة

أمّا الطريقة الثّالثة فتتمثل في الاعتماد على شريط لاصق أو لصقة والتّي عادة ما تستعمل في المجال الطبّي. يتمّ قصّها بحسب الشّكل المراد عمله ولكنّها اقترنت في أغلب الأحيان، بالشّكل المنكسر والذي هو أساس الحنّة شُرّافْ. وذلك بقصّ شرائط لا يتجاوز عرضها الواحد صنتمتر وتشكيلها بخطّ منكسر. ثمّ تلصق بالجلد وتوضع فوقها الحنّاء لتصبغ مكان الفراغات فيما بعد.كما يمكن الاكتفاء بالسبابة فقط للحصول على رسوم الحنّة شُرّاف خصوصا إذا كانت في شكل خطّ منحني.

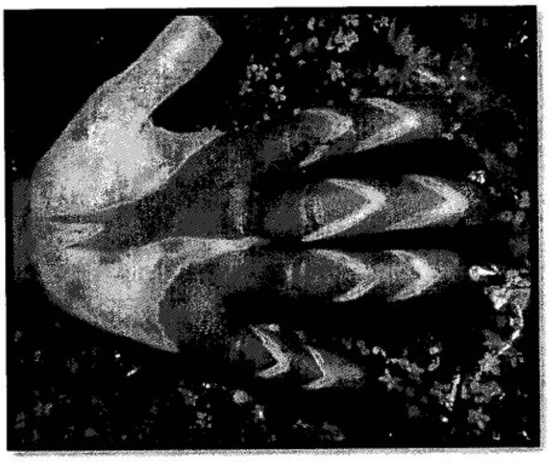
الحنة شُرّاف



صورة رقم 59 : الحنه شْرًافْ بظهر اليد



صورة رقم 60: سوالف مع تشريف



صورة رقم61: الشّكل النّهائي للرّسم

2. الأشكال المتّبعة:

وتعدّ ' الحنّة سوالف ' أو كما تسمّى أيضا 'حنّة عربي' في طليعة الأنواع المتّبعة والمتداولة في الأوساط النسائيّة. وهي الأكثر شيوعا خاصّة بين النساء كبيرات السّن، لتكون بذلك من أقدم أنواع الرّسم. وإن جاءت التّسمية نفسها في مختلف المناطق إلاّ أنّ هناك بعض الاختلافات من حيث الشّكل. فالحنّة سوالف لمدينة بنزرت وسواحلها، تتمثّل إمّا في تغطية مثلّث الكفّ لينتهي بذيل سمكة لتسمّى 'حنه سُوالِف' أو 'حنة بعبوص حوته'. أو في تغطية أصابع الكفّ مع نصف دائرة من جهة الخنصر والبنصر وشكل شبيه بالمثلث بجهة الوسطى والسّبابة. وأمّا ظهر اليد فيتّخذ شكل خطين ينطلقان من نقطة واحدة أسفل الظفر ليفترقان في آخر الأصبع ويتّضح الشّكل شبيها بحرف V قاعدته إلى أعلى Λ.

أمّا في منطقتي ماطر وسجنان والمناطق المجاورة لهما وإن تمّ الإبقاء على نفس الأشكال عموما إلا أنّه في أحيان كثيرة تكون هناك بعض الاختلافات إمّا من حيث توظيف الشّكل (كأن تعوض نصف الدائرة بمثلّث قائمته إلى أسفل أو أن توضع الحنّاء في شكل خطّ مائل على ظهر الأصابع وهو ما وجدناه خصوصا بمنطقة ماطر) أو الإنفراد برسم معيّن (كتكرار شكل المثلث وقاعدته في اتّجاهين مختلفين إمّا إلى الأعلى أو الأسفل أو أن يكونا مثلثين اثنين متداخلين وهو ما يغلب على رسوم التّحنية بمنطقة سجنان).

كما تغطّى باطن القدم بالكامل لتتضّح الحنّاء في الجانبين على شكل خط مستقيم وهي ما تعرف بـ" 'حنّة كياس 'بمعنى الطريق باللغة العربيّة ولعلّ أصل التّسمية يرجع للخطّ المرسوم الذّي يشبه الطريق في امتداده. وقد أجمعت كل مناطق جهة بنزرت على اتّباع هذا النّمط للقدمين في الحنّة سوالف. مع إضافة شكل المثلّث على ظهر الأصابع انطلاقا من الأظافر لتكون قاعدته للأسفل بمنطقة ماطر.

<u>الاختلافات بين المناطق من حيث الشكل للحنة سوالف</u>



صورة رقم 62: حنة سوالف لمنطقة الماتلين




صور رقم **64/63**: حنة سوالف بماطر



صورة رقم 65: :حنة سوالف بسجنان

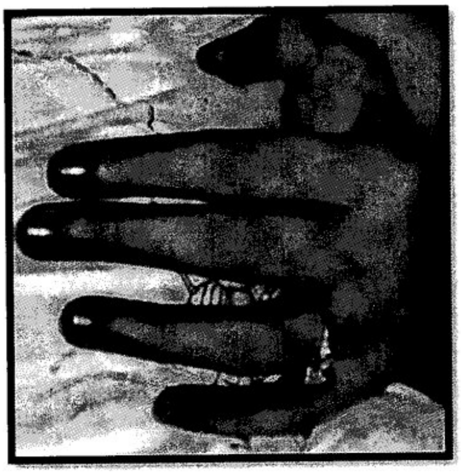


صورة رقم 66 : حنه كياس للقدمين

الاختلاف من حيث شكل ظهر اليد



صورة رقم 67 :خط مائل (ماطر)



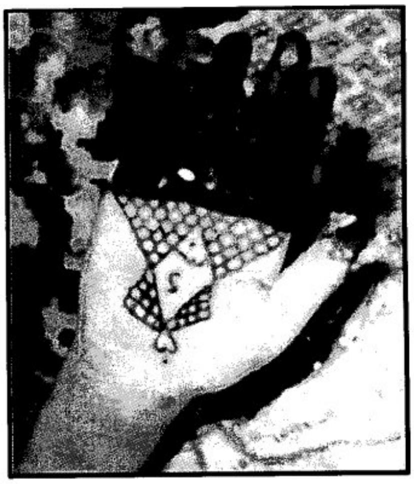
صورة رقم 68: في شكل الحرف V (العالية)

الحنّة 'شبكوني' أو ' الحنّة بالزُرّيقة' تلك التّي تُرسم بواسطة الحقنة. ولعلّ في اختيار هذه التّسمية تشبيه بالشّبكة من حيث الشّكل المتحصّل عليه. فهي عبارة عن خطوط متشابكة مشكّلة فراغات بالوسط. كما تذكّرنا الكلمة بـ'الشّبِيكَه' بغار الملح التّي تمثّل نوعا من الحياكة التقليديّة وتقوم هي الأخرى على نفس المبدأ.

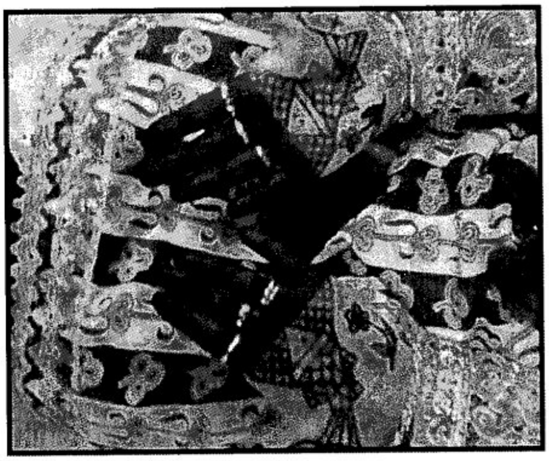
وتتطلّب رسوم ' الْحنّه شبكوني' من راسماتها الدّقة والمهارة. لينطلق الرّسم بشكل نصف دائري متلاصق ومتراكب، مكوّنا شكل المعيّن والذّي بتكراره تتّضح أشكالا هرميّة لتكون في الأخير عبارة عن مثلث. وتُعاد الكرّة مرارا في ظهر الأصابع والكفّ والجانبين للقدم. كما تضاف في كثير من الأحيان أشكال هندسيّة أخرى كالصّليب أو نباتيّة كالورود أو حيوانية كالسّمكة. لتختلف التّسميات أحيانا بحسب الشّكل المضاف كـ'حنة الحوته' وإن كانت التّقنية المتّبعة نفسها أو فكرة الرّسم هي ذاتها.

و'حنّة الحوتة' تكون ضمن الحنّة شبكوني على اعتبار أنّ الرّسم ينطلق من تقنية الشّبكوني لينتهي بصورة السّمكة التي تتوسّط الكفّ. والتّي تكون بدورها إمّا في شكل هندسي والمتمثّل في المعيّن. أو أن تتجسّد على شاكلتها الحقيقية وهو ما وجدناه بمدينة رفراف أو هي مختزلة وذلك بالاكتفاء برسم ذيلها وهو ما يسمّى بالجهة حنّة ' بعبوص حوته ' أو ' قرقوش الحوته'.

رسوم الحنة شبكوني :



صورة رقم69: العالية



صورة رقم70: رفراف

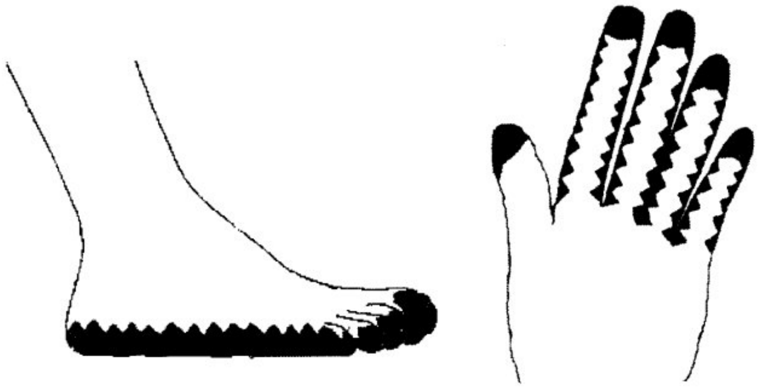


صورة رقم71: رأس الجبل

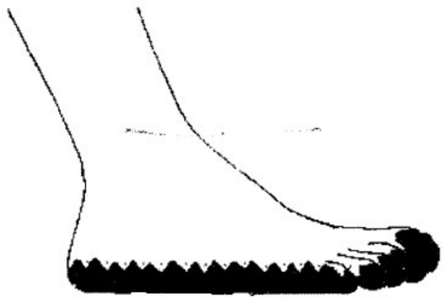


صورة رقم72: منزل بورقيبة

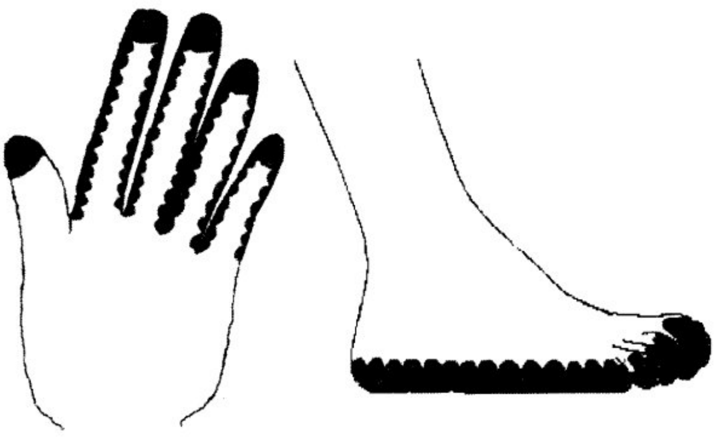
الحنّة شراف أو مشرفة وهي إمّا أنْ تكون في شكل خطّ منكسر أو منحني وتكون عادة في ظهر الأصابع بالنّسبة لليد وعلى الجانبين للقدم.



صورة رقم73: حنة شُراف بخط منكسر



صورة رقم74: حنة شُراف مُنَقْطه



صورة رقم 75: حنّة شُراف بخطّ منحني

من المؤكّد أن عادة الرّسم بالحنّاء، تطوّرت هي الأخرى مع مرور الزّمن. حيث كانت عبارة عن أشكال بسيطة أو هي منعدمة (ما يعرف بالخضاب)، فتطوّرت بأشكال مختلفة حتى صارت تستخدم لها وسائل حديثة. ليتجاوز الأمر في أحيان كثيرة، طرق السبّابة أو الحقنة أو قصّ الشّريط اللاصق حسب أشكال معيّنة، لتُباع على شاكلة رسوم جاهزة.

كما عرفت رسوم الحنّاء بجهة بنزرت مسارا مغايرا عمّا كانت عليه. و إن حافظت في أحيان كثيرة على فكرة الشّكل أو اسم الرّسم كمنطلق فقد محيت أشكال وعوّضتها أخرى حديثة ليتّضح الرّسم بين ثنائيتي التّقليدي والحديث. أو هي مُحدثة بمعنى أصحّ، كأن تبقى التّسمية نفسها 'شبكوني' مثلا رغم التّغيير الكلّي للأشكال التّقليدية. أو أن يحافظ على أداة الرّسم التقليديّة كالحقنة مع رسم أشكال دخيلة. أو أن يحافظ على الحنّة التقليدية ك'سوالف' باليدين و'كيّاس' في القدمين ويكون التّجديد في أشكال الحرقوص. أو أن يبقى الشّكل المعتاد مع إحداث تغييرات بسيطة إمّا بالزّيادة أو النّقصان. أو الاعتماد على أداة وأشكال جديدة لا تمتّ بأيّة صلة للحنّة التّقليدية بالجهة لا من حيث الشّكل ولا الطّريقة أو حتّى الحنّاء نفسها تكون مصنّعة جاهزة مباشرة للاستعمال .

فلم يعد يقتصر الرّسم على أشكال من التراث البنزرتي أو التونسي بصفة عامّة وإنّما أصبح التوجّه خاصّة نحو رسوم مستوردة أو هي دخيلة بمعنى أصحّ جاءت نتيجة ما أضحى عليه العالم اليوم من تمازج أو تصادم للثقافات. إذ نجد رسوما مغربيّة وأخرى هنديّة أو خليجيّة ولم تعد المرأة البنزرتية تبحث عن صورة السّمكة التي ستزيّن كفّيها وتحميها من العين الحاسدة. أو تلك الدقّة للحصول على حنة 'شبكوني'.

وكثيرا ما تستخدم نساء اليوم، الطوابع اللاصقة (les pochoirs) الجاهزة سواء للحنّاء أو الحرقوص. وهي عبارة عن أشرطة من البلاستيك، تكون بها فراغات تجسّد أشكال الرّسوم الّتي سيتّم الحصول عليها بعد تمرير عجينة الحنّة أو مادة الحرقوص. و ذلك بعد أن تُلصق مباشرة على الجلد. وتحتوي هذه الطوابع على أشكال مختلفة، يغلب عليها العنصر النباتيّ في معظمها من ورود وفروع. وتتوفّر عموما في نفس الأماكن التي تُباع فيها الحناء. كما أنّها غير مكلفة وسهلة الاستعمال مقارنة بالطرق التقليديّة.

و من الوسائل الحديثة أيضا، طريقة رسم الحناء بالأنبوب الجاهز. وهو عبارة عن عجينة حنّاء جاهزة للرسم مباشرة على الجلد. معبّأة في أنابيب بها قمع مثبت في الفوهة يسمح بمرور الخليط على

هيئة خطوط دقيقة. وحسب ما صرّحت لنا به الحنّانة فطيم*: «يمثّل هذا النّوع صيحة الموضة في عالم الحنّاء. مصدره بلدان الخليج ويقال أنّ مأتاه الأصلي بلاد الهند. يُسهّل كثيرا عمليّة رسم الأشكال، ولكنّ جودته قد تختلف باختلاف النّوعيّة المشترات».

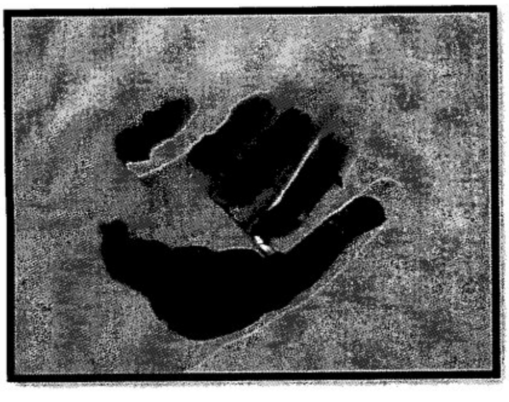
وأصبح من مهام حنّانة اليوم ابتكار أشكال جديدة ومتنوّعة من الرّسومات والنّقوش لجلب الزبونات وهو ما يمكن اعتباره نوع من التطوير المستمر لموضة الرّسم على الجسد. فلم تعد الرّسوم لصيقة التّراث وما تحمله من تصوّرات جماعيّة ضاربة في القدم وإنّما أضحت بسيطة المعاني أو هي تنمّ عن أفكار جديدة وليدة الحياة العصريّة.



صورة رقم76: الشريط اللاصق الجاهز للاستعمال



صورة رقم77: كيفية الاستعمال للقدمين



صورة رقم78: كيفية الاستعمال لليدين

* السيدة فطيم الطيّاشي 47 سنة، تعمل حنّانة، من مدينة بنزرت.

ورسوم الحنّاء بمجملها لم تقتصر على الجسد الأنثوي. وإنّما ظهرت بمواضع أخرى كالجدران. وإن كان رسمها لا يتطلّب تلك الدّقة التّي تُحضى بها التّحنية المخصّصة للزينة، فإنّه لابدّ من شكل ما يختلف هو الآخر باختلاف فكر راسمه. وتمثّل اليد الأداة الأولى للرّسم سواء بغمسها في الحنّاء وتلطيخها بالجدار أو الإعتماد على السّبابة في تحصيل الشكل. كما من الممكن أن تعمد المرأة في أحيان كثيرة إلى نفس الأدوات التّي ترسم بها على جسدها كالحقنة مثلا للقيام برسمها الجداري.

3. الألوان

من المعروف عن الحنّاء، أنّها تكسب الجلد لونا برتقاليّا إلى أحمر بني. ولكن قد لا تكتفي الكثيرات بهذا اللّون الطبيعيّ. إذ ما فتأت المرأة في أحيان كثيرة تتفنّن في المكوّنات التّي تضيفها سواء عند خلطها، أو أثناء وضعها، أو بعد إزالة القشور، أو حتّى بعد إعادتها لمرّتين أو ثلاث. خصوصا عندما يتعلّق الأمر بعروس، فلون حنّتها يعكس مدى سعادتها ونجاحها في حياتها الزوجيّة المستقبليّة، حسب المعتقدات التّي تسكن مخيّلة المرأة بجهة بنزرت. ولعلّ هذا المعتقد، هو من بين ما ولّد منطلق فكرة الصَّنَاجِرْ، التّي بوضعها لن يكون هناك أيّ مجال للشكّ، لا في مدى فعاليّة الحنّاء ولا في سعادة العروس الزوجيّة. أو لعلّ في ابتكار لون أسود للحنّة، ليس سوى تأييد لما جاء في الأحاديث الدّينية. من ذلك «أمّا الخضاب بالسّواد، فقد رخّص فيه للمرأة. وقد روى عنه عليه السّلام " أنّ أحسن ما غيّرتم به الشّيب، الحنّاء والكتم" لأنّ الصّبغ بهما يخرج بين السّواد والحُمرة»[122].

وعن طريقة تحضير الصّنَاجِر، تحدّثنا الخالة حبيبة*:« نشتري ما تُعرف بحجرة الصّناجر، وهي عبارة عن حجر أبيض اللّون، تُباع عادة عند بائع الحنّاء. تُهرس جيّدا بالمهراس، وتُمزج مع الفلفل الأكحل مرحي، وزيت الزّيتون، والجير العربي. وبذلك تكون خلطة جاهزة لتُدهن بها الحنّاء مباشرة بعد إزالة القُشور. تُترك لفترة لا تتجاوز النّصف ساعة ثمّ تُغسل بالماء، لتتّضح الصّبغة بعد وقت قصير سوداء اللّون. وعندما تبدأ الحنّاء في الزّوال يميل ذاك السّواد إلى الإخضرار».

قد تختلف هذه الطريقة عن مناطق أخرى من الجهة، لنجد الحنّانة فضّة** تحدّثنا عن طريقة إعداد الصّناجر بمنطقة سجنان بقولها :« تُهرس الصّناجر جيّدا، وتُضاف لمسحوق الحنّاء، يتمّ خلطهما بالماء للحصول على عجينة يُتحنى بها. وبعد إزالة القشور تدهن الحنّة بخليط من الزيت والثوم والبصل».

122– محمد عادل الخزنابي، **العناية بالشعر واللحية لدى الرجل في صدر الإسلام**، م.س، ص 32.

* حبيبة لفقير 61 سنة اصيلة قرية الماتلين

** فضة معلاوي 42 سنة من منطقة سجنان تعمل كحنانة

وبين هذا وذاك تبقى النّتيجة نفسها وهي الحصول على حنّاء سوداء اللّون أو ما تسمّى 'حِنّه مْصَنْجره'. ولكن هذا السواد لا يقتصر في أحيان كثيرة على الحنّاء فحسب، وإنّما يتماشى وما يعرف بالحرقوس ولونه الأسود أيضا.

وفي كلّ الحالات، فإنّه لا يمكن الحديث عن رسوم حنّاء بمنأى عن الحرقوص. خصوصا 'حنّة لعروسة' التّي لا تكتمل زينتها إلاّ بوُجُوب هذا الثّنائيّ. فـ ' النَقشَه ' - وهي التّسمية البديلة للحرقوس بجهة بنزرت- هي المتمّم لعمليّة التّحنية. وكما يدلّ عليه اسمها، فهي عبارة عن نقش للحنّاء بإضافة أشكال تتماشى والرّسم الحنّائيّ. حتّى تكتمل الزّينة وتتّضح الألوان غالبا كثنائيّة بين الأحمر القاتم والأسود.

فالحرقوس أو العود قرنفل على حدّ عبارة جوبر « هو علامة تستعمله النّساء من باب العادة، للرّسم على الوجه أو اليدين بأسلوب الذبابة المتمثّل في التّنقيط. ويتجسّد الرّسم في شكل حرفV مع نقطة من الأمام وأخرى تتوسّط الضّلعان. والخليط في حدّ ذاته عبارة عن دهان يوضع حارا ومن هناك أتى اسم الحرقوس.[123]

وعن طريقة صنعه تحدّثنا الحاجة آمنة* فتقول: « يجب أوّلا أن نحضّر المستلزمات والتّي تتمثّل في ' الكانون' و'الزليزيّة' (وهي عبارة عن أنية صغيرة ذات غطاء، مصنوعة من الفخار) والحديدة والعفص والعود قرنفل. نقوم أوّلا بتبليل الغطاء بقليل من الماء، ثمّ نحكّه جيّدا بالحديدة، ونعيد ذلك تكرارا حتّى نتحصّل على لون أحمر برتقاليّ. بعد ذلك، نضع العفص والعود قرنفل داخل 'الزليزية'، ونغطّيها بالغطاء الذّي قمنا بحكه. ونغلقها بإحكام بالاعتماد إمّا على قطعة قماش أو عجين، وذلك لمنع تسرّب الهواء داخلها. ثمّ نضعها فوق 'الكانون'، ونبلّل السّطح الخارجي للغطاء من فترة إلى أخرى بقليل من الماء إلى أن تنضج ونتحصل على سائل أو شبه سائل، اسود اللّون يكون ملتصقا بالغطاء. وتتمّ عمليّة النّقش عن طريق رأس إبرة، أو عود رقيق، أو أيّ أداة حادّة نوعا ما تمكّن من التّنقيط».

و إن اقتصر وضع الحرقوس اليوم، على اليدين والقدمين فإنّه قد خُصّص في السّابق، أساسا كأداة لتزيين الوجه. وعلى حدّ عبارة الصّادق المرزوقي « هو من مواد زينة الوجه ذات المكانة عند جلّ نساء القطر التونسي، يوشّحن به وجوههنّ وتتزايد توشيحاته في وجه المرأة بحسب ذوقها وحضريتها.[124]

ترجع هاته العادة في تزيين الوجه، لفترات سابقة. وهو ما جاء بوصفه ليون الإفريقي، على أنّها ممارسة تخصّ نساء الحضريّين وأشراف البلاد. « يستعملن في بعض الأحيان خضابا مصنوعا من عتن

---

[123]-Gober(E.G) : *Parfums et tatouages*, Edition Sahar 2003 p 159 Patrimoine ethnographique de la Tunisie p129

* الحاجة امنة 76 سنة كانت تمتهن حرفة الحنانة، من مدينة عوسجة

[124]– الصادق الرزقي: **الأغاني التونسية**، م.س، ص 179.

لوز العفصة والزعفران، ويرسمن به في وسط خدودهن زينة مستديرة تُشبه الدّينار، وبين الحاجبين شكلا مثلثا، وعلى الذّقن شبه ورقة الزيتون، وتخضّب به بعضهن الحواجب كاملة، يمدح الشّعراء العرب والأشراف هذه العادة ، وتراها النّساء أنيقة وجميلة، غير أنّهن لا يحتفضن بهذه الزّينة أكثر من يومين أو ثلاثة، لأنّهن لا يستطعن البروز إلى أقاربهن بتلك الحال، ولا يبدين زينتهن إلا لبعولتهن أو أبنائهن. ويفعلن ذلك ليكنّ أكثر جاذبيّة، متوهّمات أنّ تلك الزّينة تزيد كثيرا من جمالهنّ.»[125]

وشيئا فشيئا مُحيت فكرة الرّسم بالحرقوس على الوجه، إلاّ أنّ هناك البعض من النّسوة بجهة بنزرت (تحديدا بالعالية والماتلين) لم تستغنين عن تلك العادة. ولكنّهن تكتفين بنقطة واحدة وتسمّى 'النُكتَه' إمّا على الخدّ او فوق الشّفة العليا، وذلك في المناسبات الاحتفاليّة لا غير.

تمثّل النّقطة منطلق أشكال الحرقوس ليكون الرّسم « إمّا في شكل نقاط محيطة بالحنّاء أو في شكل مجموعة من النقاط مشكّلة ورود»[126] طبعا إلى جانب الحرف V مع نقطة من الأمام وأخرى تتوسّط الضلعان. وإن تطور النمط المتبع ليتجاوز التنقيط إلى الخطوط وأشكال أخرى نباتية بالأساس، إلا أنّه وفي كل الحالات يمثل نقشا زخرفيّا لرسوم حنّاء اليدين والقدمين.



صورة رقم79: طريقة الرسم بالحرقوس

[125]– الحسن بن محمد الوزان الفاسي المعروف بليون الإفريقي: **وصف افريقيا**، م.س، ص 65/64.

[126] - Aziza Ben Tanfous «*Le maquillage traditionnel* » Op. cit, p41.

رسوم الحرقوص :





صورة رقم 80: رسوم حرقوس على النمط التقليدي **صورة رقم 81:** رسوم حرقوس على النمط الحديث

وتفرض العادات والتقاليد بالجهة، بعض الضوابط فيما يتعلّق باختيار الشّكل واللّون، وذلك بحسب المناسبة والأشخاص. فالزّينة المبالغ فيها تخصّ العروس بدرجة أولى، ورسوم حنّتها تنفرد بها هي من دون كلّ الحاضرات. كما أنّ المرأة تختار نوع الرّسوم بحسب المناسبة، فإذا كانت في الأيّام العادية أي لاستعمال شخصي فحسب، فإنّها تكتفي غالبا بالحنّاء فقط والتّي تكون في أشكال بسيطة. أمّا إذا كانت لحضور مناسبة احتفاليّة، فإنّها تعمد إلى رسوم دقيقة تصاحبها نقوش الحرقوص. وقد تتجاوز في زينتها منطقتي الكفين والقدمين، إلى مناطق أخرى من الجسد كالكتف وأعلى الصدر.

هناك أيضا ضوابط يحكمها العامل السِّني في اختيار الرّسوم. فـ'الحنّه شَبَكُونِي' و'لحنّه شُرّاف' و'النّقْشه' فهي للنّساء صغيرات السّن (الشّابات)، ويعاب وضعها على النّساء كبيرات السّن (العجائز) لما تُمثّله من زينة. ليقتصر استعمالهنّ إمّا على 'لحنه سْوالِف' في أغلب الأحيان، أو الإكتفاء بشكل دائري وسط الكفّ، أو من دون أي شكل لغاية التّخضيب فقط. كما ينحصر تزيين الفتاة برسوم تكون بسيطة الأشكال في منطقتي الكفّ والقدم، ويقتصر ذلك عادة على مناسبات زواج الأقارب والأعياد. بمبرّر أنّه 'حْرام البنيه تتزيّن كيف لِمْرا ' بينما يحقّ للمرأة المتزوّجة وضع الحنّاء في كلّ الأوقات، وبكلّ أشكال الزّينة، شرط وجود زوجها.

الباب الخامس:

وظائف الحنّاء و دلالاتها

1. وظيفة دينيّة:

جاء استعمال الحنّاء في الدّين الإسلاميّ ، من باب الحثّ على الخضاب الذّي يوضع لغرض الزّينة والطّيب « وفي الكواكب 274/1 عن الوسايل عن الكيني والصّدوق بسندهما عن النبيّ ص قال: نفقة درهم في الخضاب أفضل من ألف درهم في سبيل الله. إنّ في الخضاب 14 خصلة: يطرد الرّيح من الأذنين، يجلو الغشاء من البصر، يليّن الخياشيم، يطيّب النّكهة، يشدّ اللّثة، يذهب النّسيان، يقلّ وسوسة الشيطان، تفرح به الملائكة، يستبشر به المؤمن، يغيظ به الكافر، هو زينة لصاحبه هو طيب..»[127]

فالحنّة في المعتقد الدّيني الاسلامي نبتة الجنّة التّي في استعمالها نيل للبركة في الحياة الدنيا والاخرة. علاوة على لونها الصّبغي الذّي كثيرا ما ارتبط بجوانب جماليّة تطهيريّة. وهو ما فسّر أهمّيتها والدّعوة إلى عدم تركها 98 « ومنهم أبو القاسم الزواوي رحمه الله تعالى« قال أبو العرب: سمع من مالك وروى عنه { حديثا } لم أعلمه رواه عنه غيره قال: حدّثنا مالك عن نافع عن ابن عمر قال: قال رسول الله (ص): لما خلق الله عزّ وجلّ الجنّة، حفّها بالرّيحان { وحفّ الرّيحان } بالحنّاء. وما خلق الله عزّ وجلّ شجرة، أحبّ إليه من الحنّاء. وإنّ الخاضب بالحنّاء لتصلّي عليه ملائكة الأرض إذا راح.»[128]

وعلى هذا الأساس، فإنّ نبتة الحنّاء ترتبط ارتباطا وثيقا في المعتقد الدينيّ، بتقوية الإيمان والطمع في كسب الجنّة.لتحضر بقوّة داخل المجتمعات العربيّة الاسلامية، من بينها مجتمعنا التونسي الذّي لم يخل بدوره عن اتّباعها كعادة متوارثة، وقد تجلّى ذلك في جملة من الأفعال والأقوال. ممّا جعلها لا تغيب حتّى عن الأغاني التراثيّة والتّي من بينها هذا المطلع: وهو معنى قديم يؤدّونه في طبع الأصبعين:

الحنّة بِنْت الجنّة   يا عِطر نَبَوي

إنْ شا الله نِمْشيوا للجنّة   في جُرّة غْزالي[129]

وليست جهة بنزرت سوى نموذج مصغّر عن استعمال الحنّاء كعادة لإتّباع سنّة النّبي محمّد (ص)، إذ كلّما كان السؤال عن الغاية من فعلها - خصوصا للنّساء كبيرات السّن – كلّما اقترنت الإجابة بالرّسول " وصّى بها سِيدنا النّبي، من سُنّة سيدنا محمّد(ص) مِالجَنّة، نبتة النّبي المختارة... إجابات اتّخذت بعدا دينيا صرفا لهذه الممارسة. جعل في حضورها أمرا حتميّا على كلّ مؤمن أو مؤمنة على وجه

---

[127]– الخطيب العدناني: **الملابس والزينة في الإسلام**، م.س، ص61.

[128]– أبي بكر عبد الله بن محمد المالكي، **رياض النفوس (في طبقات علماء القيروان وافريقية وزهادهم ونساكهم وسير من أخبارهم وفضائلهم وأوصافهم)** تحقيق بشير البكوش مراجعة محمد العروسي المطوي دار الغرب الاسلامي الطبعة الثانية 1994 ص 248 .

[129]– الصادق الرزقي: **الأغاني التونسية**، م.س، ص 257.

الخصوص. فكانت الدّعوة للجانب النسائي على عدم هجرها لمدّة طويلة. ومن ذلك:«(2782) وعن كريمة بنت همام قالت: {دخلت المسجدالحرام فأخلوه لعائشة فسألتها امرأة: ما تقولين يا أمّ المؤمنين في الحنّاء ؟ فقالت : كان حبيبي صلى الله عليه وسلم يعجبه لونه، ويكره ريحه وليس بمحرّم عليكنّ بين كل حيضتين أو عند كلّ حيضة}. رواهما أحمد »[130].

و هو ما يؤكد حضورها في كلّ المناسبات الاجتماعيّة و الدينيّة كرمز للفرح والسّعادة باعتبارها تحصّن الجسد و تحميه من ناحية، كما أنّها من الطهارة التّي هي منطلق أي عمل ديني من ناحية ثانية .

2. وظيفة تجميلية:

تُعدّ الحنّة من أهمّ المواد التّقليدية التّجميلية المتوارثة عند النّساء العربيّات. ولعلّ السّر في استمراريتها بقوّة لتضلّ ملازمة للمرأة وزينتها، يكمن في قدرتها على إعطاء تلك الصّورة الجماليّة لجسدها الأنثوي أو هي تعيد الشباب" بتعبير فندرهيدن. فالنساء بعد وضعهن للحنّاء يشعرن أنّهن أصغر سنّا وأكثر انتعاشا وجمالا كما يبدين فرحة عارمة [131].

و مراحل حياة المرأة بالمجتمع العربي مقترنة بالحنّاء، فالعروس تكاد لا تُنعت بهذه الصّفة إلاّ بوضعها لرسوم بلون أحمر بنيّ، تجمّل يديها وقدميها. ولتسهيل ولادة مولودها وجب التزيّن بهذا النّبات الصبغي. ناهيك عن الأعياد والأفراح حيث لا تتردّد البتّة في وضعها. إلى أن اعتبرت من الزينة الظاهرة التّي يحبّذ التجمّل بها في كلّ وقت وحين. وسئلت عائشة عن الزّينة الظاهرة فقالت "هي الكحل والخضاب"[132]

كما لم تقتصر النّساء في القدم، على استعمال مسحوق الأوراق فقط في زينتهنّ بل وزهورها أيضا، التّي تميّزت برائحتها القويّة. و هو ما ذهب إليه سُنيني Sonnini بقوله مضى قرن منذ تحدّث المصريّون عن زهور الحنّاء، التّي تنبعث منها رائحة قويّة عطرة. وهو ما جعل النّساء تهوى وضعها، فتزيّن بها بيوتهن وتحملنها معهن إلى الحمّامات، كما يعطّرن بها صدورهنّ»[133].

لعلّ في إصرار المرأة بوضع الحنّاء باعتبارها من الزّينة إنّما ينطوي ضمن منظومتها الإغرائيّة في علاقتها بالرّجل، لتلعب دور الوسيط متخذة بعدا جنسيا صرفا بين الطرفين. وهو ما يفسّر داخل الأوساط النسائيّة بجهة بنزرت على اعتبارها من المحرّمات إن غاب الزّوج. رغم أنّ ما دعى إليه الرسول (ص)

130- محمد بن علي الشوكاني، **نيل الأوطار**، دارالحديث، الطبعة: ط1 1993، الجزء 6، ص230.

131- Vonderheyden M. *Le henné chez les musulmans de l'Afrique du Nord*. Op.cit. pp. 35-61.p 41

132- احمد التيجاني: **تحفة العروس ومتعة النفوس**، م.س، ص 131.

133 - Gober (E.G) : *Parfums et tatouages*, Op. cit p 29

فهو وجوب الخضاب سواء بالزّوج أو عدمه و« عن الصادق عن أباءه (ع) قال: وأمر رسول الله (ص) النساء بالخضاب ذات البعل وغير ذات البعل أما ذات البعل فتتزين به لزوجها وأما غير ذات البعل فلا تشبه يدها يد الرجال.»[134] الا أنّ زينة المرأة في الفكر الشّعبي مقترنة بوجود الرّجل. لذلك تحرص المرأة التي غاب عنها زوجها لفترة (وخصوصا إن كان مسافرا) على وضع الحنّاء في يديها وقدميها عند عودته وفي ذلك تعبير عن فرحها باستقباله. بعد أن كان العكس عند مغادرته، ممّا يستوجب عليها عدم التزين في غيابه و التخلّي عنها طيلة تلك الفترة. حتّى و إن هي فعلت يعاب عليها ذلك. وهو ما يعكس مدى ارتباط الحنّة بكلا الجنسين في المخيّلة الشّعبيّة. لتكمن أهميّتها في توطيد العلاقة بين المرأة والرّجل باتّباع رسوم و أشكال دقيقة لغاية الزّينة و إضفاء الصّبغة الجماليّة التّي تسهم في إبراز مفاتن المرأة. لذلك ظلّ الرّسم بالحنّاء على امتداد العصور المتتالية فنّا له أصول وأدوات وضوابط أيضا.كما لم يبخل الموروث الشّفوي في الكشف عن تلك الصّورة التّي جمعت بين الجانب الجمالي التّي تضفيه تلك النبتة الصبغية للجسد الانثوي ووقعها في نفس الرّجل .

ومما جاء في الأغاني التونسيّة التراثيّة التّي تغزّلت بالمرأة وزينتها المتمثّلة في وضع الحنّة ما يلي:

يا أمّيمْتي والحوت الحوت صوابعها مْثيل الياقوت

حنّتهم كحلا كي التّوت بدلالها جارت عليّ[135]

وفي مطلع آخر:

آه يا للاّ وْدِيدَه ظريفة مُحنية بالحنّة

تقول حوريّة من حور الجنّة والاّ عروسه ليلة الجِلوات[136]

والحنّاء في هذا المنحى تحلّ محلّ الكلام في الإفصاح عن الرّغبة الجنسيّة التّي تجمع بين المرأة والرّجل. وعلى حدّ قول قرو: « وإن هي ترمز إلى الخصوبة والبركة والتحوّل من حال إلى آخر، هذه المادّة المتأتية من زهرة اللوزينيا انرمي - الزّهرة المفضّلة للنبي - فهي مُشبعة برمزيّة جنسيّة جَليّة فرائحتها توحي عندما تكون كثيفة وتُرى عن كثب انطباعا قويّا إلى السّائل المنوي أو المُخاط المهبلي أو النُخط »[137] .

---

[134]- الخطيب العدناني: **الملابس والزينة في الإسلام**، م.س، ص 107.

[135]- الصادق الرزقي، **الأغاني التونسية**، م.س، ص 265.

[136]- نفس المصدر السابق ص266 .

[137]- M. Kerrou : *La mort au féminin*, Op. cit. p 37.

كما تفتخر النساء وتتباهين باللّون المتحصّل عليه بعد التّحنية، عند ما يكون أحمر قان أو مائل إلى السّواد. اعتقادا منهنّ وحسب ما هو متعارف عنه في الأوساط النّسائيّة، بأنّ التّي تصبغ بها الحنّة تكون محبوبة من قبل زوجها، والتّي لا تصبغ بها فلها عكس ذلك. أو أن العروس التّي تصبغ بها جيدا، ستنعم بحياة زوجيّة سعيدة، أما التّي لا تصبغ بها ستلقى العكس. وهو ما فسّر مدى ارتباط جماليّة الحنّة ورسومها باللّون المتحصّل عليه. إذ لا تكتمل الزّينة إلا باكتمال اللّون.

و قد جاء أيضا في الأحاديث الدّينية، الحثّ على الأهميّة الجماليّة للون « وينبغي أن يكون خضاب اليدين والقدمين للمرأة بالاعتدال، بأن تجدّده كلّما نصل. لا تضع الخضاب على الخضاب حتّى يتحوّل من الإحمرار إلى السّواد ومن الجمال إلى الدّمامة. ذكره أبو داوود في السنن 107/4: بسنده عن عائشة أن هندا بنت عتبة قالت يا نبي الله بايعني – وقد خضبت كفيها حتى إسودا – قال: لا أبايعك حتى تغيّري كفّيك كأنّهما كفا سبع. »[138].

يمكن القول عموما، تعمد المرأة البنزرتيّة للحنّاء ورسومها للتزيّن والتبرّك بها. فهي تلك النّبتة الصبغيّة المباركة التّي ترافقها في مختلف مجالاتها الحياتيّة. ففي كثرة استعمالها تجعل منها 'حنينة' ومحبوبة عند زوجها و مجموعة الافراد التّي تعيش ضمنها حسب المعتقد الشعبي العربي.كما أنّها وسيلة لتجمّل جسدها الانثوي برسومات دقيقة و لون صبغي يكسو اليدين و القدمين و الشّعر أيضا في أحيان كثيرة.

3. وظيفة صحيّة:

عُرفت الحنّاء منذ أولى ظهورها على كونها نبتة طبّية، استعملت منذ القدم كخلطة دوائيّة، لمعالجة العديد من الأمراض خاصّة الجلديّة منها. وقد « بيّن بلينPeline أنّ أوراق الحنّاء سواء كانت مسحوقة أو مطبوخة، تستعمل إمّا ضدّ أمراض المعدة والرّحم، أو تقرّحات الرأس والفم أو لمداواة الحروق»[139] .

واستمرّت الحنّاء بمكانتها العلاجيّة بعد مجيء الإسلام. وتجلّى ذلك من خلال دعوة الرّسول لاستعمالها « لخبرسلمى مولاة النبيّ (صلى الله عليه وسلّم) أنّه كان إذا اشتكى أحد رأسه قال: اذهب فاحتجم وإذا اشتكى رجله قال : اذهب فخضّبها بالحنّاء " رواه أبو داود والتّرمذي وابن ماجه وأحمد وله

[138]- الخطيب العدناني، **الملابس و الزينة في الإسلام**، م.س، ص 107

[139]- Renaut Luc : *Recherches sur le henné antique*, Op. cit. (p 193-212) p 195

في لفظ، قالت : كنت أخدم النبي (صلى الله عليه وسلّم) فما كانت تصيبه قرحة ولا نكتة إلا أمرني أن أضع عليها الحنّاء»[140].

كما ورد ذكرهذا النّبات بالعديد من الكتب العربيّة وذلك لتعداد منافعها الطبيّة و بيان كيفية استعمالها كوصفة علاجيّة. من ذلك « نقل الإمام المحقّق في الهدي النّبوي، وابن مفلح في الآداب الكبرى، وسبط بن المرصفي، وأكثر من أن أحصي من ذكر ذلك عدا أنّ الحنّاء إذا طلي به أسفل الرّجلين أول خروج الجدري أمن على العينين منه. وقال بعض الأطبّاء: إنّ الحنّاء إذا جعل بماء الورد ويسير العصفر والزعفران ولطخ به أسفل الرّجلين عند مبادئ الجدري حفظ العين منه، فزادنا هذا الطبيب هذه الكيفيّة والله أعلم»[141].

وممّا ذكره 'الجزار' في كتابه الاعتماد في الادوية المفردة « شجرة الحنّاء وأغصانها معتدلة الحرارة وفيها قوّة مقبضة ولذلك إذا مضغ ابرأ القلاع والقرح الذّي يكون في الفم وينفع من تنفط أفواه الصّبيان إذا مضغت. وإذا تضّمد به نفع من الأورام الحارّة وإذا خلط مع الشّمع المصفّى ودهن ورد نفع من أوجاع الجنب والوهن الكائن فيه. وقد يصبّ طبيخه على حرق النّار. وزهرها إذا سحق وضمّد به الجبهة مع خلّ يسكّن الصّدا»[142].

وبتعبير العدناني فانّ« الحنّاء ينفع من التشقّق والزّلع إذا حدث في أعضاء الجسم، والملح في باطن الكفّ الذي يحدث بطول القبض على عود الرّحى للطّحن، أو عود الدّلو لغرف الماء، أو مقبض السّيف في القتال، أو مقبض المنخل في إصلاح الشجر. كما يشفي ظهور الدّواب ممّا يدفع بها من طول شدّها بالسّروج والرّكاف من تقرّح وتمزّق في الجلد. كما تستعمل الحنّاء في الأدهان، فإنّه إذا مزج بدهن النارجيل أو دهن الزّنبق أو نوى الشّمس حفظ الشّعر من التساقط والانحتات وظهور الشّيب والبياض.»[143]

تعتبر الحنّة من أكثر النّباتات قربا للنّساء كبيرات السّن يلجأن إليها كخلطة طبيعيّة تساعدهن في التّخفيف من آلام البرد والمعدة والرّأس. فهنّ حريصات إلى اليوم بصبغ شعورهن وتلطيخ أيديهن وأقدامهن كلّما اشتكين وجعا ما. ."الحِنّة بَاهْية تْنَحّي كُلْ شَيْ" تلك عبارة جدّتي كلما همّت بالحديث عن الحناء.و تقصد بقولها أنّ هاته النّبتة من شأنها أن تُبعد كل ما يمكن أن يصيب الجسد من سوء.

---

[140]- محمد بن مفلح بن محمد المقدسي: **الفروع**، م.س، ص 456.

[141]- محمد بن أحمد بن سالم السفاريني، **غذاء الألباب في شرح منظومة الآداب**، م.س، ص416.

[143]- أبو جعفر احمد بن إبراهيم الجزار، **الاعتماد في الادوية المفردة م.س**، ص 31.

[143]- الخطيب العدناني: **الملابس والزينة في الاسلام**، م.س، ص

قد تكون خلطة الحنّاء العادية أي بعجنها مع قليل من الماء كافية في أحيان كثيرة لمعالجة العديد من الأمراض الجلدية، كتشقّق القدمين أو التّخلص من بعض الفطريّات التّي تكون في الأظافر أو بين الأصابع. ولكن بإضافة مواد أخرى تتضاعف قدرتها العلاجيّة لتتجاوز الجلد إلى أعضاء مختلفة من الجسد.

تحذق العديد من النّساء و- الرّجال أيضا- بجهة بنزرت، خلطات علاجيّة تقليديّة مستمدّة من نبتة الحنّاء، ومنها :

- ما يعرف بـ ' كَبُوس بصل' بكلّ من رأس جبل والماتلين والقرية... لعلاج ضربة الشمس. فبوضعها على الرّأس تمتصّ الحرارة من الجسم و تخفّف آلامه. وهي عبارة عن حنّة وبصل مقطّع وماء. كما يمكن إضافة بيضة ليلتصق البصل أكثر بالشّعر أو بجلد الرأس.

- خلطة الحنّاء وعود قرنفل المرحي: وهي من أكثر الخلطات المتعارفة لدى النّساء كبيرات السن، يستعملنها للتخفيف من آلام البرد بالمفاصل وذلك بتحنية باطن القدمين. ولأوجاع الرأس بوضعها للشعر .

- خلطة الحنّاء وزيت الفليو أو ماء الفليو: تمزج الحنة مع زيت الفليو وتعجن بالماء. توضع بباطن القدمين للتخفيف من آلام المعدة والتّقليص من حدة آلام البرد .

- خلطة الحنّاء وماء الزّهر: توضع على الشّعر وتستعمل لتخفيف الحرارة من الجسم.

- مزج القليل من الحنّة مع العسل: يفيد في علاج الدمل وأيضا مزج الحنّة مع السّمن يعالج التشقّقات الجلديّة الحادّة.

هذا إلى جانب الخلطات المخصّصة لعلاج الشّعر التّالف أو المتقصّف كخلط الحنة بزيت الزيتون أو اللّيمون أو مغلّى قشور الرّمان أو أوراق الزيتون.

كما يمكن مزج الحنة مع زيت الزّيتون والقليل من الثّوم والماء يساعد على نمو الشعر بشكل طبيعي لمن يعانون من تساقط مفرط له.

ومن بين ألوصفات لعلاج أوجاع العيون يخلط الشّبّ والحنّاء وماء الزّهر يصفى السّائل ثمّ يسكب في الأعين[144].

[144]- A-R. De Lens: *Pratiques des harems marocains : Sorcellerie médecine beauté*, Paul Geuthner 1999 p14.

و تتوقّف الفعاليّة العلاجيّة للحنّاءعلى النّوع المستخدم وهو أن تكون طبيعيّة من دون إضافات ، إلى جانب طريقة الإعداد بما فيها المقادير وكيفيّة التّحضير. وهي من مميّزات النّساء اللاتي لديهنّ الخبرة الكافية بأمور الحنّاء واستعمالاتها على جميع المستويات.

وقد يتجاوز العلاج بالحناء الجسد المادي إلى آخر معنوي ليمتزج الجانب الواقعي بالماورائي ويحضر المخيال البشري أو السحري بقوة. من ذلك وصفة للمرأة الحامل التّي تعاني من داء الزّهري حتّى لا تصيب جنينها بالعدوى يجب عليها أن لا تستعمل الحنّاء أو أن تقربها أو حتّى تشمّها طيلة 7 أشهر من حملها.[145]

ولئن عرفت المنافع العلاجيّة للحنّاء منذ القدم فإنّ الأبحاث الحديثة أكّدت ذلك على أنّ لها فوائد عديدة للبشرة و الشّعر. وتمّ اقحامها ضمن المنتوجات المصنّعة كالصّابون و الشّمبو و مواد التجميل.

4. وظيفة طقوسيّة:

مثّل جسد الإنسان نقطة الإنطلاق في علاقته بالكون. و لعلّه في محاولته للسّيطرة على حتميّات فرضتها طبيعته البشريّة كالموت والفناء أو في التّصدّي لقوى خفيّة ما فتأت تلحق به الأذى - حسب اعتقاده آنذاك - أنتج فكره جملة من المعتقدات والتّي جسدّتها ممارساته من أقوال وأفعال على مرّ الزمن. وفي اكتشافه لنبتة عطريّة صبغيّة كالحنّاء كانت بمثابة وسيط بين عالمه المرئي أو جسده تحديدا والآخر الخفيّ المجهول أي بين عالم دنيوي وآخر مقدّس.

ارتبطت معتقدات الانسان دائما وأبدا بهذا الثنائي وعلى حدّ عبارة روجيه كايوا فإنّه من «الضّرورة تنظيم علاقتهما المتبادلة - الدّنيوي والمقدّس- بمنتهى الدّقة والصّرامة. تلك هي تحديدا وظيفة الطقوس، التّي نميّز فيها بين نوعين أحدهما إيجابي يتولّى مهمّة تحويل طبيعة كلّ من الدّنيوي والمقدّس بحسب حاجات كلّ مجتمع. والثّاني سلبي يهدف إلى إبقاء كلّ منهما ضمن نطاق كينونته الخاصّة، مخافة أن ينشأ بينهما احتكاك غير مناسب»[146].

فالطّقوس إذا تصنّف إلى صنفين متعارضين، فيعبّر على الشّكل الأوّل بالطقوس الإيجابيّة، وتتمثّل في الدّفع نحو القيام بمجموعة من الممارسات، وأخرى سلبيّة ترتكز على صياغة مجموعة من الممنوعات.

---

[145]- A-R. De Lens: *Pratiques des harems marocains* : *Sorcellerie médecine beauté*, Op. cit. p 23- 24

[146]– روجيه كايوا: **الإنسان والمقدس**، ترجمة سميرة ريشا، مراجعة جورج سليمان، المنظمة العربية للترجمة، ط1 بيروت 2010 ص 41.

وفي البحث عن مفهوم الطقس فإنّ لفظة "Rite" تأتي من حيث الأصل اللّغوي، من الكلمة اللاّتينية "Ritus" ويُقصد بها مجموع "الأنشطة والأفعال المنظّمة التي تتّخذها جماعة ما خلال احتفالاتها"[147]. ليُفهم الطّقس على أنّه مجموعة من الضّوابط التّي توضع من قبل الجماعة، لتنظيم ممارساتها بكلّ أشكالها سواء الدّينية القدسيّة أو الاجتماعيّة الرّمزية وذلك وفق شعائر مُنتظمة في الزّمان والمكان.

والطقوس كما يعرّفها علماء الأنثروبولوجيا الاجتماعيّة، هي مجموعة حركات سلوكيّة متكرّرة يتّفق عليها أبناء المجتمع، وتكون على أنواع وأشكال مختلفة تتناسب والغاية التّي دفعت الفاعل الاجتماعي أو الجماعة للقيام بها. وهي تقام بشكل دوري في حياة الإنسان، وقد أطلق عليها أرنولد فان جناب A.VanGennep تسمية طقوس العبورRites de passage لأوّل مرّة منذ 1909. والتّي تعكس بمعنى آخر جملة الاحتفالات التّي تقام على إثر تحوّل نوعي يرتبط بحياة الأفراد والجماعات[148]. وقد يتمّ هذا الطقس احتفالا باكتمال حصول تغيّرات بيولوجيّة في حياة الأفراد كالولادة والوفاة، أو عن التحوّلات التّي تقع في مكانات الأفراد ضمن المجموعة التّي ينتمون إليها كعلاقة الختان باكتمال الرّجولة، والزّواج بالدّخول في الحياة الزّوجيّة.

من هذا المنطلق فإنّ طقوس العبور ترتبط باكتساب وضع جديد. « وهي تشتمل في معظم الحالات على موت رمزي يعقبه "بعث رمزي" أو " ولادة من جديد"»[149]. الأمرالذّي يتطلّب بدوره عمليّة تأهيل على حدّ عبارة مرسيا إلياد للتحوّل من وضع لآخر. « مصطلح التأهيل – التكريس إن أخذ بالمعنى الأعمّ الأوسع يشير إلى مجموع من الطقوس والتّعاليم الشفهيّة التّي تهدف إلى إحداث تغيير جذري في الوضع الدّيني والاجتماعي لدى الشّخص الذّي يجري تأهيله وتكريسه. أمّا إذا شئنا أن نعرّف التأهيل – التكريس فلسفيّا، فإنّه يوازي تحوّلا كينونيا (انطولوجيا) في النّظام الوجودي».[150]

وعلى وجه العموم، فإنّ دور الشّعائر والطقوس هو دور تطهيري. والطهارة الطقسيّة تبعد المخاطر لأنّه عندما يكون الإنسان غير طاهر يكون معرّضا للاذى من جرّاء الرّجس الذّي لحقه.«والذي ينطوي على عنصر النجاسة المعنوية التي تثير في الإنسان شعورا بالقلق والتوتّر. كالاشمئزاز من دم

---

[147]– **المعجم الوسيط**، الجزء الأول، ط 2، دار أمواج، للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت لبنان 1987، باب "ط ق س" ص561.

[148]– نور الدين بن قنديل، **الموت وتقاليده في بعض المدن الأندلسية طبربة نموذجا**، م.س، ص 29

[149]– مرسيا الياد: **البحث في التاريخ والمعنى في الدين**، ترجمة وتقديم سعود المولى، المنظمة العربية للترجمة، الطبعة الأولى، بيروت ديسمبر 2007 ص 228.

[150]–نفس المصدر السابق، ص 225.

الحيض والنّفاس والجنابة فيأتي التطهر ليضع حدّا لهذا القلق فيكون التطهّر نظام حماية». [151] لا سيما أنّ فعل طهّر غالبا ما يعني في اللّغات البدائيّة الشّفاء وفكّ السّحر بتعبيرروجيه كايوا. [152]

لا يمكن الحديث بالمجتمع البنزرتي، أو أي من المجتمعات العربيّة في أي حال من الأحوال، عن طقوس عبور بمنأى عن الحنّاء. فهي تُعتبر جزءًا لا يتجزّأ من جملة الطقوس التّي تقام في مراحل انتقاليّة مختلفة لحياة الإنسان. لنجدها جدّ لصيقة بجملة الاحتفالات التّي تخصّ الفرد والجماعة. وهي رمز الأحداث السعيدة، إذ لا يمكن أن يمرّ حفل زفاف أو ختان أو ولادة أو أي من الحفلات التقليديّة، من دون أن يكون للحنّاء موقع فيه. ويبرّر حضورها هذا بدءا بجملة من الأقوال التّي يكثر ترديدها في الأوساط النسائية للبركـة، مبروكـة، للسّعد، للبخت، للهنا ... لتختزل كرمز الحظ والفأل الحسن إلى جانب كونـها دافعـا لشرّ العيـن والحسـد.

وتنال أهميّتها البالغة من حيث أنّها تتجاوز حدودها التجميليّة، التّي تزيّن - ظاهريًا- أيدي وأرجل النّساء. لتأخذ بُعدًا طقوسيا رمزيا بامتياز. فالعروس التّي لا تفارقها رسوم الحنّاء، ليست سوى في وضع تحوّل من حال فتاة التّي تمثّل الطفولة، إلى امرأة ذات مكانة اجتماعيّة جديدة. وكذا عريسها أيضا وعلى حدّ عبارة مرسيا إلياد فـ« إنّ التأهيل ينقل المرء من عالم الطبيعة الذّي هو عالم الطفولة إلى عالم الثقافة أي أنّه يتعرّف إلى قيم روحيّة »[153]. وهذا التحوّل في حدّ ذاته يجعل من الفرد في وضعيّة العبور «أشبه بضحيّة وباء، أو مجرم يهدّد نشر العنف حوله. ذلك أنّ فقدان الاختلاف مهما يكن محصور النّطاق يهدّد بإغراق الجماعة بأسرها في أزمة ذبائحيّة.... يستوجب نوعا من الطهارة والوقاية». [154]

و بعبارة دورنييه Dornier « إنّ الهدف من وضع الحنّاء للعريس هو لتطهيره وحمايته من كلّ ما من شأنه أن يلحق به الأذى. نظرا لاعتبارها تحوي الكثير من البركة. ولذلك فهي تستعمل كوسيلة للتطهير أو الحماية في المناسبات التّي يكون فيها الأشخاص عرضة لأخطار غيبية»[155].

تتلخّص الطقوس الاحتفاليّة للختان، في جملة من الأبعاد الرمزيّة. منطلقها عبور الطفل من مرحلة الطفولة إلى مرحلة الرّجولة. والذّي يتجسّد من خلال طقوس خروج وأخرى دخول. وأمّا من جملة طقوس الخروج، فهو عمليّة وضع الحنّاء للطفل الذّي سيختن على اعتبارها تخصّ الأنثى وزينتها. وبما

---

[151]– صوفية السحيري بن حتيرة، **الجسد والمجتمع** م.س، ص181.

[152]- روجيه كايوا، **الإنسان والمقدس**، م.س، ص 55.

[153]– مرسيا الياد، **البحث في التاريخ والمعنى في الدين**، م.س، ص 227.

[154]– رينيه جيرار، **العنف والمقدس**، م.س، ص472-473.

[155]- Dornier P : *La politesse bédouine dans les campagnes du nord de la Tunisie : Le mariage*, Op. cit, p92-268 p 101

أنّه من صفات الرّجل عدم التشبّه بالمرأة فعليه التّخلص من كلّ ما يميّزها وهو الحال عند وضع الحنّاء. فعندما يبكي المطهر خوفا يمازحونه " تِبْكي وإنْتِ بَاشْ تُوَلي راجل". وكأنذنا بالحنّاء تقوم بدور وسيط يتمثّل في تخليص الطّفل من سمات الإناث لتقحمه في صفات الرّجولة.

والختان إنّما هو مرحلة تحوّل من الطفولة الّتي تمثل الضّعف والسذاجة والتبعيّة للأمّ إلى الرّجولة بمعنى القوّة والصلابة واكتساب شخصيّة جديدة منفصلة عن والدته. وهي ممارسة سابقة للإسلام « عادة تقليديّة ترجع إلى شعائر الدّيانات العابدة للطبيعة. وكثير من رجال الدّين المسلمين واليهود يعتبرونها أيضا من شعائر دينهم. لكنّ الختان في الصغر لدى اليهود يفسّر اجتماعيّا على أنّه بديل عن التّضحية بالإبكار. كما يفسّر الختان في المراهقة لدى العرب والأفارقة والاستراليين كطقس قديم من طقوس الانتقال للرّجولة. والطقسان كلاهما عرفا قبل ظهور الأديان السماويّة »[156].

فالتزيّن بالحنّاء للمطهر يكون لآخر مرّة في حياته حتّى وإن أعاد وضعها في زفافه فهو بالشيء القليل الذّي يتّخذ بدوره بعدا طقوسيا مختلفا. كما أنّ بإمكان الختان أن يكون تمهيدا للزّواج وهو ما ذهب إليه روجيه كايوا بقوله « إنّ الهدف من الختان وشطب أسفل القضيب، هو عادة تأهيل الشّخص للزواج تأهيلا يظهر في مضاعفة طاقاته التناسليّة. وإعطائه قدرة إنجابيّة أي ببساطة إكساب أعضائه الجنسيّة مناعة ضدّ ما ينطوي عليه الاتّحاد الزّواجي من مخاطر زهديّة»[157].

و يمكن القول أنّ طقوس العبور ارتبطت بالجانب الجنسي لكل طرف تحوّل من وضعه الطبيعي إلى آخر اجتماعي. « لما كانت الجنسانية ترعى عمليّة الإنجاب والتكاثر فقد اقتضى ربطها بطقوس البلوغ والتنشئة. هذه الأخيرة تحوّل الفتيات والفتيان الذّين تنوي ضمّهم شرعا إلى الجماعة الفاعلة والمسؤولة إلى بالغين مكتملين وأشدّاء قادرين على القتال والإنجاب بإجرائها تعديلا أخيرا على أجسامهم»[158]

يذهب فندرهيدين إلى أنّ السّبب في انفراد المرأة والأطفال بوضع الحنّاء في الأعياد منطلقه الدّين. على اعتبار أن الحنّة تطهّر الجسد الذّي هو واجب في العقيدة الإسلاميّة. « يتحدّد العيد في صيغته المكتملة بكونه ذروة المجتمع يتولّى تطهيره وتجديده في آن»[159]. إذ تقترن طهارة الرّجل بذهابه للمجسد بعد القيام بالوضوء ليكون بذلك قد تخلّص من المدنّس. أمّا النّساء والأطفال فهم لا يذهبون للصلاة وبالتّالي فإنّ عدم ذهابهم هذا يمثل نقصا في طهارتهم. والحنّاء هنا هي كبديل لتلك الطهارة الجسديّة الّتي

---

[156]- سهام عبد السلام، **ختان الذكور بين الدين والطب والثقافة والتاريخ**، رؤية للنشر والتوزيع 2006 ص 344.

[157]- روجيه كايوا: **الإنسان والمقدس**، م.س، ص 48.

[158]- نفس المصدر السابق، ص 201.

[159]- نفس المصدر، ص 179

هي ركيزة أساسيّة في الاحتفال بالأعياد[160]. فالحياة الدّينية تمثّل مجموع العلاقات القائمة بين الإنسان والمقدّس« تلك التّي تشرحها وتصونها المعتقدات في حين تشكّل الطقوس ضمانا عمليّا لها»[161] بتعبير كايوا.

كما أنّ تلك الطقوس التطهيريّة للميّت والتّي جاءت ضمنها عمليّة وضع الحنّاء تعكس بشكل جليّ مدى ارتباط هذا النّبات بالجانب التطهيري. توضع للشّخص المتوفّي فتُحرّم على الأشخاص المقربّين منه. وكأنّنا بالجماعة هنا تتفادى المشاركة فيما يخصّ الميّت الذّي هو الموت ذاته ذاك ' العنف المُعدي، الذّي يتغلغل في الجماعة مهيبا بالأحياء إلى الإحتماء منه ' على حدّ عبارة كايوا. فنهاية أحدهم يشكل تهديدا للجماعة. من هنا تراهم يعزلون الميّت وينشرون الفراغ من حوله متخذين شتّى أنواع الاحتياطات. والأهمّ من ذلك أنّهم يمارسون طقوسا جنائزية، على غرار الطقوس الأخرى، التّي ترمي كلّها إلى تطهير العنف الشرير وطرده.[162]

ليكون في التخلّص من الحداد عودة إلى الحياة بعد أن زالت بوادر الهلاك واتّخذ الميّت وضعه الجديد. « فالاحتفالات التطهيريّة التّي تعلن انتهاء الحداد لا تحرّر أهل الميّت من رجاستهم وحسب، بل تحدّد اللّحظة التّي يتحوّل فيها الميّت أيضا من قوّة مؤذية ومخيفة إلى روح حارسة».[163]

إنّ استعمال الحنّاء ضمن طقوس معيّنة، كان نتيجة لأفكار وتصوّرات ارتبطت ارتباطا وثيقا بالعالم الخفيّ المجهول الّذي مثّل هاجس الإنسان منذ الأزل. وبتعبير روجيه كايوا « هكذا يبدو المقدّس إنّه ينبعث من ظلمات عالم الجنس والموت لكنّه مبدأ الحياة الأساسي ومصدر كلّ فاعليّة. المقدّس قوّة متأهّبة للانقضاض يصعب عزلها، قوّة مساوية لذاتها على الدّوام يتعادل فيها الخطر والضّرورة. أمّا الغرض من الطقوس فهو الإمساك بها وترويضها والسّير بها في المسالك التّي تعود على البشر بالخير وتلطيف حدّتها المفرطة عند الحاجة».[164]

فبمجرّد التحوّل من وضع لآخر إنّما هو خروج عمّا هو مألوف، وبالتالي عن النّظام الجماعي. ليكون الفرد المتحوّل مدنّس يستوجب التطهير والحماية والإبعاد. وهو ما جاءت لأجله الحنّاء كمادة صبغيّة رمزيّة بامتياز.

---

[160]- Vonderheyden M. *Le henné chez les musulmans de l'Afrique du Nord*. Op. cit.. pp. 35-61.p 48

[161]- روجيه كايوا: **الإنسان والمقدس**، م.س، ص 36.

[162]- نفس المصدر السابق، ص 429.

[163]- نفس المصدر السابق، ص 69

[164]- نفس المصدر السابق، ص 216

إنّ في تنوّع الوظائف التّي ارتبطت بالحنّاء تعكس أهميّتها في المخيال الشعبي. الأمر الذّي جعل من حضورها، متميّزا في المجتمعات العربيّة. فهي تحقّق غاية دينيّة واستعمالها اقترن بتأييد ما حضّ عليه الرسول(ص). وبوضعها على اليدين والقدمين تُضفي تلك الصبغة الجماليّة لجسد المرأة. كما هي نبتة علاجيّة تخفّف من عديد الأمراض. وصبغة لونيّة تتم ضمن طقوس معينة لترافق الشخص المتحوّل من حال إلى آخر. وبتعبير فندرهيدن فإنّ حضور الحناء يختزل في ثلاث وظائف رئيسية: الأولى أنّها تطهّر الجسد، والثّانية تبعد كل ما من شأنه أن يلحق به الأذى كالمرض، والثالثة تحميه من قوى خفيّة. لتُختزل الحنّة بهذا المعنى في ثلاث وظائف رئيسية الطهارة والإبعاد والحماية[165].

لكنّها باتت اليوم تستعمل كعادة متوارثة 'عَ لْعادة' مجهولة الهُويّة إن صحّ التعبير. توضع من باب الدعابة، أو المشاركة الجماعيّة في احتفال ما لغاية الزّينة لا غير. ومن الملاحظ أنّ المرأة القروية أو الريفيّة هي التّي لازالت تتشبّث أكثر بهذا النّبات الصبغي. في حين أن المرأة الحضرية باتت استعمالاتها تكاد تكون منعدمة. ففي اختلاف مفهوم الزّينة عمّا كان عليه في السابق والتوجّه نحو ما يعرف بالماكياج كأداة تجميليّة يوميّة جعل من الحنّاء ممارسة تقترن بالمناسبات الاحتفالية لا غير.

5. الأبعاد الرمزيّة:

أ- رمزيّة الحنّة:

وجد الرّمز في علاقة بالفكر الإنساني أو هو نتيجة الغموض الذّي انتابه في علاقة بالوجود والعدم. فقد تختلف الدلالة الرّمزيّة باختلاف المخيال الجماعي وما الرّمز في نهاية المطاف سوى تصوّر جماعي تجاه شيئ ما. « إنّ المجتمعات سواء الحديثة منها أو التقليديّة أو تلك المسمّاة بلا كتابة، تنتج دوما متخيّلات "des imaginaires" لتعيش بها وتبني من خلالها رموزها وصورها عن نفسها وعن الأشياء والعالم، وبواسطتها تحدّد أنظمة عيشها الجماعي ومعاييرها الخاصّة»[166].

تعدّ الحنّة تقليدا مشبعا بالرّموز والدلالات، لا يكاد المرء يفكّ ألغازه إلا ليعاود النّظر والتّدقيق من جديد. قد نجهل ما تُخفيه من خلفيّات حضارية رمزيّة، إذ لا نرى منها، غير أنّها تلك النّبتة التّي لا تفارق المرأة أفراحها وأتراحها. قد تكون مجرّد زينة تجمّل الأيادي والأقدام ، أو هي وصفة طبيّة تقليديّة تحرص الجدّات على اتّباعها، أو هي أهمّ من ذلك بكثير باعتبارها نبتة الجنّة ووصيّة الرّسول (ص). كل ذلك يحيلنا إلى طرقات مختلفة ذات مفترقات، لا نقف عند احداها إلاّ لتكون لها صلة بأخرى.

---

[165] M .vonderheyden : *Le henné chez les musulmans de l'Afrique du Nord*, Op. cit.. pp. 179-202 p196

[166] Pierre Ansart : *Idéologie, conflits et pouvoir*, Paris, PUF, 1977, p 21.

من أولى الرّموز التّي تستوجب التوقّف عندها هي علاقة الحنّاء بالجسد الأنثوي دون الذكوري. وإن كان لا يمكن نفي الاستعمال الرّجالي ولكنّه لا يكاد يذكر مقارنة بالمرأة. فمن المؤكّد أنّ تلك العلاقة بين الأنثى وذاك النّبات الصّبغي لم تكن بالأمر البديهي أو الإعتباطي في المتخيّل الشّعبي.

قد نعتمد على ما جاء في النّصوص الدّينية لتكون لدينا مبرّرات كافية لاستعمال الحنّاء كزينة للمرأة دون الرّجل بالمجتمعات العربيّة الإسلاميّة. « وعن مفضل بن يونس وهو من الثقات عن الأوزاعي عن أبي يسار القرشي عن أبي هريرة أن النبي (صلى الله عليه وسلم) أتى برجل مخضوب اليدين والرّجلين فقال: ما بال هذا ؟ فقالوا : يا رسول الله ، يتشبه بالنساء. فأمر به فنفي إلى البقيع فقالوا: يا رسول الله ألا تقتله ؟ قال : إنّي نهيت عن قتل المصلين.»[167]

و لكنّ تلك الصّورة تستوجب إعادة التدقيق عندما يتضّح أنّ في صبغ اليدين والقدمين بالحنّاء، لم تكن ميزة لِتختصّ بها المرأة العربيّة المُسلِمة دون سواها. وإنّما ألمّت هاته الممارسة- على تلك الشاكلة- تقريبا كلّ الشّعوب التّي استعملت ولا زالت تستعمل هذه النبتة من باب الزّينة بغضّ النظر عن المنحى الدّيني حيث « أجمعت كلّ الثّقافات التّي تمارس الصّبغ بالحنّاء على اعتمادها أساسا كأداة لتزيين اليدين والقدمين.»[168]

إنّ الحنّاء مأتاها نباتي ومن المعروف عن النّبات أنّ له صلة مباشرة بالأرض التّي هي رمز الخضرة والمياه والحياة. وكذا المرأة التّي هي رحم الإنسان وموطنه الأوّل لتكون رمزا للخصوبة والعطاء. فالبعد الرّمزي بين هذا وذاك يختزل في العطاء والانبعاث والاستمراريّة، « والارض هي الاخرى عبارة عن رحم »[169] بتعبير مرسيا إلياد.

كما جاء في قول ابن منظور حَنَأَ : حَنَأَت الارض تَحْنَأُ: اخْضَرّتْ والْتَفَّ نبْتُها. وأخضرَ ناضرٌوباقلٌ وحانئٌ : شديدُ الخُضْرَةِ.[170] وهو ما يحيلنا بصورة مباشرة إلى ربط بين النّبات والأرض ومن ثمّ المرأة التّي بوضعها للحنّاء تَحْنأ هي الأخرى كما الأرض المعطاء.

والانفراد بتزيين اليدين والقدمين من الجسد يمثّل في حدّ ذاته موضع مسائلة لا يمكن فهمها إلا من خلال الرّمز. فاليد عرفت كثيرا على أنّها دافع للشرّ وبعبارة مالك شبل « مدّ كف اليد مفتوحة تجاه عدو

---

[167]- محمد بن مفلح بن محمد المقدسي، **الفروع**، م.س، ص 455.

[168]- Collectif : *traditional henna designs* Op. cit. P 214

[169]- مرسيا الياد، **البحث في التاريخ والمعنى في الدين**، م.س، ص 271.

[170]- ابن منظور، **لسان العرب**، المجلد الاول، م.س، ص 61 .

أو خطر محدق يمثل إشارة دفاع معروفة منذ القدم»[171]. وباطن القدم تمثّل الاحتكاك المباشر بالأرض التّي سبق وتبيّنا علاقتها الرمزيّة بالمرأة.

من ناحية دينيّة تلعب الحنّاء دور الوسيط لكسب الجنّة فتحنية الأطراف من الجسد بمثابة حصن منيع من نار جهنّم «فالأظافر التّي تصبغ باللّون الحنائي الأحمر – تمثّل أبعاد المرأة عن لهيب جهنّم والسّماح لها بدخول الجنّة »[172]. ولعلّ في تحنية اليدين والقدمين يتجاوزالمنحى الدّيني التّجميلي، ليتّخذ منحا تصوريّا وقائيّا... كما ذهبت إلى ذلك آلين تاوزن Aline Tauzin بقولها « حسب ما يتردّد في الأوساط النسائية، فإنّ حنّاء اليدين جُعلت لتحمي النّصف العلوي من الجسد، أي من الرّأس إلى السرّة. بينما تحمي حنّاء الرّجلين باقي الجسد أي من السرّة إلى أسفل القدمين.»[173] وبذلك يصبح الجسد كلّه محميّا من كلّ ما يمكن أن يلحقه من سوء.

من الملاحظ أيضا أنّ في أغلب الأحيان كلّما ارتبطت طقوس العبور بسيلان دم إلا وحضرت الحنّاء بامتياز. 'حنة لعروسة' وارتباطها بفضّ غشاء البكارة وحنّة المطهر وشطب أسفل القضيب كذلك حنّة الولادة ونزيف النّفساء. وهو ما يحيلنا إلى تلك العلاقة بين الدّم والإنسان.« وسُمّي الدّم نفسا لأنّ النفس تخرج بخروجه ومن هنا تفهم ازدواجيّة هذا السّائل الثمين فإذا كان مخفيا فهو أساس الحياة وإذا سكب فهو يعني الموت[174].

فالدّم مثل ثنائية الحياة والفناء في الفكر القديم. بمثابة لغز غامض يغمره الالتباس لأنّه إن سال يؤدي في كثير من الأحيان إلى الموت وفي نفس الوقت يكون مصدر انبعاث حياة جديدة كالولادة. وهو ما فسّر ارتباطه منذ القديم بالطقوس الاجتماعيّة وخاصّة الدينيّة وذلك في نطاق التقرّب للآلهة بإسالة الدمّ بالتّضحية sacrifice سوى كانت بشريّة أو حيوانيّة[175].

و سيلان دم العروس يشكّل موضع خوف عليها من قوى خفيّة وفي الآن نفسه الخوف على العريس من فعل مشين يجعله غير قادر جنسيا ليلة زفافه. وكذلك هو شأن الطفل والمرأة التّي ستضع مولودها وحتّى الكبش الذّي سيذبح. والحنّاء في كلّ الحالات تكون للوقاية. وكأنّنا بين الحنّاء والدّم لعبة تبادليّة تكامليّة في الآن نفسه. فبحضور الحنّاء لم يعد الخوف من الدمّ وإن غاب الدّم تحضر الحنّاء. وهو ما التمسناه عند تدشين

171- Malek Chebel :*Dictionnaire des symboles musulmans : Rites, mystique et civilisation* Op. cit. p 255.

172- Aline Tauzin : «*Le Henné, art des femmes de Mauritanie* »,Op. cit. p18.

173- Ibid p 17

174-صوفية السحيري بن حتيرة : **الجسد والمجتمع م.س،** ص 160.

175- نفس المصدرالسابق، نفس الصفحة.

بيت جديد حيث تغمس اليد في الحنّاء عند غياب الذبيحة. " فالحنّاء ليست سوى تلك النبة التّي وفي نفس الوقت تطهّر وتقدّس الجسد وتحميه أيضا من هجومات الجنّ أو بمعنى آخر الموت"[176].

تتميّز المرأة عن الرّجل بخاصياتها الطبيعية المتمثلة في كونها تنزف دما باستمرار دم الحيض ودم العذريّة ودم الولادة. والحنّاء تلاصقها دوما كبديل عن ذاك الدّم المفقود المدنّس. وهو الدّم نفسه الذّي يجعلها نجسة من النّاحية الدينية ومنقوصة الطهارة.« إنّ دماء الحيض وفضّ البكارة والولادة تسهم إسهاما شديدا في إبقاء المرأة كائنا ضعيفا جريحا نجسا وشريرا. ينتمي بطبيعته إلى المقدّس" الملتبس" الذّي يفترض أن نخشى في بعض الحالات حضوره أو الاحتكاك به. وهذه الخشية هي في أساس عدد من الأوامر والنّواهي الدينيّة المتعلّقة بالطهارة والنّجاسة»[177].

إنّ استعمال الحناء في إطار طقوس احتفاليّة لم تكن بمنأى عن جملة من المواد الأخرى التّي تلازمها كلّما حضرت كالبخور والشموع المضاءة. فحنّة العروس أو العريس لا تكتمل إلا برائحة البخور التّي يعجّ بها المكان. وكذا الشّموع التّي من المحتّم أن تتوسّط إحداها صحن الحنّة عند التّحنية. وهو شأن حفلة الختان وكذلك زيارة مقرّ ولي التّي لا تكتمل إلا بحضور ذاك الثلاثي. فمن البديهي أن نسلّم أنّ العلاقة بين هذا وذاك جاءت من محض الصّدفة و إنّما حضورها في آن يعكس مدى ارتباطها ببعضها البعض في الفكر الشّعبي.

الحنّاء هي وسيلة حمائيّة لإبعاد كلّ ما من شأنه أن يلحق الاذى بالشّخص الذّي يكون في وضع تحوّل. وكذا البخور الذّي برائحته تبتعد الأعين الشريرة والأنفس الأمّارة بالسّوء وأمّا الشّمعة فبفتيلها المشعّ بمثابة إنارة للحياة المقبلة أو هي رمز لقوّتها وصلابتها.و بتعبيرشفلييه chevalier «تعود رمزيّة الشّمعة إلى الشّعلة التّي باشتعالها تتجمع كلّ قوى الطبيعة كما يقول نواليس، شمع العسل والفتيلة والنار والهواء[178].

ومن الممارسات التّي كانت أو هي لازالت، تمارس عند البعض بالجهة في ما يتعلّق بالشّمعة أن تعمد والدة العروس ليلة الزّفاف إلى الإسراع بحمل واحدة إلى الجامع وإشعالها هناك. وكأنّها بها ترمز إلى عفّة ابنتها عند افتضاض غشاء البكارة. وهو ما تؤكده الأقوال الشّفاهية النّسائية فمن الأدعية التّي تقال للفتاة " نْشَا الله رَبّي يْنَوّر شَمِعتك" "يْضَوّي ليلتك" وفي كلّ الحالات فإنّ رمزيّة الشّمعة في المعتقد الشّعبي تعود لنورها المشعّ باعتباره إشراقة بانطلاق حياة جنسيّة جديدة .

176- Aline Tauzin : «*Le Henné, art des femmes de Mauritanie* »,Op. cit. p 18

177- روجيه كايوا، **الانسان والمقدس**، م.س، ص 201.

178- Chevalier Jean et Alain Gherbrant : *Dictionnaire des symboles ; Mythes, rêves, coutumes, gestes, formes, figures, couleurs, nombres*. Op. cit. p 144

ب- رمزيّة الرّسوم:

قد لا تدرك المرأة بجهة بنزرت أنّ في تفنّنها بوضع رسوم حنّاء تزيّن كفّيها وقدميها إنّما تستمدّ أشكالها في أحيان كثيرة من رموز واغلة في القدم، كما قد لا يقودها فكرها إلى أنّها برسومها تلك تعود بشكل غير مباشر إلى عادة الرّسم على الجسد الذّي عرفته الكثير من الشّعوب منذ زمن سحيق ألا وهو الوشم وما يحمله من زاد رمزيّ.و في كلّ الاحوال فإنّ الحديث عن الرّسم بما يحتويه من أفكار وتصوّرات يدفعنا إلى استنباط تلك العلاقة القائمة بين الشّكل واللّون كثنائيتان يختزلان الرّمز والايحاء.

- **رمزيّة الألوان:**

إنّ هاجس المرأة في استعمالها للحنّاء كان اللّون بدرجة أولى. تتفنّن كلّ واحدة منهنّ بإضفاء مواد مختلفة تجعل من حنّتها ذات لون داكن جذّاب " معتْقَه " أو هي تبتكر شبه حنّاء " حنّة كذّابة " لتتحصّل على لون شبيه بالحنّاء. قد تُبعدنا عبارة الجمال أو مفهوم الزّينة " نُحِبْها غَامْقَة باش تْكُونْ مِزْيانة " عن الغاية الحقيقيّة من وراء الإصرار على اللّون الدّاكن أو الأحمر البنّي إن لم يكن الأسود. فكثيرا ما تتردّد على ألسنة العديد من النّسوة بالجهة " نْحِب حِنْتي كَحْلة كِالتُوت" وهو ما وجدناه في استعمال " الصّناجر" للحصول على اللّون الأسود باعتباره رمزا لحنّاء موفّقة خالية من أيّ مجال للشكّ. وهذا اللّون هو نفسه لون الحرقوص كما هو شبيه إلى حدّ ما للون الوشم. تلك الممارسة التّي تعتبر من أقدم الممارسات في الرّسم على الجسد. و كأنّنا هنا بالحنّاء ذات اللّون الأسود هي بديل بيّن وصريح لفكرة الوشم أو هما كليهما ينصبّان في مصبّ واحد ألا وهو رمزيّة اللّون التّي تعود بنا إلى أولى تصوّرات الفكر البشري في علاقته بجسده وبالكون.

فالإسلام قد حرّم الوشم باعتباره تشويه لخلق الله وهو عبارة عن تغيير للون الجلد. ويتمّ عادة بغرز إبرة ليسيل الدمّ ثم يحشى بكحل فيتحوّل لون ذاك المكان أزرق أو أسود. « الوشم فنّ له دلالات عقائديّة وفلسفيّة واجتماعيّة يرسم بواسطة الإبر والمساحيق فيبقى على جسد الإنسان مدى الحياة »[179].

وكأنّنا هنا بين نوعين من الرّسم الأوّل وهو الرّسم الثابت الدائمّ الذّي يغيِّر لون وشكل الجلد، والثاني الرّسم المؤقت الذي لا يتجاوز وضعه عدة أيام ، فالأوّل محرّم باعتباره تغييرا لخلق الله والثاني مباح لأنّه زائل لا يبقى له أثر على الجلد.

من ناحية أخرى نجد الحرقوس ولونه الأسود الذّي يأتي في غالب الأحيان كمتمّم للحنّاء. وإن كان في أولى استعمالاته يخصّ زينة الوجه شأنه في ذلك شأن الوشم. فقد جعل منه العامل التّراثي الذّي يتّسم

[179]- اكرم قانصو: **التصوير الشعبي العربي**، م.س، ص 40.

بالتغيير على شاكلة الفكر الإنساني ملازما للحنّاء ورسومها ليمتزجا الإثنان لونا وشكلا ويختزلان بذلك فكرة الوشم. « من المؤكد أنّ الحرقوص يشكّل بديلا مناسبا للوشم كما هو شأن الحنّاء التّي تلعب هي أيضا هذا الدّور، وذلك حسب ما جاء في مرجعيّتها على أنّها جدّ مماثلة للوشم.» وقد يحيلنا تواصل وضع الحنّاء بطريقة عفويّة دون البحث عن شكل معيّن إلى ما كانوا يقومون به اللّيبيون القدامى في طلاء أجسادهم[180]. لتختزل بذلك الحنّاء أولى التصوّرات التّي جاء من أجلها الوشم كالحماية والوقاية.

لون الحنّاء أو هما لونان طبيعيان إن لم نقل ثلاث أخضر فأحمر فأسود في مرّات عديدة يمثل منطلق الأبعاد الرّمزيّة. فهي تلك النبتة الخضراء لتعطي فيم بعد الصّبغة الحمراء على الجلد وهو اللّون الذّي كثيرا ما مثل الشّغل الشاغل للمرأة. إذ لا تكتفي هذه الأخيرة بلون برتقاليّ فاتح أو باهت وإنّما تحرص على أن يكون الأحمر البنّي القاتم أو الأسود في أحيان كثيرة.

و لعلّ ما شدّ الإنسان الأوّل لنبتة الحنّاء ووضعها على الجسد هو الثّنائية بين الأخضر والأحمر« وينطوي اللّون الأخضر في علاقته باللّون الأحمر ضمن حركة رمزيّة تبادليّة. و اللّون الأخضر هو رمز للماء و الأحمر رمز للنّار. ولهذا السّبب فإنّ الإنسان يشعر دائما وبصفة عفويّة أنّ هذان اللّونان يمثّلان كيانه ووجوده.»[181]. وما الماء سوى دلالة على الخصب والحياة وأمّا النّار فهي قوّة الحياة وصلابتها.

من هذا المنطلق، فإنّ اللّونان الأخضر والأحمر إنّما هما في نهاية المطاف رمزا للمرأة والرّجل؛ طرفان يمثّلان نشأة الإنسان واستمراريّة الحياة« لتتضح العلاقة كثنائيّة قائمة على أساس التكامل بين الجنسين: فالرّجل هو الذّي يبعث الحياة في رحم المرأة وهاته الاخيرة هي التّي تمنح الحياة للرّجل باعتبارها مصدره الأوّل للغذاء: الأحمر لون ذكوري والأخضر لون أنثوي»[182].

يلخّص كلّ من الحنّاء والحرقوص في ثلاث ألوان رئيسيّة أخضر فأحمر فأسود. ألوان بإمكانها أن تُقرأ كتجسيد لمراحل حياة الانسان. تنطلق من الانبعاث (حياة جديدة كالولادة والزّواج...) فالدّخول في ما بعد الحياة الجديدة المتوهّجة، فقوّة تلك الحياة. ليكون الأسود كرمز لعمليّة إعادة البناء وأمل دائم في الاستمراريّة باعتباره« يمثّل في الأصل رمز الخصوبة مثل ما جاء في مصر القديمة أو في شمال افريقيا. وهو رمز الأرض الخصبة والسّحب التّي تومئ بنزول المطر»[183].

---

[180]- Renaut Luc : *Recherches sur le henné antique*, Op. cit. (p 193-212)p 208.

[181]- Chevalier Jean et Alain Gherbrant : *Dictionnaire des symboles ; Mythes, rêves, coutumes, gestes, formes, figures, couleurs, nombres*. Op. cit. p1002.

[182]- Ibid

[183]- Ibid. p 671 - 672

و من المؤكد أنّ في ألوان الحنّاء علاقة بألوان مقرّات الأولياء الصّالحين إذ هي تمثّل نفسها أخضر وأحمر وأسود. فمن المحتّم أن يغطى الضّريح برداء أخضر أو أحمر أو هما معا وأن يعاد اللّون الأخضر ليطلي مناطق من الجدران أو الجدار بأكمله أو الأبواب. ويكاد لا نرى داخل المقرّ سوى اللّون الأخضر هنا وهناك. ويندرج ذلك ضمن علاقة اللّون بالمعتقد الدّيني« إذ يرمز هذا اللّون في الإسلام إلى المعرفة والدّراية كما هو شأن الرّسول (ص) والأنبياء الذّين يمثلون في الجنّة بلباس أخضر اللّون»[184]. وهو ما يفسّر لنا الرّداء الأخضر الذّي يوضع على الضّريح باعتبار صاحبه رجل دين ذو شأن وجاه .

نستنتج من هذا المنطلق أنّ حضور الحنّاء في الزّوايا وإقحامها كأداة تواصل بين الزّائر والولي أو الإنسان والمقدّس يبرّر من خلال لونها الأخضر النّباتي أو ذاك الاحمر الصبغي. و في كلّ الحالات فانّه بامكاننا انطلاقا من هاته الصورة بيان تلك العلاقة الرّمزية التّي تجمع بين الالوان والمعتقدات لتنصب كلّها في سياق واحد ألا وهو الانسان و الطبيعة بما تحويه من وجود و عدمه.

- **رمزيّة الأشكال:**

قد لا نرى من رسوم الحنّاء التي تزيّن أيادي وأقدام النّسوة سوى أشكال جميلة وألوان جذّابة ليتناسق الشّكل واللّون وتتّضح لنا الصورة كعمليّة فنيّة دقيقة. ولعلّ هاته الدّقة في حدّ ذاتها تكشف لنا في الآن نفسه أنّ فكرة الرّسم لم تكن اعتباطيّة بقدر ما هي متجذّرة في أشكالها ومعانيها. حتّى وإن غيّبت تلك الدقّة أو ذاك الجانب الجماليّ بمواضع أخرى دون الجسد كالجدران مثلا فإنّه وفي كلّ الأحوال لا يمكن الحديث عن رسم من دون شكل ما. وبين هذا وذاك فإنّ الرّسم بالحنّاء باختلاف مواضعه لا ينمّ سوى عن منطلق واحد وهو التصوّر الشّعبي تجاه الشّكل المرسوم وموضعه في علاقة بالزّمان والمكان وهو ما التمسناه من خلال دراستنا هذه بجهة بنزرت.

و خلاصة القول، فإنّ رسوم الحنّاء على الجسد تلك التّي اتّخذت طابعا فنيّا أسهم في زينة المرأة وأضفى عليها جانبا جماليّا بامتياز لم تكن بمنأى شكلا ورمزا عن الرّسوم الأخرى بمختلف مواضعها. قد تخصّص أشكال بأماكن معيّنة ضمن إطار زماني معيّن أو قد تحضر بمنطقة من مناطق الجهة في تركيبة مختلفة عن منطقة أخرى ولكنّها تمثّل منطلقا واحدا لتنصب كلّها في نفس السّياق.

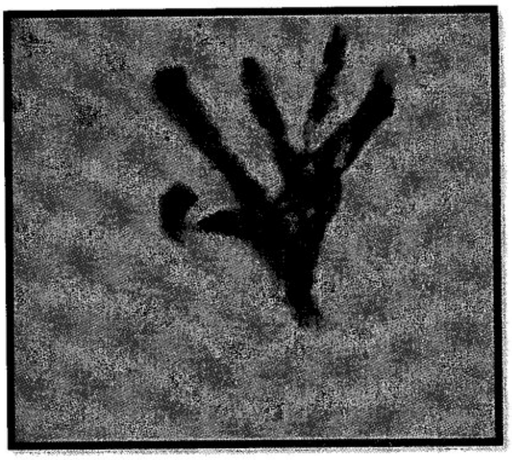
ويمكن تلخيصها إجمالا في أشكال تصويريّة تلك التّي تصوّر الإنسان أو الحيوان (كصورة اليد التّي تتكرّر على الجدران وصورة السّمكة في الكفّ) وأشكال كتابيّة أن تكتب تعبيرات كلاميّة وصيغ دلاليّة بالحروف والأرقام (كالنّصوص المكتوبة بالزّوايا أو الأحرف الأولى من اسم العروس وعريسها في 'حنّة

[184]- Chevalier Jean et Alain Gherbrant : *Dictionnaire des symboles ; Mythes, rêves, coutumes, gestes, formes, figures, couleurs, nombres*. Op. cit.p 674

لعروسة') وأشكال هندسيّة انطلاقا من الدّائرة و المثلث... والتّي تقودنا في مجملها لتلك «الرّسوم المعتادة المتجذّرة عن الزّخرفة البربريّة كالصّليب والحرف V (chevron) وأسنان الذّئب والقرن والمثلّث والمعيّن» [185] بتعبير برتلون Bertholon. إلى جانب أشكال نباتيّة كالورود و الفروع.

❖ **الأشكال التّصويريّة** :

- **اليد** :



صورة رقم82: شكل اليد



صورة رقم83: شكل اليد

إنّ صورة اليد التي كثيرا ما تتكرّرعلى جدران الزّوايا هي تلك ما نسمّيها 'الخمسه' في مجتمعنا التونسي أو ما تعرف أيضا بيد فاطمة (ابنة الرسول) أو فطيمة في المغرب[186]. تكون في شكل كفّ متلاصقة الأصابع وتصنع من الذهب أو الفضّة أو النّحاس أو العاج أو غيرها من المواد المعدنيّة. وتعلّق في أماكن مختلفة للحماية من العين والحسد و السّحر وكلّ الشّرور التّي يمكن أن تلحق الاذى.

يستمدّ الرّقم خمسة أهميّته داخل منظومة الرّموز من إحالته الجسديّة المباشرة، فهو عدد مطابق لأقسام الجسم، وأيضا الأطراف والحواس، ليصبح بذلك رمزا للإنسان نفسه. أمّا الخمسة المستعارة من اليد فقد اختزلت في الرّقم خمسة المعادل لعدد أصابع اليد الواحدة والذّي يحمل في ذاته قوّة سحرية خفيّة

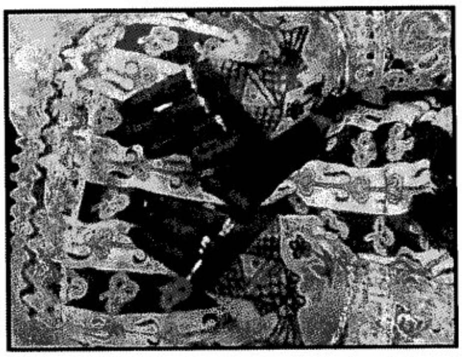
185- L.Bertholon / E. Chantre : *Recherches anthropologiques dans la berbérie orientale* : Tripolitaine, Tunisie, Algérie. A. Rey, imprimeur- éditeur 4, Rue Gentil, Lyon 1913 p484.

186-Mallek Chebel: *Dictionnaire des symboles musulmans: Rites, mystique et civilisation,* Op. cit. P 255

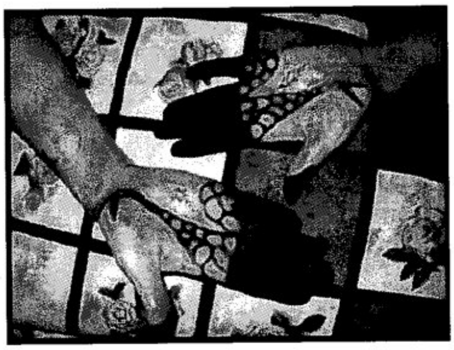
خيّرة تجعله رقية يستعاذ بها من كلّ سوء، ممّا جعله يستعمل على نطاق واسع في تصنيف الأشياء وتمييزها تبرّكا وتيمّنا، كالاحتفال بالزّواج ليلة الخميس[187].

وتتّخذ الخمسة على الجدران هيئات مختلفة، كأن تكون في شكل يد مفتوحة مرفوعة أو أن تختزل في خمسة خطوط. كما يمكن أن تكون عبارة عن رسم باستخدام مادّة الحنّاء أو دم أضحية. مدّ كفّ اليد مفتوحة في وجه عدوّ أو خطر محدق هو إشارة دفاع معروفة منذ القدم[188] « ولأجل ذلك ظل الناس يعلقون صورة الكفّ لدفع الشر لأن الكفّ يحمل من خلال اسمه الدعوة إلى الكفّ والإقلاع والإمتناع عن نيّة وعزم فعل الشرّ كما يرمز إلى الضرب بالكفّ الذّي يتعرّض له فاعل الشرّ»[189].

- **السمكة** :



صورة رقم 84: حنة الحوته



صورة رقم 85: حنة بعبوص الحوته

ويحضر رمز السّمكة بقوّة في التّراث البنزرتي بدءا بجملة من الأقوال المتداولة لطرد العين وإبعاد الحسد كـ "الحوت عليك"، "حوته وخمسة وقرن غزال"... فنجدها معلّقة بثياب الرّضيع حديث الولادة إذ تحرص الأمّ على وضع سمكة من الذّهب أو الفضّة في ملابس مولودها حتّى لا يمسّه سوء " تُطيّر النّفس". كما لا ننسى السّمكة المطرّزة التّي كانت ترافق العروس ليلة زفافها، ممسكة إيّاها واضعة يديها فوقها، وذلك لوقايتها من العين. لتعلّق فيم بعد في غرفة نومها وكأنّها ستظلّ تحرسها كامل حياتها الزّوجيّة.

والطريف في الأمر، أنّ حضور رمز السّمكة في المتخيّل الشعبيّ البنزرتي، لم يقتصر على الصّورة لهذا الحيوان. وإنّما يتجاوزها لتحضر ككائن حقيقي في طقوس الزّواج. من ذلك ما تذهب إليه

187- Herber, J. « *La main de Fatma* », Revue Hespéris, Tome VII, 1927, Paris, p.211

188- Mallek Chebel: *Dictionnaire des symboles musulmans:Rites, mystique et civilisation* Op. cit. P 255

189 صالح بن حمادي: **بحوث في الأساطير الشعبية التونسية** تونس 2007 ص 303

العديد من العائلات بقرية الماتلين، على الاحتفال باليوم الثالث " نهار الثالث" أو نهار 'تْكَرْكِيرالحُوتة' أي جرّ السّمكة. ولعلّ هاته التّسمية تلخّص تلك العادة المتّبعة .حيث يقوم العريس بشراء كميّة من السّمك ويقع الاختيار على أكبرها حجما. لتربط بشريط قماشي وتلفّ حول ساق العروس الّتي تقوم بجرّها في مشية بطيئة مرفوقة بزغاريد النّسوة وهتافهنّ. كما تقوم إحداهنّ برمي تشكيلة من الفواكه الجافّة والحلوى خلف العروس أثناء مشيها ليلتقطه الأطفال بلهفة. وتطبخ تلك السّمكة فيم بعد إلى جانب بقيّة السّمك المشترى ليتقاسمها الحاضرون في جوّ احتفالي.

وفي السّؤال عن هذه العادة تجيبنا الحاجّة هُنَاني* فتقول: « تْكَرْكِير الحُوتَه يجلب الخير للعرايِسْ ويكون زواجهم مبروك وتَعْمِر دارهم بالمال والصْغَار». ولعلّ هذا الطّقس يفسّر من ناحية أخرى أهميّة حضور السّمكة في المخيّلة الجماعيّة لجهة بنزرت على أنّها رمز للخصوبة.

كثيرا ما تعمد العائلات خصوصا من تقطن منها مناطق ساحليّة إلى اتّخاذ ذيل سمكة كبيرة الحجم لتعلّق كتعويذة إمّا عند مدخل المنزل أو وسط الدّار'عل العين'. وبتعبير برتلون «ترمز كلاّ من السّلحفاة والسّمكة والثّعبان إلى الوقاية من العين الشرّيرة».

و من الأغاني التراثيّة الّتي تبيّن تلك العلاقة القائمة بين السمك والحنة:

الحـــوت الحــوت حنّة كَحْلا كيف الثُوت

يا بنيّة ترضاني نْموت نا حبيبك ما نِيشْ برّاني *[190]

ترجع رمزيّة السّمكة إلى الماء الّذي تعيش فيه وهو يمثل أساس الحياة. وهي رمز الخصوبة والتكاثر نظرا لسهولة و كثرة عدد البيض الّذي تضعه للتّفقيص .كما استمرّ هذا المعتقد مع الدّين الاسلامي و ذلك بربط السّمك بفكرة الخصوبة[191].

الخمسة والسّمكة يشكّلان معا أقوى الرّموز في المتخيّل الشعبي الذي يسوس بهما مشاعر القلق والرّيبة في المجهول، فتكونان حصنا منيعا تنحسر فيه المخاوف ممّا هو آت[192].ليحضرا معا في جملة من الاقوال الشفوية التراثية لطرد شر العين الحاسدة و منها"حُوت يا حوَّات اليُوم خْميس وغُدوة خْميس الحاضر محمّد والغايِب بْليس""حوته وخمسة و قرن غزال".

---

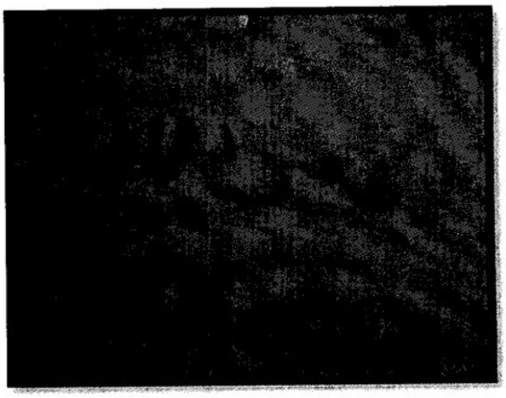
* الحاجّة هناني البحري 68 سنة، من قرية راس الزّبيب

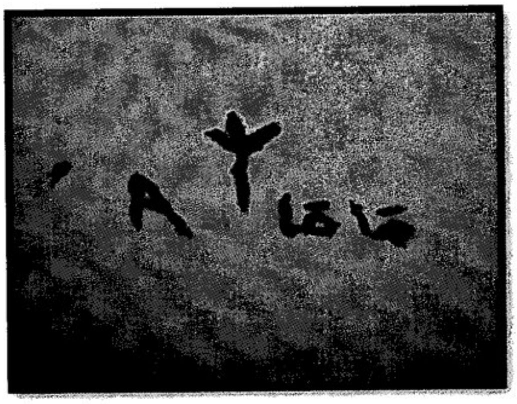
[190]- الصادق الرزقي، **الأغاني التونسية**، م.س، ص 276

[191]- Chevalier Jean et Alain Gherbrant : Dictionnaire des symboles ; Mythes, rêves, coutumes, gestes, formes, figures, couleurs, nombres. Robert Laffont / Jupiter, coll. Boquins Paris 1990 p 773

[192]- Douglas, Mary, *De la souillure. Essai sur les notions de pollution et le tabou*, Paris, Maspéro, 1971, p. 81.

الأشكال الكتابية:





صورة رقم86: كتابة في شكل دعاء

صورة رقم 87: المزج بين الكتابة والأشكال الهندسية

تتّخذ الأشكال الكتابيّة أنماطا متعدّدة. كأن تقتصر أحيانا على الأحرف تحديدا الأحرف الأولى من أسماء أشخاص أو أن يكتب الاسم كاملا سواء بلغة عربيّة أو أجنبيّة. أو أن تكون في شكل كلمات ذات منحى ديني إسلامي كالله ورسوله محمد. أو أن يعمد زائر الولي إلى جمل تكون في شكل دعاء تلّخص حاجته. وكثيرا ما تحضر هاته الأشكال مصحوبة بأشكال أخرى كالحرف V أو النّبتة المقدّسة.

وتمثّل الكتابة بصفة عامّة أداة تعبير وتواصل وهو ما نلتمسه في علاقة الإنسان بحائط مقرّ الولي الذّي يمثّل ذاك السّلطة الخفيّة في قضاء شؤون زائره.

❖ **الأشكال الهندسية:**

- **الدائرة:**



صورة رقم88 : العجينة تتخذ شكل الدائرة

ما إن تتمّ المرأة عجن حنّتها حتّى تعمد في أغلب الأحيان، إلى تشكيلها بيدها لتتّخذ موضعها من الإناء في شكل دائري ثمّ تغمس إصبعها في العجينة لتتضح دائرة أخرى في الوسط.

فالشّكل الدّائري مع الحنّاء يكون منذ البدء ليتواصل مع الرّسم فيم بعد. و منطلق فكرة الارتباط بين المرأة والرّجل تكون في شكل دائرة من الحنّاء تتوسّط كفّ العروس كرمز للاتّفاق. كما تكتفي الكثيرات من كبار السنّ بشكل دائري يزين أكفّهنّ.

يشير محيط الدّائرة إلى اللاّمتناهي الذّي لا تحدُّه بداية أو نهاية. وكما ذهب برتلون Bertholon فإنّ البعض من العلامات مثل الشّمس والقرص والنّجوم والهلال تتّخذ منحى ديني في التّقاليد الإسلاميّة ويعتبر الشّكل الدائري الأكثر تداولا [193]، فالدائرة هي رمز المطلق، حيث نجد الورود في شكل دائري ذي معنى وقائي ضد العين الشريرة. وصورة العجلة في شكل زهرة هو رمز الحياة ودوام الحياة الأرضيّة.و يكمن بعدها الوقائي في شكلها المغلق، فالبيضة الكونيّة تؤول بوصفها رحم الأمّ الجامعة التّي لا تزال البشريّة تحيا فيها حتّى الآن [194]. ليحيل البعد الرّمزي للشّكل نصف دائري انطلاقا من رمزيّة الدّائرة ذاتها القائمة على الإنجاب والخصوبة.

- **<u>النقطة</u>**: تمثل القوّة الخلاّقة ونهاية كلّ الأشياء[195].

- **<u>الصليب</u>**: ويرمز الصّليب إلى الحياة الأبديّة، وهو مستخدم في ديانات عدّة مع بعض الفروقات الطفيفة... يعتبر من أكثر الأشكال انتشارا في بلاد الجزائر وتونس وهو في الأصل شكل ليبي [196] يرجع إلى العصور القديمة croix lybienne. يمثل الاتّحاد بين الجنسين الذّكر و الانثى، يحدث التّقاطع ويستمرّ النظام باستمراريّة الخصوبة و التكاثر.

- **<u>المثلث</u>**: يمثل المثلث ثنائيتي الرجل والمرأة. قاعدته إلى أعلى فهو رمز النار ويمثل الجنس الذكري. أما إذا كانت قاعدته إلى أسفل فهو رمز الماء والجنس الأنثوي [197].

---

[193]- L.Bertholon / E. Chantre : *Recherches anthropologiques dans la berbérie orientale : Tripolitaine, Tunisie, Algérie*. Op. cit. p191

[194]- مرسيا الياد، **البحث في التاريخ والمعنى في الدين**، م.س، ص 271.

[195]-Chevalier Jean et Alain Gherbrant : *Dictionnaire des symboles ; Mythes, rêves, coutumes, gestes, formes, figures, couleurs, nombres*. Op. cit. p769

[196]-Gober (E.G) : *Parfums et tatouages*, Op. cit. p98.

[197]-Chevalier Jean et Alain Gherbrant : *Dictionnaire des symboles ; Mythes, reves, coutumes, gestes, formes, figures, couleurs, nombres*. Op. cit. p 968.



صورة رقم 89: شكل المثلث

- **الحرف V (Chevron):**



صورة رقم 90: الحرف V

شكله متموّج بسيط أو مركّب، يرمز لحركيّة الماء. ويرمز لحياة جديدة أو إعادة الحياة. ويكمن وجه التّشابه بين الماء والحرف A في كون الماء هو أساس الحياة والحرف A هو بداية كلّ كتابة[198].

وهو من العلامات الأكثر بروزا في الرّسوم الشّعبية خصوصا في الوشوم و بعدها الحرقوص.

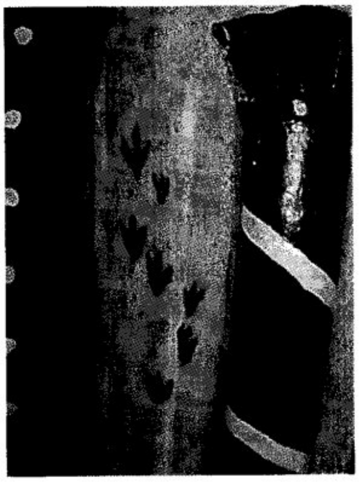
كما يمثل أيضا جزءا متمّما للفنّ البربري الشرقي إلى جانب أشكال أخرى هندسيّة ورسوم حيوانيّة وبشريّة.وتداولت هاته العلامة كثيرا على شاطئ المحيط الأطلسي والنّيل وفي افريقيا الشماليّة والصّحراء[199].

198- Chevalier Jean et Alain Gherbrant : *Dictionnaire des symboles ; Mythes, reves, coutumes, gestes, formes, figures, couleurs, nombres*. Op. cit, p239.
199-Mebarek Slaouti Taklit: *L'alphabet latin serait-il d'origine berbére ?* L'harmattan 2004 p 90.

- **النّبتة بثلاث فروع**



صورة رقم 91: شكل النبتة بثلاث فروع



صورة رقم 92: تكرار شكل النبتة بثلاث فروع

تظهر هذه العلامة في شكل ثلاث خطوط تنطلق من نقطة واحدة وليس بإمكانها الالتقاء ويسمّى بساق الإوزة patte d'oie ومع امتداد الخطّ الوسط أصبحت تسمّى بالنبتة ذات ثلاث فروع[200].

❖ **الأشكال النباتية :**

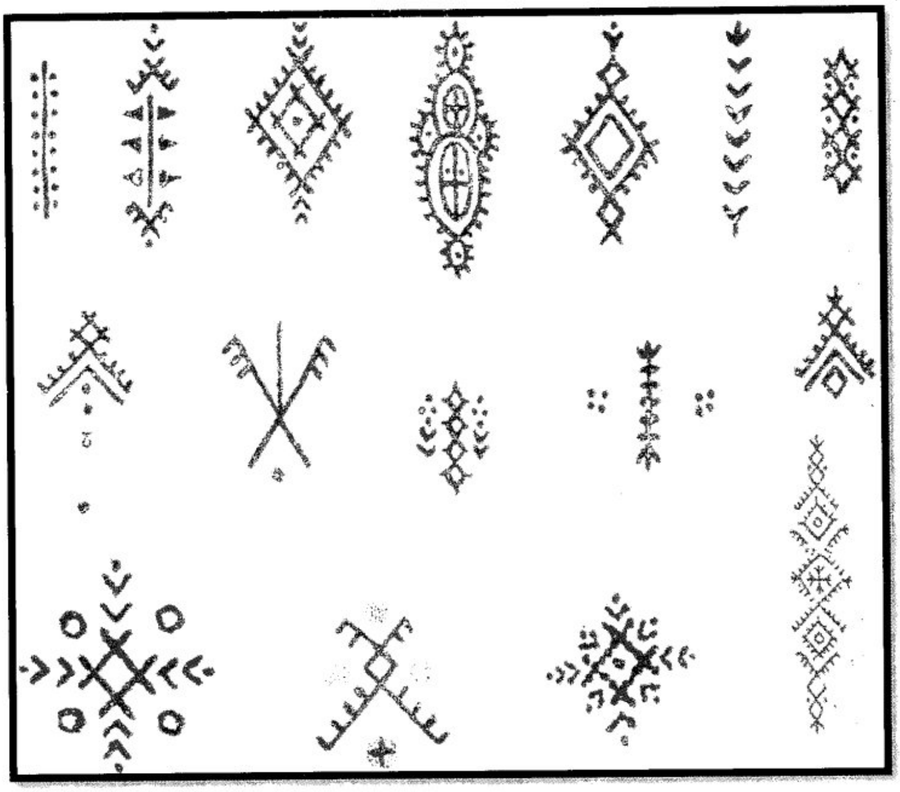


صورة رقم 93: ورود مجرّدة في شكل نقاط

تتمثّل الأشكال النباتيّة في الورود والفروع. والتّي من الممكن أن تتجرّد لتكون مجموعة من النقاط في شكل دائري. كما أنّها كثيرا ما تكون مصحوبة بأشكال هندسيّة. وبالرجوع لرمزيتها فإنّ النّبات يمثّل الأرض والخصوبة فالنّبة ليست سوى الإنطلاقة الأولى للحياة[201]. وهي من أهمّ الاشكال الزّخرفيّة في الفنّ الاسلامي باعتباره يحرّم تصوير الانسان و الحيوان.

[200]- Mebarek Slaouti Taklit : *L'alphabet latin serait-il d'origine berbére ?* Op. cit. p 92.
[201]- Ibid., p 764

ويمكن أن نجمع في آخر المطاف، أنّ غالبيّة أشكال الحنّاء لم تكن سوى نفسها للوشم ومن ثمّ الحرقوص. وهي ذاتها الّتي رُسمت على الفخّار كتلك الأشكال الهندسيّة البربريّة الّتي لا تزال المرأة السجنانيّة تكرّرها في أوانيها الفخاريّة. أوهي تلك الاشكال الّتي تزيّن الانسجة و الالبسة ومنها ما نجده في طريزة رفراف الّتي تعمد المرأة الرفرافيّة الى تطريزها في لباس العروس متّخذة بعدا جماليّا بامتياز.و بعبارة برتلون «فالأسلوب المعتمد في الوشوم مطابق لما جاء في الرّسوم الفخاريّة،وهناك ارتباط بين الزّخرفة الفخاريّة وجلد الإنسان»[202].



وثيقة رقم 2: أشكال الحرقوص نجد البعض منها في الوشوم وفي الزخرفة الفخارية عن ج.هربر J. Herbert

J. Herber, « Harqūs », Encyclopédie berbère, 22 | Hadrumetum – Hidjaba, Aix-en-Provence, Edisud, 2000 (p 3409-3414) P3413

فالرّموز بمجملها و مهما اختلفت المحامل التي ترسم فوقها ليست سوى وليدة التّعاقب الرّمزي المتمثّل في أرض/ أم وقمر/ ماء وجنس/ خصوبة و نبات/ انبعاث[203] بتعبير شفلييه Chevalier.

---

[202]- L. Bertholon et E. Chantre : *Recherches anthropologiques dans la berbérie orientale : Tripolitaine, Tunisie, Algérie*. Op. cit. p484

[203]- Chevalier Jean et Alain Gherbrant : *Dictionnaire des symboles ; Mythes, reves, coutumes, gestes, formes, figures, couleurs, nombres*. Op. cit. p 227

و عند المقارنة بين أشكال الحنّاء وبعض العلامات من النّحت على جدران الكهوف والقطع الأثريّة المنتمية إلى مختلف الثّقافات الأولى التّي عرفتها الإنسانيّة. نجد نفس المبادئ في استخدام العلامات والنّماذج والأشكال بل ويمكن أن يصل الحدّ إلى التّطابق وذلك حتّى مع مظاهر العصر الحجري القديم.

«فالثقافة العربيّة لم تكن في معزل عن المؤثّرات الأجنبيّة القديمة الهنديّة واليونانيّة والرّومانيّة والفارسيّة والمصريّة القديمة. وهذا لعلّه يعني أنّ الثقافة العربيّة، تستقي جذورها من رصيد ثقافي إنساني قديم لا تزال آثاره موجودة في تقاليد العديد من الشعوب البدائيّة التّي شكلت موضوع الدّراسات الانثربولوجية الميدانية»[204].

6. الأبعاد الاجتماعيّة الثّقافيّة:

تُفهم ثقافة الفرد على كونها كلّ ما اكتسبه ضمن مجتمع ما وهو ما ذهب إليه انتوني غدنز بقوله:« تعني الثّقافة في نظر علماء الاجتماع جوانب الحياة الإنسانيّة التي يكتسبها الإنسان بالتعلّم لا بالوراثة. ويشترك أعضاء المجتمع بعناصر الثّقافة تلك التذي تتيح لهم مجالات التّعاون والتّواصل وتمثذل هذه العناصر السّياق الذّي يعيش فيه أفراد المجتمع»[205].

و يفهم من ذلك أنّ صفات وسلوكات الإنسان تحمل أثر الثّقافة سواء تعلّق الأمر بالتّصرف أو التّفكير أو الإحساس بحيث يتعذّر العثور على صفة لم يضف عليها الطابع الثّقافيّ. وعلى حدّ عبارة مرسيا إلياد « مهما كانت النّقطة التّي ينطلق منها التّحليل الهادف إلى تعريف الإنسان، سواء اعتمد الطرح النفساني أو الاجتماعي أو الوجودي أو أي معيار آخر نستعيره من الفلسفات الكلاسيكية، فإنّه لا بدّ من أن يصل، ضمنا أو صراحة إلى وصف الإنسان بأنّه مبدع للثّقافة (أي للغة والمؤسسات والتقنيات والفنون ...)[206]» ذاك الابداع الذي لا يمكن ذكره بمعزل عن المجموعة، ليكون رهين فكر جماعي في منطلقه، خصوصا وأنّ « ثقافة أي أمّة تتكوّن من ركيزتين مهمّتين: إحداهما شفويّة مأثورة بين النّاس وتتناقل وتستمرّ عبر الذّاكرة، والنّقل الشّفهي إنّها تمثل مادّة البحث الفولكلوري والثّقافة الشعبيّة للمجتمع. والأخرى مدوّنة ومؤرشفة مثل مادّة البحث التّاريخي...»[207].

---

[204]– صوفية السحيري بن حتيرة، **الجسد والمجتمع**، م.س، ص 176

[205]– انتوني غدنز، **علم الاجتماع**، م.س، ص82.

[206]– مرسيا الياد، **البحث في التاريخ والمعنى في الدين**، م.س، ص 154.

[207]– محمد بيومي مهران، **المغرب القديم مصر والشرق الادنى القديم** (9) م.س، ص 50.

فحتّى الجسد الذّي يعدّ معطى طبيعيّا، لا يسلم بدوره من التكييف الإجتماعيّ كما يتجلّى ذلك في العديد من الممارسات كالوشم والختان أن للاختبار الجسدي، قوّة ملزمة لا يعادلها أيّ فهم عقلي. فهو الذي يظهر منافع النّظام الاجتماعي الديني العجيبة[208].

و وضع الحنّاء التي قد تبدو لنا مجرّد فعل فرديّ بسيط في أحيان كثيرة ولكن سرعان ما تقودنا أحيانا أخرى إلى كونها ممارسة لا تمارس إلاّ على شاكلة الجماعة. لتكون ظاهرة من إحدى الظواهر التي تمتّ بصلات متعدّدة للنّسق الاجتماعيّ.

حضور الحنّاء داخل مجتمع ما لم يكن في حدّ ذاته بالأمر الاعتباطي بل هو موروث له ضوابطه وقوانينه المتّفق عليها في إطار زماني ومكاني محدّد. فاستعمالها يقوم على ثنائيتي التّناقض بين الوجوب وعدمه. كإلزاميّتها في الأفراح ومنعها في الأتراح، أو إلتصاقها إلتصاقا شديدا بمكان ما إلى درجة أن يجهل معرفته في غيابها كالزّوايا، والحرص على عدم إبقاءها بأماكن أخرى كالبيت خوفا من أن تجلب النّحس لأفراد العائلة. ومن ثمّة فإنّ هذا التّقليد بجهة بنزرت لم يكن بمعزل عن تصوّرات اجتماعيّة ثقافيّة والتّي قد تتجلىّ لنا أكثر في جملة السّياقات التّي تتمّ ضمنها.

' فحنّة العروسين ' لم تكن بمنأى عن المجموعة، بل هي تنطلق منها لتتّخذ شكل سلطة جماعيّة تجاه الفرد من ناحية، وذلك بإلتزامه بجملة من الطّقوس المتّفق عليها. وأخرى فرديّة تجاه الجماعة، كوجوب الحضور الجماعيّ ليتمّ الاحتفال بالفرد. وبين هذا وذاك نتبين أنّ تلك العلاقة هي التي تشكّل ما يُعرف بالمجتمع « فإنّ مفهوم البنية الاجتماعيّة هو من الموضوعات المهمّة في علم الاجتماع. فهو يشير إلى أنّ السّياقات الاجتماعيّة في حياتنا لا تتكوّن من تشكيلة عشوائيّة من الأحداث والأفعال، بل إنّها تُبنى أو تُصاغ بأساليب متميّزة، وهناك ايقاعات منتظمة لأساليب السّلوك والعلاقات التّي يقيمها أحدنا مع الآخر.»[209].

و ليلة 'حنة العروسة' أو « ليلة الحنّاء هي من أهمّ المراحل المتّبعة في حفلات الزّواج في كلّ المجتمعات الإسلاميّة دون إستثناء من المغرب إلى أندونيسيا فهي تمثّل رمزا لهذا الطقس الاحتفالي.»[210].

و لعلّ هاته الأهميّة ، لم تأت لتكون مجرّد اجتماع مصغّر يجمع بين العروس وقريباتها أو صديقاتها بل يتجاوز الأمر ذلك لتُشكّل هاته الليلة طقسا اجتماعيا يكرّس قيم التواصل والتضامن الاجتماعي. وهو

208– رينيه جيرار، **العنف والمقدس**، م.س، ص479.

209– انتوني غدنز، **علم الاجتماع** ، م.س، ص51.

210– Aline Tauzin « *Le Henné, art des femmes de Mauritanie* »,Op. cit. P11

بمعنى آخر أداة لضبط أفراد المجتمع وتنظيمهم في إطار ثقافي معيّن بما يحقق استقرارهم واستمراريّتهم في الحفاظ على زادهم الوراثي الذّي يتجلّى انطلاقا من ممارسة الحنّاء وطقوسها الاحتفاليّة بما فيها طرق رسمها واللّباس والغناء. ولعلّ ما التمسناه في الأجواء الاحتفالية بليلة الحنّاء في مدينة العالية وحذق بناتها وحرصهنّ على وضعها أبرز دليل على ذلك.

لتتّضح لنا ممارسة الحنّاء على هاته الشّاكلة سلوكا متكرّرا أو هو مستمرّا يكتسب اجتماعيّا ويمارس اجتماعيّا ويتوارث اجتماعيّا.

و أمّا ليلة الحنّة بالنّسبة للعروس فهي تتحوّل من مجرّد احتفال إلى صورة تمهيديّة نفسيّا واجتماعيّا للدخول في علاقة أسريّة جديدة. ففي جلوسها وسط الصديقات والقريبات وهي تتزيّن بالحنّاء، كأنّنا أمام مبدأ الكلّ للفرد ليُختزل التجمّع بذلك على كون الواحد من الكلّ ويفهم على كونها علاقة تبادليّة تكامليّة بين هذا وذاك الأمر الذّي يستوجب عليها الإندماج الأسري في وضعيتها المقبلة.

وكذا هو شأن ليلة حنة المطهّر فبجلوس الطفل وسط جمع من النّسوة ليتحنّى تمثّل عمليّة تمهيديّة تمكّنه من الانتقال من الجانب الطفولي الأنثوي إلى الإلتحاق بالجانب الذكوري.

من الملاحظ أنّ كلّ تغيير يخصّ جانبا حياتيا للفرد تحديدا انتقاله من وضع لآخر كالزّواج والختان والولادة لا يتمّ إلا بمشاركة الجماعة. والفعل الطقسي في حدّ ذاته ينبع منها على اعتباره وراثي ويتماشى بحسب تشكّلها. وعلى حدّ عبارة رينيه جيرار « ففي طقوس العبور تكون الجماعة متورّطة بأسرها، حتّى ولو كان الاختبار المساري محصورا ببعض الأفراد. فما من طقس إلاّ ويطلق محرّك الإجماع التأسيسي »[211].

تشكّل طقوس العبور أداة عظيمة للحفاظ على النّظام الدّيني والاجتماعي بضمانها سيطرة الأجيال الغابرة عن الأجيال الصاعدة[212].

وملازمتها للتحوّلات التّي تطرأ في حياة الفرد ضمن طقوس مضبوطة « وفي أحوال كثيرة يكون التأهيل مناسبة لكي تقوم الجماعة بأسرها بتجديد ولادتها على نحو ديني. إذ أنّ الطقوس التأهيليـة ليست سوى تكرار للعمليّات التّي تمتّ في الزّمـان الأسطوري من قبل الكائنات الغيبيّة»[213].

حنّة العيد أيضا لعبت هذا الدّور الاجتماعي الذّي وكما يبدو جدّ لصيق بجملة الممارسات التقليدية. وإن هي اقتصرت في أغلب الأحيان على مجتمع مصغّر ونعني به العائلة أو الجانب الأنثوي تحديدا من

---

[211]– رينيه جيرار، **العنف والمقدس**، م.س، ص 478.

[212]– نفس المصدر السابق، ص479.

[213]– مرسيا الياد، **البحث في التاريخ والمعنى في الدين**، م.س، ص 227.

العائلة إلا أنّها لا تنفكّ في تحقيق نوع من التّواصل الأسري. وفي حنّة العيد بغار الملح التّي تمثل ملتقى من النساء والأطفال من الأقرباء أو الجيران فهي لا تنمّ سوى عن تلك الرّوابط الاجتماعيّة التّي قد تسهم المرأة بشكل كبير في بناء أسسها.

فلا زالت تحافظ هذه المدينة على طابعها التّقليدي في جوانب عِدّة وللمرأة 'الغار مِلْحية' الدور الأكبر في استمراريّة جملة من العادات وخصوصا الحفاظ على تلك الرّوابط الاجتماعيّة العميقة التّي أصبح وجودها شبه منعدم في مجتمعنا الحاليّ. فلازالت 'العِشْوية' (عبارة عن تجمّع نسائي من القريبات والجارات يتّم بصفة دوريّة تبادلية بينهنّ) مستمرّة بهذه المدينة. وقد تتجاوز كونها تجمّع نسائي ببيت إحداهن لمجرّد تبادل الأحاديث والحكايات، لتكون لكلّ واحدة منهن حرفة تمارسها في الأثناء والتّي تتمثل غالبا في الحِياكة والتّطريز وخصوصا 'حياكة الشّبِيكة' التّي تتميز بها مدينة غار الملح. لتبقى نموذجا عن صورة جماعيّة في التّشبث باستمرارية الموروث التّقليدي والثّقافي الذّي هو عبارة عن جملة من الممارسات تكتسي فحوى الفكر الجماعي.

و حنّة الولي الصالح لم تكن هي الأخرى بمنأى عن الجماعة ولعلّ في الرّسوم التّي تسكن الجدران وتكرّرها الأيادي لمعتقدات قد تختلف فحواها لا تنمّ سوى عن منطلق ثقافي موحّد. وهو مكان يتجاوز التّصوّر الفكري ليكون في أحيان كثيرة عبارة عن تجمّع بشري أو ما يعرف بالزّردة حيث تمتزج فيه الطقوس بالمعتقد وتتّضح الصّورة كفعل جماعي مشترك « لا شكّ في أنّ كون الفرد عضوا في مجتمع معيّن يحتّم على واقعة المقدّس ألا تتّخذ معناها الحقيقي إلا على مستوى هذا المجتمع »[214].

يمثل الموت هو الآخر رابطا اجتماعيّا بامتياز. فالمشاركة في مأساة الفرد واجبة على الجميع من العائلة و الأقرباء والأصدقاء. و هو حدث يمثل تذكير الجماعة بأمر حتميّ للبشر يكون في شكل يشوبه الخوف والقلق من المجهول. وبتعبير رينيه جيرار « حتّى ليبدو موت المعزول ضريبة واجب تأديتها من أجل تأمين استمرار الحياة الاجتماعيّة. يكفي أن يموت شخص واحد حتّى تتوطّد أواصر التّضامن والتعاضد بين الأحياء كافة »[215]. وهو ما تجسّده جملة من الواجبات والمحرّمات التّي على الجماعة التقيّد بها. و تحريم الحنّاء عند موت أحدهم ليكون بمثابة أمر قاطع يلتزم به الكلّ، يعكس دورها الاجتماعي بامتياز ويوضّح مدى حضورها كممارسة جدّ لصيقة بالفكر الجماعي.

وخلاصة القول فإنّ الحنة في كلّ استعمالاتها، إنّما هي وليدة رحم مجتمع ما بما يحمله من زاد ثقافي مشبع بأبعاد حضاريّة تاريخيّة.

---

[214]- روجيه كايوا، **الانسان والمقدس**، م.س، ص 52.

[215]- رينيه جيرار، **العنف والمقدس**، م.س، ص429 – 430.

7. الأبعاد الحضاريّة

كلّما كان البحث والتّدقيق في جملة الممارسات الّتي شملت الحنّاء، كلّما كان من الجدير بنا العودة إلى أولى استعمالات هذا النّبات الذّي يحملنا إلى الحضارات الأولى في التّاريخ البشري. قد ننطلق « من تسمياتها القديمة بوكيرpouquer في اللغة الهيروغليفية وكوبر بالعبريّة kouper وكيبروس kupros بالإغريقية[216]، ليحطّ بنا الرّحـال للبحث عن مكانتـها التاريخيّة و كيفيّة استمراريّتها عبر الزّمن.

تؤكّد المراجع و الدّراسات أنّ المصريّين القدامى هم أوّل من استخدموا الحنّاء«وقد ذكرت البرديات القديمة أنّ الفراعنة قد استخدموا الحنّاء في طقوسهم الدينيّة كما استعملوها في تخضيب المومياوات»[217].وفي كلّ الحالات تبقى الحقيقة التّاريخيّة لأصل الحنّاء واستعمالها كصبغة للجسد غير ثابتة وهو ما ذهب إليه جوبر« وجدت بكامل المنطقة الممتدّة بين الهند والنوبه من دون أن نتمكّن من معرفة موطنها الأصلي .»[218].

قد نسلّم عند البدء في الحديث عن الحنّاء كممارسة تقليديّة في المجتمعات الإسلاميّة أنّها نبتة تأتي حضورها مع الإسلام حتّى باتت لا تنعت في هذه المجتمعات سوى بنعوت دينيّة صرفة 'نبتة الجنّة' 'نبتة سيدنا النبي'... وبعبارة فندرهيدن " في الموروث الشّفوي يسهل وجود أحداث إسلاميّة سابقة لكلّ استعمالات الحناء "[219]. إلا أنّه وعند الغوص في حيثياتها سرعان ما تقودنا إلى ماض سحيق يسبق العهد الإسلاميّ بكثير لنجد أنفسنا هنا في موضع بحث عن تلك التّناقضات من الافعال الّتي جاءت مغايرة لما ورد في الأقوال والأحاديث الدينيّة.

ففي الأحاديث نجد أنّ الرّسول (ص) حثّ على الخضاب ونهى عن النقش « وروى المروذي في الورع نت طرق: عن عمر رضي الله عنه : أنّه نهى عن النّقش والتّطاريف، زاد في رواية: ويختضبن غمسا»[220].

و في حديث آخر « قوله : وحيث يُستحبّ الاختضاب إنّما يستحب تعميم اليد دون النقش، والتّسديد، والتّطريف فقد روي أنّه (صلى الله عليه وسلم) نهى عن التّطريف وهو أن تختضب المرأة أطراف الأصابع هذا الحديث لم أجده، لكن روى الطبراني في ترجمة أم ليلى امرأة أبي ليلى من حديث ابن أبي

216- Gober (E.G): *Parfums et tatouages*, Op. cit. p30

217- اكرم قانصو : **التصوير الشعبي العربي**، م.س، ص42.

218 Gober (E.G) : *Parfums et tatouages*, Op. cit. 2003 p 30

219 M .vonderheyden : *Le henné chez les musulmans de l'afrique du nord*, Op. cit. pp. 179-202. P194

220- أحمد بن علي محمد الكناني العسقلاني، **التلخيص الحبير في تخريج أحاديث الرافعي الكبير**، م.س، ص 452.

ليلى قالت: بايعنا رسول الله (صلى الله عليه وسلم)، فكان فيما أخذ علينا أن نختضب الغمس، ونمتشط بالغسل، ولا نقحل أيدينا من خضاب. وهذا لا يدلّ على المنع، بل حديث عصمة عن عائشة المتقدم عند أحمد وغيره فيه : لغيرت أظفارك. يدلّ على الجواز، إلا أنّ المصنّف نظر إلى المعنى في حال الإحرام خاصّة، لأنّها إنّما أمرت بخضب يديها لتستر بشرتها، فإذا أخضبت طرفا منها لم يحصل تمام التستر، وأيضا ففي النقش والتطريف فتنة، وقد أمرت بالكشف في الإحرام»[221].

ولكنّنا ما صرنا نعرف من الحنّاء غير الرّسوم والتّي لم تكن بدورها اعتباطيّة و إنّما تستمدّ معظم أشكالها من ماض سحيق سابق للدّين الإسلامي .

و لعلّ في الرّسم بالحنّاء على الجدران سواء في مقرّات الأولياء الصّالحين أو الحمّام أو المنزل، ما هي سوى ممارسة تعود بنا إلى منطلق الفكر البشري، الذّي اتّخذ من الجدران لوحته الكتابيّة التّي تلخّص أفكاره وتصوّراته، لتصلنا كرسوم مُشبعة بالرّموز والدّلالات. وإن هي اختلفت المادّة المّعتمدة في التعبير فإنّها - وتلك المادّة نفسها - لم تبخل البتّة في استمراريّة رسوم ذاك الإنسان البدائيّ ومعتقداته.

وممّا جاء في الإسلام أيضا أن يكون تخضيب اليدين والقدمين للمرأة دون الرّجل الذّي يقتصر استعماله على تحنية اللّحية والشّعر. لنجدها توضع له - ولو بالشيئ القليل- في جوّ احتفالي باعتبارها طقسا لا غنى عنه في حفلات الزّواج.

وفي تعدّد التّناقضات التّي أجمعت عليها الحنّاء كتجاوز ما دعى إليه الرّسول لتكون لها ممارسات مغايرة أو خلق ممارسات لا تمتّ بأيّة صلة لما جاء به الإسلام يؤكّد على مرجعيّتها السّابقة الموغلة في القدم.

كما أنّ حضور الحناء في تكفين الميّت يعود إلى أزمنة غابرة، منذ عهد الفراعنة الذين حرصوا على أن تكون هذه النبتة ضمن مستلزمات الدّفن، وأن توضع بالقبر في شكل بتلات أو باقة، لتنبعث منها رائحتها العطرة التّي ترافق الميّت لمثواه الجديد. كما استعملت أيضا وعلى هاته الشّاكلة في الفترة الرّومانية[222].

الحنّاء وفنون رسمها ظلت جزءاً من ثقافة آسيا وشرق إفريقيا على امتداد العصور، وليست فقط مجرّد رسومات ونقوش جميلة، لكنّها تقليد يرتبط ارتباطاً وثيقاً بالعادات، ومن المعتقد في الهند أنّه كلّما طالت الحنّاء في يد العروس كلّما عاملها أهل زوجها بشكل جيّد. أمّا إذا زالت الحنّاء بسرعة فهذا معناه أنّها لن تكون سعيدة في زواجها، وهو التّصوّر نفسه تقريبا الذّي نجده بجهة بنزرت " المرأة التّي تصبغ

---

[221]– عبد الله محمد ابن مفلح المقدسي، **الآداب الشرعية** م.س، ص 506.

[222]- Renaut Luc *: Recherches sur le henné antique*, Op. cit. (p 193-212) p 198

بها الحنّاء يحبذها زوجها أمّا من لا تصبغ بها فهي على عكس ذلك". وهو ما يحيلنا إلى العلاقة بين الفكر البشريّ و اللّون أو الأصباغ تحديدا التّي مثّلت بالنّسبة إليه رمزا للوقاية والحماية. « عرفت كلّ الشّعوب البدائيّة طقس طلاء الجسد إمّا بالوحل أو اللّون. يعتبرون أنّ في إزالة هذا الطلاء أو في تركه يمحى شيئا فشيئا إنّما وفي نفس الوقت يخلّصون أجسادهم من الشرورالخفيّة التّي من الممكن أن تلحق بهم الأذى[223].

وهو ما أكّدته جملة الممارسات على الجسد كعمليّة الوشم الذّي يعوّض في كلّ أشكاله الأصباغ الجسديّة التّي يعود استعمالها إلى العصورالقديمة[224]. كما « أشار هيرودوت إلى أنّ الوشوم والصّبغات الجسديّة كانت تمثّل في عهده مصدر فخر عند التراقيين. فالنّبلاء فقط لهم حقّ الوشم»[225] .

من ثمّ ظهرت فكرة الحرقوص ليعوّض الوشوم والذّي حافظ بدوره على نفس المنطلق ومثّل استمراريّة للأشكال. لتكون الحنّاء والتّي باتت في ثنائيّة معه تختزل ذاك التصوّر البدائيّ في صبغ الجسد وبتعبير برتلون « كما أنّ البربر لا زالوا يصبغون إلى اليوم حيث تعمد نساؤهم إلى صبغ أجزاء من جسدهن (الأيادي، الأقدام، الشعر) بالحنّاء». وهي لازالت إلى اليوم بمجتمعنا العربي بمثابة حصن منيع لجملة الخفايا والاخطار التّي بإمكانها إلحاق الاذى بالجسد البشريّ .

و بين هذا وذاك فإنّ الحناء في المجتعات الإسلاميّة، وإن هي استمدت في العديد من الممارسات لهاته النّبتة أبعادا دينيّة، إلا أنّه من المؤكّد أنّ حضورها يرتبط ارتباطا وثيقا مع الماضي البعيد. و بحكم ما يتّسم به حال الموروث الجماعي الذّي هو دائم الصراع بين الثابت والتغيير فلقد عرفت ممارستها نسقا تحكمه متغيّرات ما فتأت تتشكّل بتشكّل الفكر البشري عبر الزمن.« فالمعتقدات هي إرث عهد سحيق وهو ما يجعلنا نعتقد أنّ الثقافة تستمد جذورها من قاعدة إنسانيّة مشتركة وعامّة في الأصل ثمّ حصلت عنها تفرّعات تدخّلت في تكوينها عناصر محليّة وزمنيّة»[226].

و في نهاية المطاف يمكن القول، أنّ التطوّرات البشريّة لم تنفك عن تغيير نسق عيش الإنسان، كما لم تتمكّن الحداثة من محي استمرارية الموروث الثقافي لمجتمع ما. ولئن أضحت الكثير من الممارسات التقليدية تُمارس على شاكلة الحداثة أو وطأة ' الموضة '، هذا المصطلح العصري الذي أصبح هاجس الإنسان المعاصر. فإنّ بصمة التاريخ والتّي تتجسّد من خلال جملة العادات والتقاليد، وإن كانت بين الاضمحلال والتواصل، لا تنّم سوى عن تجذّر التّراث الشّعبي في الفكر الجماعي.

---

[223]- M . Vonderheyden : *Le henné chez les musulmans de l'Afrique du Nord*, Op. cit.. pp. 179-202.p 195

[224]- L. Bertholon / E. Chantre : *Recherches anthropologiques dans la berbérie orientale : Tripolitaine, Tunisie, Algérie*. Op. cit. p487

[225]- Ibid.

[226]– صوفية السحيري بن حتيرة، **الجسد والمجتمع**، م.س، ص177

وممارسة وضع الحنّاء أدمجت هي الأخرى في هذا النسق التصاعدي. فلم تعد لتخصّ مجتمعا ما بقدر ما تستند إلى ثقافة كونيّة وبتعبير انتوني غدنز « إنّ التّغييرات التّي تجري في عالم اليوم، قد جعلت الثقافات في المجتمعات أكثر تداخلا واعتمادا بعضها على بعض ممّا كان عليه الأمر في الماضي»[227]

[227] – انتوني غدنز، **علم الاجتماع**، م.س، ص111.

الخاتمة

كانت دراستنا للحنّاء بجهة بنزرت بمثابة منفذ لنطلّ من خلاله على المخيال الشعبيَ الذّي لا يمكن فهمه سوى عبر تلك الممارسات التّي تسكن مجتمعنا ونجهل في الآن نفسه سبب تشبثّنا بها. والحنّاء، هذا النّبات الصبغي، لم يكن بمنأى عن تصوّر جماعي مشترك يحدّد استعمالاته بضوابط ونواهي ليست سوى وليدة رحم " التّراكم الحضاريّ ". كما لا يمكن الحديث عن معتقدات من دون أبعاد رمزيّة جماعيّة تكشف عن الغاية من فعل أمر ما، وهو ما لمسناه من خلال كيفيّة توظيف الحنّاء في علاقة بالمكان والزّمان 'حنة لعروسة' 'حنة الولي" حنة الميت'..فاستعمالها لم يترك مجالا للاعتباطيّة او العفويّة، وانّما كان خاضعا لقواعد مضبوطة، وهو ما يفسّر اختلاف أشكال ممارستها حسب المناسبة والجنس والسن، فبين الأفراح والأتراح و الكبار والصغار تتّخذ الحنّاء تمظهرات متباينة تحيل على الكثير من الدلالات الرمزية، لتصبح لغة تعبّر بها الجماعة عن معتقداتها وتصوّراتها وما يعتمل في باطنها من مشاعر وأحلام.

واستعمال الحنّاء بالمجتمع البنزرتي يشترك عموما في تلك الغايات التّي جاءت من أجلها لتكون بمثابة رمز للفأل الحسن و جلب البركة. قد تختلف طرق ممارستها بين هذا و ذاك، ولكن المعتقدات تبقى ذاتها حيث كثيرا ما تعود إلى التصوّرات المتّصلة بالكون وبالطبيعة وبالوجود .

ولعلّ في اتّباع رسوم دقيقة ما يدلّ على أنّها لم لم تكن سوى مرآة تعكس الفكر والتصوّر لأمر ما. وهي بأشكالها الهندسية البربرية و النباتيّة والكتابيّة، تُكوّن مزيجا ثقافيا يحيلنا في مجمله على مرجعيّات تاريخيّة وحضاريّة متراكمة، كما تحيل على التلاقح الثقافي الناجم عن الاحتكاك بالشعوب الأخرى.

ورغم أنّ الرّسم بالحنّاء على الجسد يتوجّه حاليّا بالأساس لغرض التزيّن والتّجميل، بأشكال قد تكون دخيلة عن التراث البنزرتي، أو هي قديمة مُحدثة يغلب عليها الطابع العصري، فإنّ مواصلة استعمالها في حدّ ذاته يعكس مدى رسوخها في ذاكرة المرأة ومخيالها، رغم تغيّر السياقات الاجتماعيّة بفعل حركة التّحديث التّي أعادت رسم صورة المجتمع برمّته.

لقد فقدت الحنّاء اليوم العديد من جوانبها الوظيفيّة التقليدية لتتّخذ وظائف جديدة تتماشى ومقتضيات المجتمع الحديث، فنسق الحياة العصرية ومنطق الاستهلاك اعتمادا على السوق، قد غيّرا الثقافة المتصلة بالحناء، حيث دفعا إلى التّجديد والابتكار، والاقتصاد في الجهد والمال والوقت، وهو ما يدلّ على ديناميكية التراث التقليدي، ذلك أنّه، وإن بدا في ظاهره جامدا، فهو في الحقيقة متحرّك باستمرار،

وبقاؤه هو رهين هذا التفاعل المستمرّ مع الواقع، و لاشكّ أنّ الحناء هي نموذج لديناميكية التّراث، فهي مازالت تتربّع على عرش الصدارة في الاحتفال بالزّواج، و'ليلة الحنه' لاتزال مستمرّة كرابط اجتماعي بامتياز، وإن اختلفت العديد من طقوسها الاحتفاليّة، فإنّها تمثّل ذالك الإطار االذّي يُحتفل فيه بالعروس وحنّتها، و كذا الأمر بالنسبة للعريس و الطّفل الذّي سيختن، فهي تلك المادّة السحرية المقدّسة التّي تمنح الجمال والسّعادة والوقاية من كلّ سوء.

قائمة المصادر والمراجع

باللغة العربية

- ابن منظور: **لسان العرب**، المجلد الاول، دار صادر بيروت دون تاريخ.
- أبو جعفر احمد بن ابراهيم الجزار: **الاعتماد في الادوية المفردة (العلاج بالادوية العربية)**، حقق المخطوطة ادوار القش، شركة المطبوعات للتوزيع والنشر .الطبعة الاولى 1998
- أبي بكر عبد الله بن محمد المالكي: **رياض النفوس (في طبقات علماء القيروان وإفريقية وزهادهم ونساكهم وسير من أخبارهم وفضائلهم وأوصافهم)** تحقيق بشير البكوش، مراجعة محمد العروسي المطوي،الطبعة الثانية، دار الغرب الإسلامي 1994.
- احمد ابن ابي الضياف: **اتحاف اهل الزمان باخبار ملوك تونس وعهد الامان**،ج 2، الدار التونسية للنشر 1989.
- اكرم قانصو: **التصوير الشعبي العربي**، عالم المعرفة 1995
- اسعد لطفي حسن: **الزواج في الإسلام**، الطبعة الاولى، مصر 1938
- الجيلالي المستاري: **الجسد والمقدس** قراءة في الخطاب الفقهي لابن قيّم الجوزية، مجلة إنسانيات 31\ 2006، ص 95-96
- الحسن بن محمد الوزان الفاسي المعروف بليون الإفريقي: **وصف افريقيا** الجزء الأول دار الغرب الإسلامي طبعة ثانية 1983
- الخطيب العدناني: **الملابس والزينة في الاسلام** ،مؤسسة الانتشار العربي، الطبعة الاولى1999
- المولدي لحمر: **انتقائية التفكك والنمو في الأرياف التونسية (التحولات الحديثة في الصناعات اليدوية المنزلية بسجنان)** دار سحر للنشر جانفي 2003
- القرآن الكريم
- الصادق الرّزقي: **الاغاني التونسية** الدار التونسية للنشر 1989.
- بلقاسم بن محمد بن جراد: **قابس عبر التاريخ** مطبعة الخدمات السريعة قابس 2001 ص27

- بنزرت عبرالتاريخ : **أعمال الندوة السنوية التاريخيّة لمدينة بنزرت** دورتا سنة 1991 وسنة 1992 نشر جمعيّة صيانة المدينة –بنزرت 1993

- **بنزرت تاريخ وذاكرة**، الشركة التونسية للنشر وتنمية فنون الرسم 2002

- سنيا العامري: **العادات الغذائية وفنون الحفظ والطبخ بجهة بنزرت**، بحث لنيل شهادة الماجستير، كلية العلوم الانسانية والاجتماعية ديسمبر2003

- حامد العجاجي **وطن ماطر نشأة مدينة ومدوّنة إعلام ومعالم 1856 -1956**، الطبعة الأولى 2002

- صوفية السحيري بن حتيرة : **الجسد والمجتمع (دراسة انثروبولوجية لبعض الاعتقادات والتصورات حول الجسد بافريقية في العهد الحفصي)** بحث لنيل شهادة الدكتوراه في التاريخ الوسيط .كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية 2003-2004.

- عبد الله محمد ابن مفلح المقدسي: **الاداب الشرعية** (المتوفّي سنة 763 هـ)، تحقيق شعيب الارنؤوط/ عمر القيّام، الجزء الثالث، مؤسسة الرسالة، بيروت 1999.

- عبد الله بن عبد الرحمن الدرامي السمرقندي: **سنن الدرامي**، الجزء الثاني، دار الكتاب العربي 1987

- محمد بن احمد التيجاني: **تحفة العروس ومتعة النفوس** تحقيق جليل العطية رياض الريس للكتب والنشر الطبعة الأولى 1992

- محمد عادل الخزنابي: **العناية بالشعر واللحية لدى الرجل في صدر الاسلام**، مجلة الفنون والتقاليد الشعبية رقم 10، وزارة الشؤون الثقافية 1990.

- محمد بن علي الشوكاني : **نيل الأوطار**، الجزء 6، دار الحديث، الطبعة 1، 1993

- محمد بن أحمد بن أبي سهل السرخسي: **المبسوط**،الجزء العاشر دار المعرفة 1989

- محمد بيومي مهران: **المغرب القديم (مصر والشرق الادنى القديم** (9) دار المعرفة الجامعيّة 1990

- محمد بن أحمد بن سالم السفاريني: **غذاء الألباب في شرح منظومة الآداب** . الجزء الاول ط2، مؤسسة قرطبة 1993

- نور الدّين بن قنديل: **الموت وتقاليده في بعض المدن الاندلسية طبربة نموذجا**، بحث لنيل شهادة الدّراسات المعمقة في التراث، جامعة تونس الأولى كليّة العلوم الإنسانية والاجتماعية تونس 2004/2003 .

باللغة الاجنبية :

- Ahmed Kassab /Hafed Sethom:*Les régions géographiques de la tunisie*, faculté des lettres et des sciences humaines de tunis, volume XIIIpublications de l'université de tunis 1981
- Aline Tauzin : *Le Henné, art des femmes de Mauritanie*, Paris Ibis Press, UNESCO 1998
- Aziza Ben Tanfous: *le maquillage traditionnel*, cahiers des arts et traditions populaires, revue du centre des arts et traditions populaires n°6, ministéres des affaires culturelles tunis 1977
- Bonniard (A) : *Bizerte et sa région*, Annales de géographie de France N°188, volume 34, 1925
- Bonniard F : *La Tunisie du nord le Tell septentrional*, étude de géographie régionale, P. Geuthner, paris 1934
- Chadly Ben Abdallah : *Fêtes religieuses et rythmes de Tunisie*, J.P.S. Editions 1988
- Champault D.: *Les jours du mariage*, Cahiers des arts et traditions populaires N°10, Ministere des affaires culturelles – Tunis 1990
- Chevalier Jean et Alain Gherbrant : *Dictionnaire des symboles ; Mythes, reves, coutumes, gestes, formes, figures, couleurs, nombres*. Robert Laffont / Jupiter, collBoquins Paris 1990.
- Collectif : *traditional henna designs*, the pepin press, Amsterdam and singapore 2000
- Ct Hannezo : *Revue Tunisienne 1904*, tome XI
- Dornier P : *La politesse bédouine dans les campagnes du nord de la tunisie :Le mariage*,I.B.L.A,VIII/69 1 er trimestre 1955,
- G.S Colin : *Encyclopédie de l'islam*, nouvelle edition tome III,H-IRAM,1975
- Gober(E.G) : *Parfums et tatouages*, edition sahar 2003 p 159 Patrimoine ethnographique de la Tunisie

- Hannezo (Ct) : *Revue tunisienne* : Organe de l'institut de carthage association tunisienne des lettres, sciences et arts, Tunis 1905
- Herber, J. *La main de Fatma* , Revue Hespéris, Tome VII, 1927, Paris,
- Kamel Tmarzizet : *Tunisie : Rites et cérémonies*, Maison tunisienne de l'édition, Mai 1979.
- L.Bertholon / E.Chantre : *Recherches anthropologiques dans la berbérie orientale : Tripolitaine, Tunisie, Algérie.* A.Rey, imprimeur- éditeur 4, RueGentil, Lyon 1913
- Mebarek Slaouti Taklit : *L'alphabet latin serait-il d'origine berbére* ? L'harmattan 2004
- M. Gast, « Henné », *Encyclopédie berbère*, 22 | Hadrumetum – Hidjaba, Aix-en-Provence, Edisud, 2000.
- M.Kerrou : *La mort au féminin*, Cahiers des arts et traditions populaires N°10,Ministere des affaires culturelles – Tunis 1990
- Malek Chebel: *Dictionnaire des symboles musulmans : Rites, mystique et civilisation,* Editions Albin Michel S.A, Paris 1995
- Malek Chebel : *l'imaginaire arabo- musulman*, Presses universitaires de France ,1 janvier 1993
- Renaut Luc : *Recherches sur le henné antique*, J.N.E.S, vol 68 /3 July 2009.
- Slimane-Mostafa Zbiss /Abdel-Hakim Gafsi / Mohiedne Boughanim/Mikel Epalza : *Les morisques-andalous*, Institut national d'archeologie et d'art, Tunis 1983
- Vonderheyden M : *Le henné chez les musulmans de l'Afrique du Nord.* Journal de la Société des Africanistes. 1934, tome 4 n°1..

الكتب المترجمة :

- انتوني غدنز: **علم الاجتماع** ، ترجمة وتقديم : فايز الصياغ ،المنظمة العربية للترجمة، ط1 ، بيروت اكتوبر 2005.
- مرسيا الياد: **البحث في التاريخ والمعنى في الدين**، ترجمة وتقديم سعود المولي، المنظمة العربية للترجمة، الطبعة الاولى، بيروت 2007.
- روجيه كايوا: **الانسان والمقدّس**، ترجمة سميرة ريشا، مراجعة جورج سليمان، المنظمة العربية للترجمة، ط1 بيروت 2010.

المصادر الالكترونية:

- البشير المزي:نشر في الشروق بتاريخ 11 - 08 - 2011

www.turess.com/alchourouk/502622

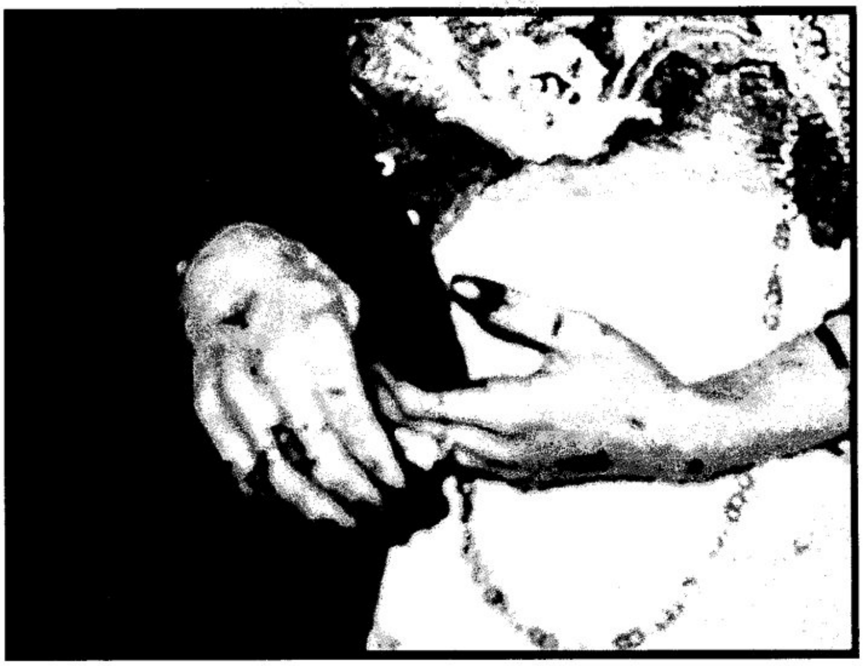
- حسان البيرومي: **ما هي أضرار الحناء السوداء**، مدوّنة الدكتور حسان البيرومي للتوعية الصحية، كتب بتاريخ 18/05/ 2012 albeiroumi.com/ 2012/05...

الملاحق

مدوّنة رسوم الحنّاء بجهة بنزرت

تحتوي هذه المدوّنة على مجموعة من رسوم الحنّاء لمناطق مختلفة بجهة بنزرت. وتتمثّل في رسوم جسديّة (تحديدا على الأيادي والأقدام)، وأخرى مأخوذة عن جدران بعض مقرّات الأولياء الصّالحين بالجهة. وأمّا رسوم الجسد فستنقسم بدورها إلى رسوم 'حنّة تقليدية' في مرحلة أولى، وأخرى حديثة { تغيير في الرّسم والأدوات المستعملة} أو هي مُحدثة { كالحفاظ على جانب من الأشكال التّقليديّة ودمجها مع أشكال دخيلة عن التّراث البنزرتيّ أو الاعتماد على أدوات تقليديّة للحصول على رسوم حديثة} في مرحلة ثانية.

رسوم حنّاء تقليديّة



صورة رقم 1حنّه سوالف

- اسم الرّسم: حِنّه سْوَالِفْ بِالصْنَاجِر (مْصَنْجرَه) والحرقوس
- أداة الرّسم: عن طريق السّبابة للحنة ورأس الابرة للحرقوس
- المنطقة: العالية*

* يرجع تاريخ هذه الصورة الى 17-07-1979



صورة رقم 2حنه سوالف

- إسم الرّسم: حنه سْوالِف (حنة عربي)
- أداة الرّسم: عن طريق السّبابة
- المنطقة: الماتلين*

* اخذت هذه الصورة بتاريخ: 12-03-2011



صورة رقم 3 حنه سوالف

- **إسم الرّسم: حنة سوالف**
- **أداة الرّسم: السّبابة**
- **المنطقة: ماطر***

* اخذت هذه الصورة بتاريخ : 02-09-2012



صورة رقم 4 حنه سوالف

- إسم الرّسم: حنّه عَرْبي أو حنّه سْوالف
- أداة الرّسم: عن طريق السّبابة والشّريط اللّاصق
- المنطقة: سجنان*

* اخذت هذه الصورة بتاريخ : 27-07-2010



صورة رقم 5 حنّه سوالف

- **اسم الرّسم: حنّه عربي\حنّه سوالف**
- **أداة الرّسم: عن طريق السّبابة**
- **المنطقة: سجنان***

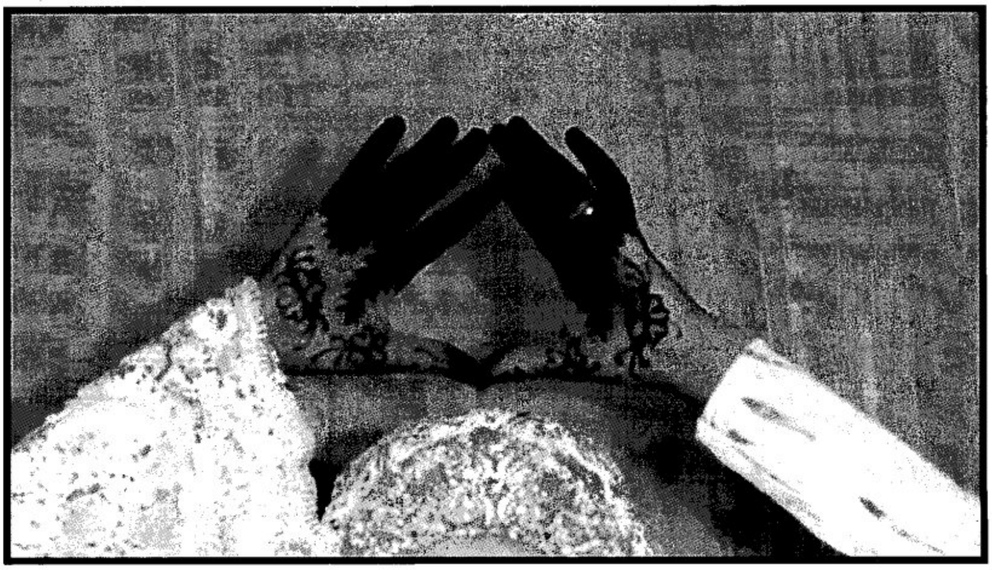
* اخذت هذه الصورة بتاريخ : 05-08-2011



صورة رقم 6 حنّه سوالف

- اسم الرّسم: حنة سوالف وحرقوس
- أداة الرّسم: عن طريق السّبابة للحنّة ورأس إبرة للحرقوس
- المنطقة: بنزرت*

* اخذت هذه الصورة بتاريخ : 27-07-2010



صورة رقم 7 حنّه سوالف\ مْشَرْفه

- اسم الرّسم: حنّة عربي مْشَرْفة
- اداة الرّسم: عن طريق السّبابة والحقنة
- المنطقة: سجنان*

* اخذت هذه الصّورة بتاريخ : 12-09-2012



صورة رقم 8 حنّه سوالف

- اسم الرّسم: حنّه سوالف أو حنّه عربي
- اداة الرّسم: عن طريق السّبابة
- المنطقة: جومين*

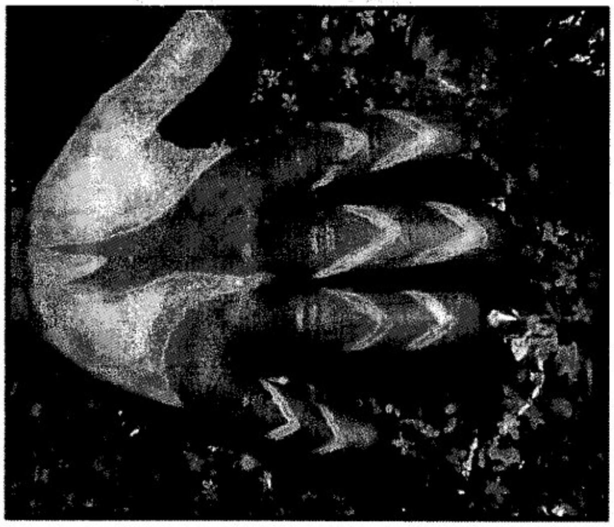
* يعود تاريخ هذه الصورة الى 09\ 2001



صورة رقم 9 حنه سُوالف

- اسم الرّسم: حنة سوالف بالصْناجِر
- اداة الرّسم: عن طريق السبّابة
- المنطقة: بازينة*

* اخذت هذه الصورة بتاريخ : 10-09-2011



صورة رقم 10 حنه سوالف بالشُّراف

- اسم الرسم: حنّة سْوالف
- أداة الرّسم: عن طريق السبّابة والشّريط اللاّصق
- المنطقة: ماطر*

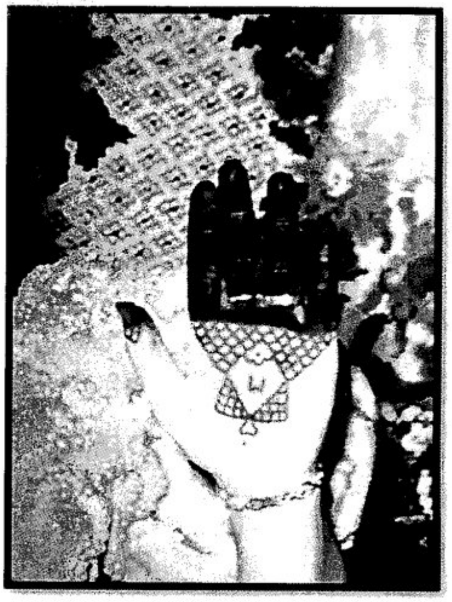
* اخذت هذه الصورة بتاريخ : 12-08-2013



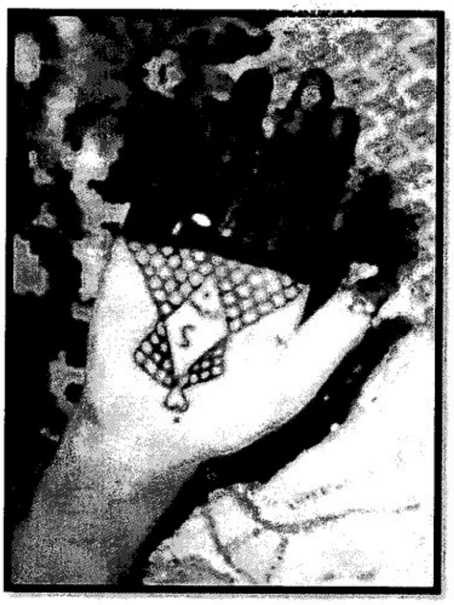
صورة رقم11 حنّه سوالف مع تشْريف

- اسم الرّسم: حنه سُوالف
- اداة الرّسم: عن طريق السبّابة والشّريط اللاصق
- المنطقة: سجنان*

* أخذت هذه الصورة بتاريخ : 06-2011



صورة رقم **12** حنّه شبكوني



صورة رقم **13** حنّه شبكوني

- **اسم الرّسم: حنّه شبكوني بالصْناجر**
- **اداة الرّسم: السبابة للاصابع والحقنة للكف**
- **المنطقة: العالية***

---

*يرجع تاريخ هذه الصورة الى اوت 1991



صورة رقم 15 حنّه شبكوني للكف

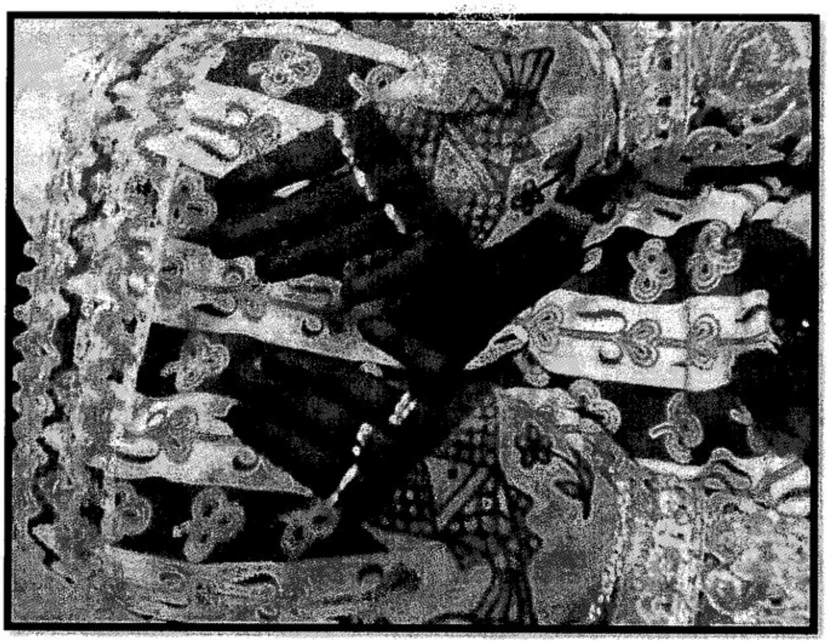


صورة رقم 14 حنّه شَبَكُونِي لظهر اليد

- **اسم الرّسم: حنّه شبكوني وحرقوس**
- **أداة الرّسم: الحقنة**
- **المنطقة: رأس الجبل***

---

* اخذت هذه الصورة بتاريخ : 25-01-2002



صورة رقم 16 حِنة الحُوتَه

- اسم الرّسم: حنّه عربي أو حنّة الحوتة
- اداة الرّسم: عن طريق السبّابة للاصابع والحقنة للكف
- المنطقة: رفراف*

* اخذت هذه الصورة بتاريخ : 12-07-2010



صورة رقم 18 حنّه شبكوني لظهر اليد



صورة رقم 17 حنه شبكوني للكف

- اسم الرّسم: حنة شبكوني وحرقوص
- اداة الرّسم: عن طريق السبّابة للاصابع والحقنة للكف
- المنطقة: عوسجة*

* يرجع تاريخ هذه الصورة الى 1992



صورة رقم 19 حنّه شبكوني للكف



صورة رقم 20 حنّه شبكوني لظهر اليد

- اسم الرّسم: حنّة شبكوني
- أداة الرسم: عن طريق الحقنة
- المنطقة: منزل بورقيبة*

* اخذت هذه الصورة بتاريخ : 20-09-2013





صور رقم 23/22/21

21 حنّة بَعْبُوصْ حُوتَه للكف/22 حنّه مع نقشة ظهر اليد/ 23 حنّه كياس

- اسم الرّسم: 'حنّه قْشُور حوت' أو 'حنّة بعبوص حوته' لليدين وحنّة كيّاس للقدمين مع الحرقوس
- أداة الرّسم: عن طريق السبّابة والحقنة البلاستيكيّة منزوعة الابرة
- المنطقة: منزل جميل*

* اخذت هذه الصورة بتاريخ : 07-09-2013



صورة رقم 24 حنّة الحُوتَه

- اسم الرّسم: حنّة شبكوني أو حنّة الحوته
- اداة الرّسم: الحقنة
- المنطقة: غار الملح*

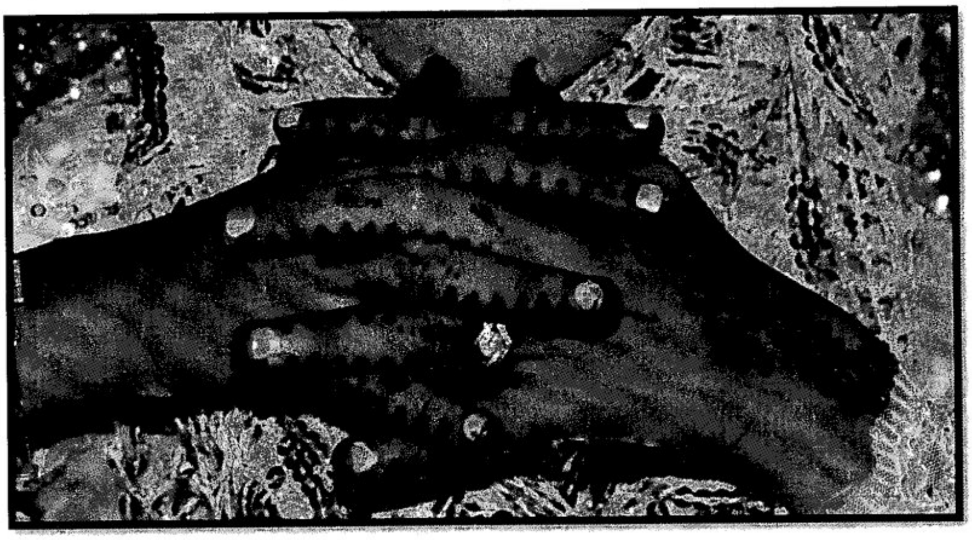
* اخذت هذه الصورة بتاريخ : 10-04-2009



صورة رقم 15 حنّه شبكوني

- اسم الرّسم: حنه شبكوني أو حنّة الحوته
- اداة الرّسم: عن طريق السبّابة للاصابع والحقنة للكف
- المنطقة: سجنان*

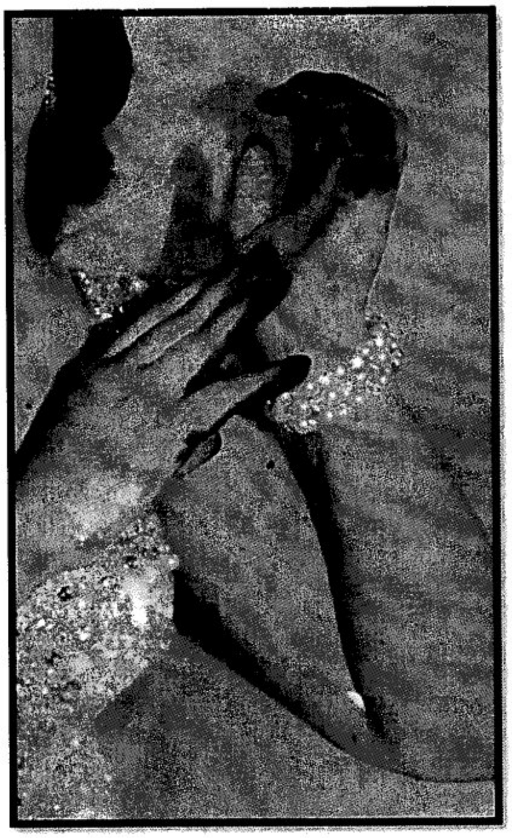
* اخذت هذه الصورة بتاريخ : 12-3-2011



صورة رقم 26 حنه شَرَاف بظهر أصابع اليد

- اسم الرّسم: حنّة شرّاف
- أداة الرّسم: عن طريق السبّابة
- المنطقة: سجنان*

* اخذت هذه الصورة بتاريخ : 12-03-2011



صورة رقم 27 حنه سوالف مع تشريف

- اسم الرّسم: حنّه سوالف مع شرّاف في الكف
- أداة الرّسم: عن طريق السبّابة
- المنطقة: باجّو*

* اخذت هذه الصورة بتاريخ : 10-07-2010

رسوم حناء حديثة/ مُحْدَثة



صورة رقم 28 رسوم حنّه حديثة

- اسم الرّسم: حنّه بالزرّيقة حنّه سوري أو حنّه على النّمط الحديث

(الابقاء على استعمال الحقنة كأداة للرّسم مع تغيير كلّي للأشكال التقليديّة)

- أداة الرّسم: الحقنة
- المنطقة: رأس الجبل*

* اخذت هذه الصورة بتاريخ : 06-03-2011



صورة رقم 29 أشكال حديثة لكف اليد



صورة رقم 30 شكل الشبكوني بظهر اليد

- اسم الرّسم: حنّه بالزريقة أو شبكوني لظهر اليد

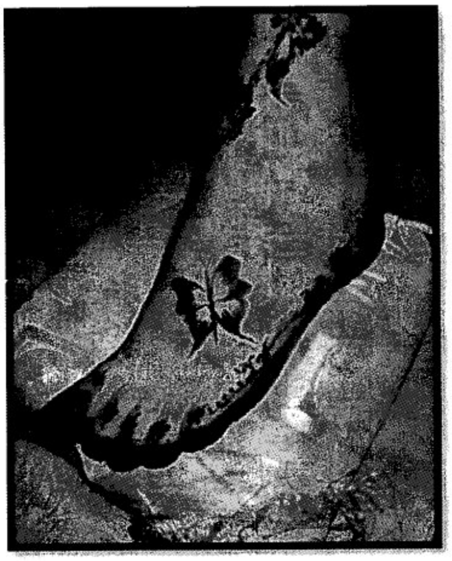
(حنّاء محدثة وذلك بالحفاظ على شكل 'حنّه شبكوني' في ظهر اليد الاصابع تحديدا مع تغيير كلّي للاشكال المرسومة في الكفّ)

- أداة الرّسم: عن طريق الحقنة
- المنطقة: رأس الزبيب*

* اخذت هذه الصورة بتاريخ : 22-03-2013







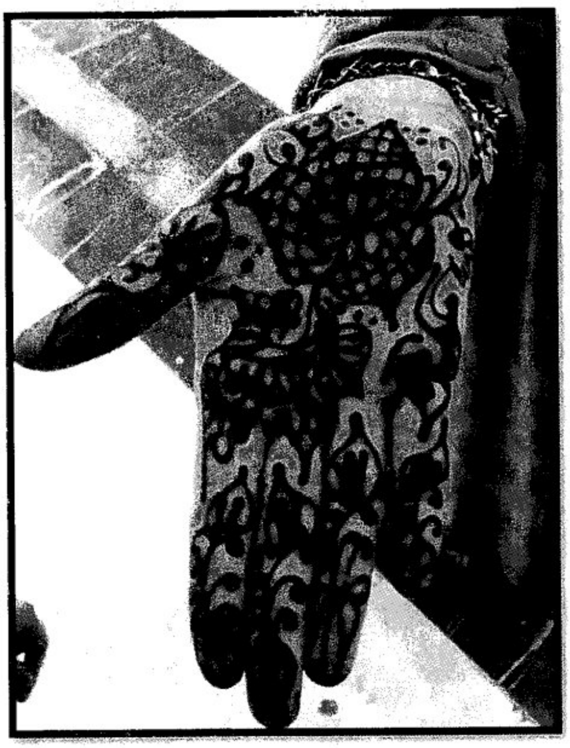
صور رقم 33/32/31

31 أشكال حديثة للكف/ 32الحفاظ على الشكل التقليدي لظهر اليد/ 33حنه كياس للقدم

- **اسم الرّسم: حنّة محدثة**
- **أداة الرّسم: عن طريق السبابة والحقنة**
- **المنطقة: ماطر***

---

* اخذت هذه الصورة بتاريخ 20-08-2013



صورة رقم 34 حنّه حديثة

- اسم الرّسم: 'حنة مغربية' أو ما تعرف بالحنّه السّوداء

(رسوم حنّاء دخيلة عن التّراث البنزرتي وأشكاله التقليديّة)

- أداة الرّسم: عن طريق الانبوب الجاهز للاستعمال
- المنطقة: بنزرت*

---

* اخذت هذه الصورة بتاريخ : 05-10-2011



صورة رقم 35 حنّه حديثة

- اسم الرّسم: حنّة هندية
- أداة الرّسم: اللاّصق الجاهز للاستعمال
- المنطقة: منزل جميل*

* اخذت هذه الصورة بتاريخ : 12-02-2013



صورة رقم 36 حنه حديثة

- اسم الرّسم: 'حنّه خليجيّة'
- أداة الرّسم: الانبوب الجاهز
- المنطقة: سجنان*

* اخذت هذه الصورة بتاريخ : 01-09-2012



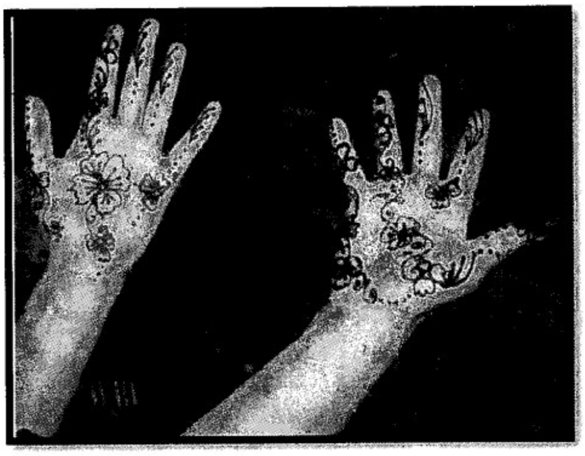
صورة رقم 37 حنَة اللَصقة

- اسم الرّسم: 'حنّه خليجيّة' أو' حنّة اللّصقة'
- أداة الرّسم: الشّريط اللاّصق
- المنطقة: الماتلين*

* اخذت هذه الصورة بتاريخ :03-2012



صورة رقم 38 حنّه حديثه للقدمين



صورة رقم 39 حنّه حديثه لليدين

- اسم الرّسم: 'حنّه بالزرّيقة' أو 'حنّه سوري'
- أداة الرّسم: الحقنة
- المنطقة: عوسجة *

* اخذت هذه الصورة بتاريخ : سبتمبر 2012



صورة رقم 40 حنّه حديثة الاشكال لليدين

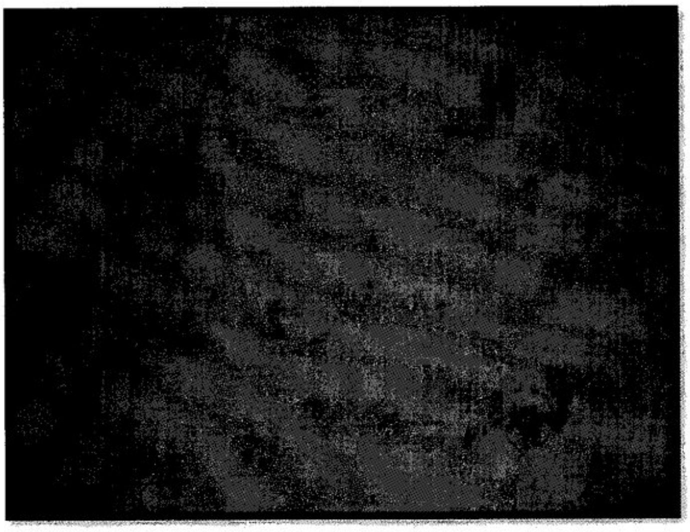


صورة رقم 41 حنّه مُحدثة باضفاء أشكال جديدة

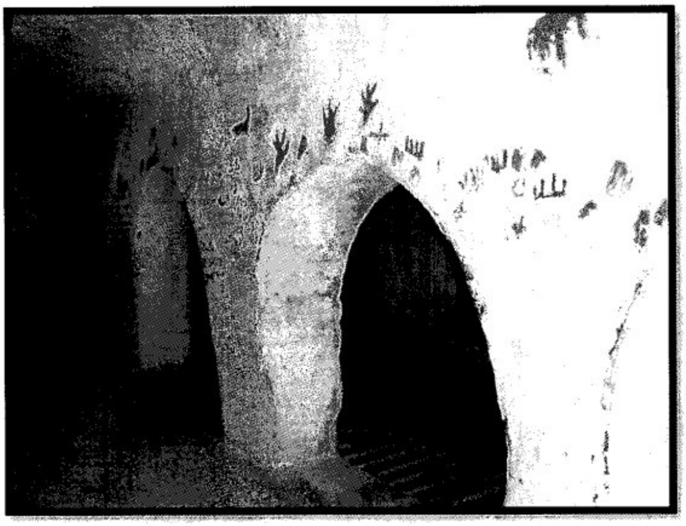
- اسم الرّسم: حنّة بالزرّيقة
- أداة الرّسم: الحقنة للكفين / السبّابة و الحقنة للقدمين
- المنطقة: الماتلين*

* اخدت هذه الصورة بتاريخ 08-2010

رسوم حنّاء بمقرّات الأولياء الصّالحين



صورة رقم 42: أثر نصّ مكتوب بالحنّاء جاء محتواه في شكل دعاء*



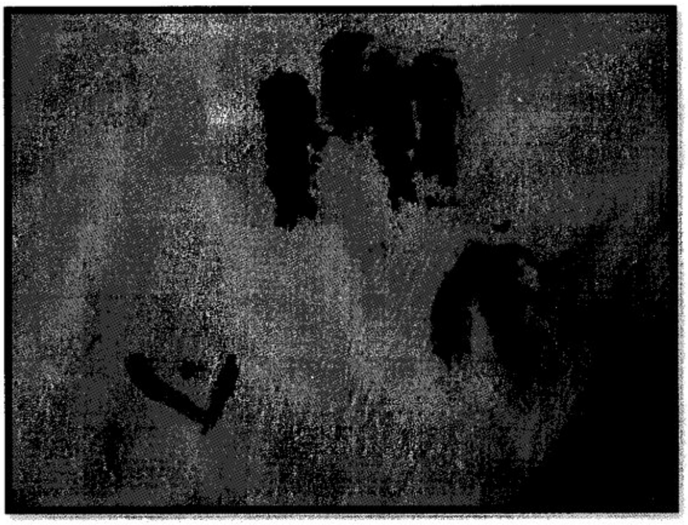
صورة رقم 43: جدار من زاوية سيدي بن سعيدان من منطقة سجنان يلخّص جملة من الاشكال الهندسيّة الى جانب الخُمسة والمشط **..

* زاوية سيدي بن سعيدان سجنان، بتاريخ 29\11\2010
** نفس التاريخ السابق



<u>صورة رقم44</u>

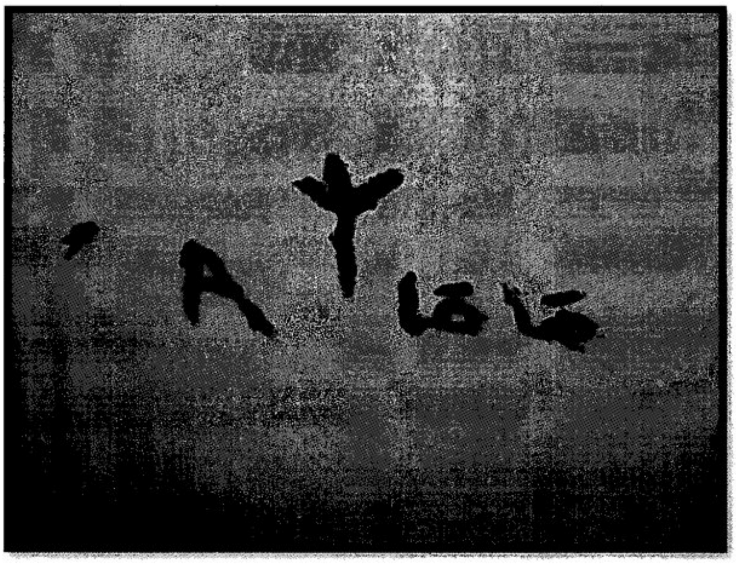
*اسم الله ورسوله محمّد مكتوب بالحنّاء



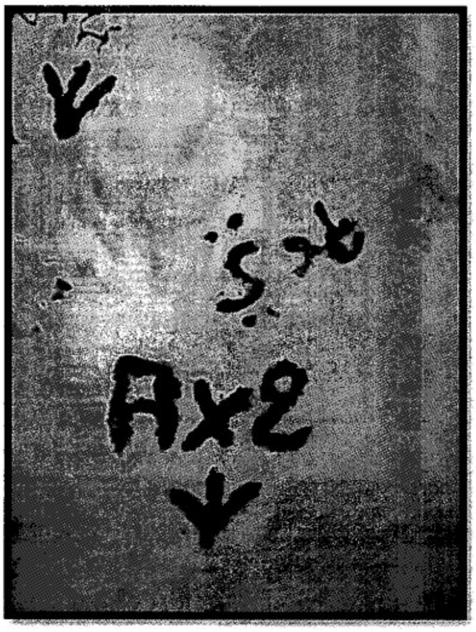
صورة رقم 45

**الحرفV تتوسّطه نقطة أو قاعدته لاعلى مع خطوط تشكّل الرقم4

* زاوية سيدي بن سعيدان سجنان بتاريخ 29\11\2010
** نفس الزاوية السابقة، نفس التاريخ



صورة رقم 46 كتابة مع شكل النّبتة بثلاث فروع*

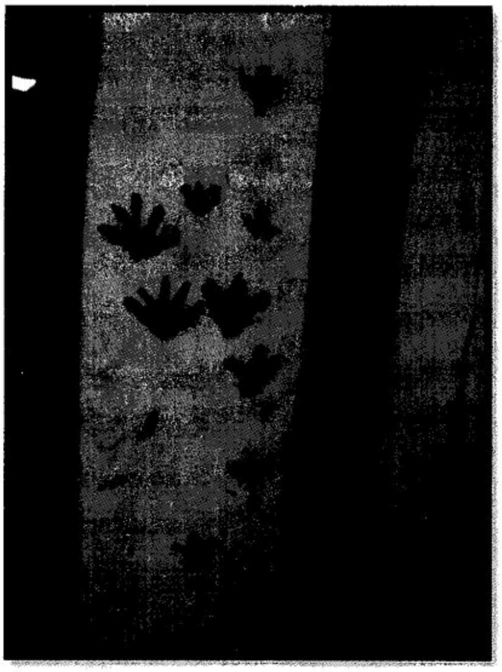


صورة رقم 47 المزج بين الكتابة والأشكال**

---

* زاوية لعجولة براس الجبل بتاريخ 2010\12\03

** نفس الزاوية السابقة نفس التاريخ



صورة رقم48 الخُمسة و النبتة بثلاث فروع*



صورة رقم 49 كتابة في شكل دعاء "يْبرِّدْ الله وَجْهَهُ"**

---

* زاوية لعجولة براس الجبل بتاريخ 03\12\2010
** زاوية سيدي بوشوشة الماتلين بتاريخ 04\09\2011



صورة رقم 50 الخُمسة\ شكل اليد*



صورة رقم 51 شكل اليد**

* زاوية سيدي بوشوشة الماتلين بتاريخ 04\09\2011

** زاوية لعجولة براس الجبل بتاريخ 03\12\2010

فهرس المحتويات

مقدّمة عامّة...1

- دواعي اختيار الموضوع..2
- دراسة نقديّة للمصادر والمراجع 3
- تقنيّات البحث 4
- صعوبات العمل الميدانيّ وكيفيّة تجاوزها 5
- المصطلحات الرّئيسيّة 5
- هيكل البحث...8

الباب الأول: تقديم مجال الدّراسة: ولاية بنزرت من حيث الخصائص الجغرافية والمعطيات التاريخية 9

1 . الإطار الجغرافي 11

أ- الخصائص الطبيعيّة 11

ب- الخصائص السكانيّة (البشرية)..13

2. الإطار التاريخي 16

أ- مختلف المراحل التاريخية..16

ب- أهمّ العناصر البشريّة المستقرّة بالجهة 20

الباب الثاني: استعمالات الحنّاء 23

1. المعارف و التّقنيات المتّصلة بها 24

أ- تجارة الحنّاء 24

ب- طريقة التحضير 30

ج- عمليّة التّحنية 32

2. المحامل التّي توضع عليها 40
أ- الجسد 40
ب- الحيوان 45
ج- الجماد 47
الباب الثالث: سياقات استعمال الحنّاء: المناسبات الاجتماعية ودورة الحياة 50
1. الاحتفالات العائليّة 51
أ- حفلات الزواج 51
ب- الختان 64
ج- الولادة 67
د- الحجّ 69
2. الاحتفالات الدينيّة 70
أ- عيد الفطر 70
ب- عيد الأضحى 72
ج- المولد النبوي 73
د- العاشوراء 74
3. الموت 75
أ- الحنّاء والميّت 75
ب- الحداد 77
4. زيارة الأولياء الصالحين 78
الباب الرّابع: المظهر الفني لممارسة الحنّاء 82
1 . طرق الرّسم بالحناء 83
2. الأشكال المتّبعة 87
3. الألوان 94

الباب الخامس: وظائف الحنّاء و دلالاتها........................ 98
1. وظيفة دينيّة.. 99
2. وظيفة تجميلية.. 100
3. وظيفة صحيّة 102
4. وظيفة طقوسيّة.. 105
5. الأبعاد الرمزيّة.. 110
أ- رمزيّة الحنّة 110
ب- رمزيّة الرّسوم.. 114
6. الأبعاد الاجتماعيّة الثقافيّة 125
7. الأبعاد الحضاريّة.. 129
الخاتمة.. 133
قائمة المصادر والمراجع.. 135
الملاحق.. 140
مدوّنة رسوم الحنّاء بجهة بنزرت.. 141
الفهارس.. 180
فهرس الصّور والوثائق 181
فهرس المحتويات.. 186

الجمهورية التونسية
République Tunisienne
وزارة التعليم العالي و البحث العلمي
Ministère de l'Enseignement Supérieur et de la Recherche Scientifique
جامعة تونس
Université de Tunis

كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية بتونس
FACULTÉ DES SCIENCES HUMAINES ET SOCIALES DE TUNIS
FACULTY OF HUMANITIES AT TUNIS

ملخـــــص حول:
شهادة الماجستير

ن.ق – أمد

الشعبة: تراث............

لغة التحرير: عربية – فرنسية – انقلزية

الاسم: سعاد............................ اللقب: بن لاغة...

الهاتف :985 406 72..........................

الأستاذ المشرف :عماد صولة............................ تاريخ المناقشة: 16 جوان 2014.........................

عنـــوان الرسالة : الحنّاء و رسومها بجهة بنزرت

الملخص :(14سطرا – الحجم 14)

تمثل الحنّاء ثقافة تجمع بين المادّي والرّمزي والخصوصيّ والمشترك والدّيني والدّنيوي، وباعتبارها من نباتات الجنة التي أوصى بها النّبي (ص)، ترسّخت جملة من المعارف والتقاليد والتصورات و الرّمزيات المرتبطة باستخدامها، فكان حضورها بارزا في أهمّ المناسبات الاجتماعيّة في المجتمع التونسي ملازمة للإنسان من الولادة إلى الموت.

من هذا المنطلق يحاول البحث إعادة تركيب الثّقافة التّقليديّة المتعلّقة بالحنّاء بجهة بنزرت على صعيدين أساسيّين هما الممارسات و التّصوّرات ، مع بيان علاقة هذه الثّقافة بالسّياق الإجتماعي المحلّي الذّي ترتبط به. فإذا كانت هي مستمرّة إلى الآن ، فلا شكّ لأنّها لا تزال على صلة وثيقة بالواقع الرّاهن .

استهلّ هذا العمل بتسليط الضّوء على دراسة الحنّاء كمادّة لونيّة ترتبط بها جملة من التقنيات و الخبرات في الاستعمال. من ثمّ تتبع كيفيّة حضورها في دورة الحياة و أهمّ مناسباتها الاجتماعيّة. فابراز خصائصها من النّاحية الفنّيّة و التّقنيّة بأعتبارها تقوم على مهارات ومرجعيّات خاصّة من حيث الأشكال الزخرفيّة والألوان، وذلك قبل محاولة تحليل الأبعاد الرّمزيّة الّتي تنطوي عليها، ذلك أنّها تتّخذ أشكالا رمزيّة عفويّة لا تفصح عن معناها في الغالب بصفة مباشرة ممّا يدعو إلى تحليلها وتأويلها.

....

معلومات بيبليوغرافية

عدد الصفحـــات:188
عدد المجلـــدات:01
عدد المراجـــع:57
عدد المشخصات:--

الكلمات المفاتيح

1 -الحناء...............
2 -رسوم الحناء.......
3 -جهة بنزرت........
4 -.......................

يتعين رقن الجذاذة عند تعميرها

(*) شطب الاختصاص الغير مناسب

كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية بتونس
FACULTÉ DES SCIENCES HUMAINES ET SOCIALES DE TUNIS
FACULTY OF HUMANITIES AT TUNIS

الجمهورية التونسية
République Tunisienne
وزارة التعليم العالي و البحث العلمي
Ministère de l'Enseignement Supérieur et de la Recherche Scientifique
جامعة تونس
Université de Tunis

RESUME
Magistère :

AR

~~LMD~~

Spécialité: Patrimoine…

Langue: (Arabe) – ~~(Français)~~ – ~~(Anglais)~~

Nom :…Ben lagha…………………..**Prénom** : Souad………………………
Directeur de Thèse: Imed Soula…………………………………………
Date de Soutenance :16 juin 2014………………………………

Titre de Thèse:
…Le henné et ses dessins dans la région de Bizerte

Résumé:

Le henné est une culture qui allie entre le matériel et le symbolique, l'individuel et le collectif, le religieux et le profane. Considérant qu'il est une plante du paradis qui a été recommandé par le Prophète « Mohamed », mis en place, de connaissances, de traditions et de symbolisme lié à leur utilisation. Ce que lui permet d'avoir une présence importante dans les événements sociaux de la société tunisienne : dés la naissance jusqu'à la mort de l'être humain.

Cette recherche tente de reconstruire la culture traditionnelle liée au henné dans la région de Bizerte sur deux niveaux principaux : les pratiques et les perceptions, on indiquant la relation de cette culture avec le contexte social local.

On a commencé ce travail par la présentation du henné comme matière colorante lié à des expériences et des connaissances dans l'utilisation. Puis on a suivi sa présence dans le cycle de vie et les grands évènements sociaux.Ensuite on a insisté, sur ses propriétés artistique et technique surtout qu'il est basé sur des compétences et des références spéciaux : notamment en termes de motifs décoratifs et couleurs. Avant d'analyser à la fin ses dimensions symboliques.

Indication bibliographiques

-Nombre de pages 188….
-Nombre de Volume……..
-Nombre de références 57…
-Bibliographiques…………..
-Nombre illustrations……….

Mots-clés/vedettes-Matières

1-Le henné
2-les dessins du henné
3-région de Bizerte
4-
5-